

فصول فى

ثقافة العرب قبل الإسلام

فصول فى

ثقافة العرب قبل الإسلام

د. إبراهيم عوض

القاهرة

1928هـ - 2006م

كلمة الافتتاح

يتناول الكتاب الذى بين يديّ القارئ بالبحث بعضاً من جوانب الثقافة العربية قبل الإسلام. ولكى تتحدد المفاهيم أودّ أن أوضح بادئ ذي بدءٍ أنى أستعمل مصطلح "الثقافة" بمعنى النشاط الإنسانى المعنوى وما يتمثل فيه هذا النشاط من لغةٍ ودينٍ وفكرٍ وأدبٍ وفنٍّ وقيمٍ وسلوكٍ وعاداتٍ وتقاليده وقوانينٍ ونظمٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وتربويةٍ... إلخ. والثقافة، كما أفهمها، هى جزء من "الحضارة"، وهذه تشمل عندى "المدنية" و"الثقافة" جميعاً، أى النشاط الإنسانى فى جانبيه الاثنين: الجانب المادى، والجانب المعنوى. صحيح أن هناك من العلماء من يضع "الثقافة" فى مقابل "الحضارة"، ومنهم من يقسم "الثقافة" إلى "ثقافة معنوية" و"ثقافة مادية"، مما يجعلها

ترادف "الحضارة" كما آخذ بتعريفها، ومنهم...، ومنهم... حتى لقد ذكرت تشارلت سيمور سميث في معجمها: "Dictionary of Anthropology" (ضمن ما كتبه تحت عنوان "Culture") أن اثنين من الباحثين في هذا المجال قد استطاعا أن يرصدا عام 1952م، أى قبل أكثر من نصف قرن، نحوًا من 300 تعريف لذلك المصطلح، إلا أن لكل دارسٍ مع ذلك الحقَّ في أن يأخذ بالمعنى الذى يقتنع به ويرتاح عقله إليه. والمهم أن يحدد مصطلحاته حتى لا تفترق بينه وبين قرآئه السُّبُل.

ويطلق الباحثون على تاريخ العرب قبل الإسلام كلمة "الجاهلية"، وهذا المصطلح يحتاج هو أيضا إلى تحديد. وقد تناول مثلا د. شوقي ضيف في أول الفصل الثانى من كتابه: "العصر الجاهلى" هذا الاسم قائلا إن "الجاهلية" ليست مشتقة من "الجهل" الذى هو ضد "العلم"، بل من "الجهل" الذى هو ضد "الحلم". أى أن الجاهلية عنده لا تعنى عدم المعرفة، بل تعنى السفه والغضب والرتق. ثم راح يستشهد على تفسيره هذا ببعض أمثلة من القرآن والحديث والشعر الجاهلى ووردت فيها كلها كلمة "الجهل" بذلك المعنى. وكل هذا جميل وعلى العين والرأس، إلا أنا نستطيع أيضا أن نجد في القرآن والحديث والشعر الجاهلى شواهد أخرى ورد فيها "الجهل" بمعنى عدم

العلم، كقوله سبحانه عن الفقراء المتعفين الذين لا يمدون أيديهم بالسؤال فيظنهم من يجهل أحوالهم أنهم أغنياء: "يخسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. تعرفهم بسيماهم"، وقوله جل شأنه: "يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، وقوله عليه السلام: "إن بين يدي الساعة لأياما يتزل فيها الجهل ويُرفَع فيها العلم ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل"، "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني"، "إن الله لا يترع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون"، "إن القرآن لم يتزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضه، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه"، وكذلك الآيات التالية للناطقة الذبياني وعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وعترة والسّمّوال وتابط شرّاً على الترتيب:

يُنِينَكَ ذُو عَرَضِهِمْ عَنِّي وَعَالِمِهِمْ وَلَيْسَ جَاهِلٌ شَيْءٌ مِثْلَ مَنْ عَلِمَا

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَن مَجْدِنَا إِنَّكَ عَن مَسْعَاتِنَا جَاهِلٌ

أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيِّمِ أَمْ؟ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ

هَلَا سَأَلَتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعَلَمِي

سَلِي، إِنَّ جَهَلْتَ، النَّاسَ عَنَّا وَعَنَهُمُو فَلَيْسَ سَوَاءَ عَالِمٌ وَجَهْلُو

بِمَا الرَّكْبُ أَيَّمَا يَمَّمُ الرَّكْبُ يَمَّمُوا وَإِنْ لَمْ تُلْحُ فَالْقَوْمُ بِالسَّيْرِ جُهَلُّ

... إلخ. لكن ذلك لن يحل المشكلة، إذ المعروف أن مصطلح "الجاهلية" إنما ظهر بعد مجيء الإسلام، وكان القرآن الكريم والرسول أول من استعمله. والمفهوم أن الجاهلية تُناقض الإسلام في كل شيء تقريباً بما في ذلك الحِلْم والعِلْم. أى أن المسألة لا تقف عند مخالفة الجاهلية للدين الجديد في قيمتي الحِلْم والعلم، بل تشمل سائر القيم الإنسانية والاجتماعية والخلقية. وعلى ذلك فالجاهلية لا تقتصر على الجهل أياً كان معناه، بل تعني كل ما أتى الإسلام لمحوه، سواء كان جهلاً أو طيشاً أو كسلاً أو سُكراً أو زنى أو ظلماً أو تجبراً أو ذلة أو نفاقاً أو خيانة أو احتكاراً أو اغتصاباً أو إسرافاً أو يأساً أو حسداً أو قذارة أو فوضى أو قبحا أو كفراً أو شركاً أو عصبية قبلية أو قومية... إلخ. وغير خافٍ أن المعنى اللغوي لأية كلمة لا يتطابق مع معناها الاصطلاحي، بل يكون أوسع منه أو أضيق، بل قد يختلف عنه اختلافاً كبيراً. وربما أراد د. شوقي ضيف أن ينفي الجهل عن العرب قبل الإسلام رداً على من يحاولون التطرق من ذلك إلى الإساءة للعروبة نفسها، إلا أن

الواقع التاريخي يؤكد فعلا أن معارفهم كانت قليلة ولا تعدو أن تكون شظايا متفرقة يمازجها الأوهام والخرافات ولا تقوم على منهج، كما أنهم لم يكونوا يعرفون المدارس والمعاهد، بل كانوا يتشربون معارفهم أثناء حياتهم اليومية تشربا عمليا، إذ كانت تغلب عليهم الأمية. ومن هنا كانت عظمة الإسلام، الذى حول تلك الأمة من حال إلى حال وجعل من أبنائها فى غضون سنواتٍ قلائلٍ سادةً وقادةً للعالم فى كل ميادين الحياة! إلا أن هذه مسألة أخرى.

ويشتمل هذا الكتاب على فصول سبعة فى ثقافة العرب أيام جاهليتهم: أولها عن الشعر الجاهلى، الذى وضعته فى صدارة الكتاب نزولا على ما هو معروف من أن فن الشعر كان يحتل لدى عرب الجاهلية، بل فى التراث العربى عموما، المقام الأعلى بين مفردات الثقافة المختلفة. وقد بحثت فى هذا الفصل عددا من القضايا الهامة المتصلة بذلك الموضوع كأولية الشعر العربى وما قيل عن النحل والانتحال وبناء القصيدة فى شعر الجاهليين، وأعدت النظر فى كل ذلك من جديد. وفى الفصل الثانى تناولت موضوع القصص المنسوب إلى العصر الجاهلى وتساءلت كما تساءل من سبقونى إلى طرُق هذا الأمر: إلى أى مدى يمكن أن نعدّ ذلك القصص نثرا جاهليا؟ كما وقفت أمام بعض نصوصه وحللتها تحليلا مضمونيا وأديبا مبرزاً

ما فيها من نحات المتعة والإبداع. أما الفصل الثالث فخاصٌّ بالأمثال الجاهلية، وقد عالجتها فيه معالجة لغوية واجتماعية، مع التعرض هنا أيضا لبحث المدى الذى يمكن أن نشق فيه بتلك الأمثال، وهل قيلت فعلا في ذلك العصر أو لا؟ كما يتناول الفصل الرابع ما يسمّى في تاريخ الأدب العربى بـ"سجع الكهّان"، أى الأقوال التى كان الكهّان العرب قبل الإسلام يتلفظون بها إذا ما جاء أحد لاستشارتهم في رؤيا رآها وأراد تعبيرها، أو خصومةٍ يبغى وَضْعَ حَدِّ لها، أو منافسةٍ بينه وبين شخص آخر حول مفاخرهما الفردية والقبليّة يراد حسمها... إلخ. وهى أقوال كان أولئك الكهّان يتعمّدون أن تكون مسجوعة تستهوى الأذن وتشغلها بما فيها من توقيع موسيقى، وأن تكون كذلك غامضة تقبل أكثر من معنى، وإن كنت قد شككتُ في كثير منها لأسباب ارتأيتها حسبما سيرى القراء في حينه. وخامس تلك الفصول قد خُصِّصَ لموضوع الخطابة الجاهلية ونصوص الخُطَب التى وصلتنا منسوبة إلى عصر ما قبل الإسلام والمقاييس التى يمكن التعويل عليها في فرز صحيحها من زائفها. أما في الفصل السادس فقد حاولت أن أرسم صورة للأوضاع المختلفة لحياة العرب في الجاهلية كما يمكن استخلاصها من آيات القرآن الكريم مع الاستعانة بتفاسيره وكتب أسباب نزوله. ولا ريب أن القرآن هو المصدر الذى لا

يمكن أن يتطرق إليه الشك في الكلام عن الجاهليين وحياتهم. ويقتضى الفصل السابع والأخير، وهو يضم عددا من الموضوعات تتعلق بأنسب العرب وقبائلهم وأحلافهم ودياناتهم ونيرانهم وأيامهم وأسواقهم ومعارفهم وعلومهم، وقد استقيت خلاصتها من بعض المؤلفات التي تتعرض لتلك المسائل كـ "الإكليل" للهمداني، و"الأغانى" للأصفهاني، و"تاريخ مكة" للأزرقى، و"نهاية الأرب" للنويرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندي، و"التصوير عند العرب" لأحمد باشا تيمور، و"تاريخ آداب اللغة العربية" لجرجى زيدان، و"المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد على... إلخ. وهو فصل شديد الأهمية نظراً لما يشتمل عليه من معلوماتٍ جدِّ شائقةٍ ومفيدة.

وغنى عن القول أننى قد رجعت في هذا الكتاب إلى ما استطعت الرجوع إليه من المؤلفات التي سبقنى أصحابها إلى معالجة ما تناولته هنا من قضايا، وناقشت ما جاء فيها وقلّبتَه على وجوهه المختلفة حتى انتهيت إلى الرأى الذى اطمأننت إليه. وحاولت أثناء ذلك أن أضيف شيئاً جديداً حتى لو كان هذا الجديد هو الزاوية التي أنظر منها إلى القضية رهن المعالجة، أو النكهة التي أعرضها بها. ويسرنى الآن أن أضع هذه الفصول بين يدي القارئ الكريم راجياً من الله تعالى أن تكون ذات نفع

للباحثين في ثقافة العرب قبل الإسلام من عرب ومستعربين وأن تسدُّ ثُغرة في دراسة تلك الثقافة وما تنفرع إليه من فنون قولية وأوضاع اجتماعية وقيم أخلاقية وطقوس دينية وأنشطة اقتصادية. وقد عملتُ على ضبط أكبر عدد ممكن من الألفاظ في تلك الفصول على عادتي فيما أولف من كتب وأبحاث منذ فترة طويلة حرصًا مني على تقديم نصٍّ يسهل على القارئ مطالعته بأقل قدر من الأخطاء النطقية، وهو ما أرهقني جدا كما يعرف كل من يعالج الرِّقْم على الكَثُوب. وأحب أن ألفتُ نظر القراء الكرام إلى أن الياء النهائية في كلمات الكتاب الذى بين يَدَيِ القارئِ لم تَجْرِ على وتيرة واحدة، بل كُتِبَتْ بطريقتين مختلفتين: فما كتبه بنفسى من كلام لم أضع تحت ياءاته المتطرفة نقطتين اتباعًا للنهج المصرى في هذا السبيل، أما ما كان موضوعًا تحت هذا الضَّرْب من ياءاته نقطتان فهو منسوخ من النصوص الموجودة على المشباك، وليس الأمر فوضى كما قد يسبق إلى ظن بعض القراء. ولعل ما سيُكْتَشَف من أخطاء في هذا الكتاب لا يكون من الكثرة ولا من الخطورة بحيث يُزْرِى بى وبما أكتب لدى القراء والدارسين، والله ولى التوفيق!

الشعر

يقف الشعر على رأس قائمة الثقافة الجاهلية كما هو معروف، ولهذا نذكره أول شيء من تلك الثقافة. وفي هذا الفصل نناقش بعض القضايا المتصلة به تمحيصاً لما تعجّ به الساحة الأدبية من آراء في ذلك الموضوع، وأولى تلك القضايا عُمر هذا الشعر الجاهلي. يقول الجاحظ في كتابه: "الحيوان": "وأما الشعرُ فحديثُ الميلادِ صغيرُ السنِّ، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَهُ وسهّلَ الطريقَ إليه امرؤُ القيسِ بنُ حُجرٍ ومُهلهل بنُ ربيعة، وكُتِبَ أرسطاطاليسَ ومعلّمه أفلاطون، ثم بطليموس وديمقراطس وفلان وفلان قبلَ بدءِ الشعرِ بالدهورِ قبلَ الدهورِ، والأحقابِ قبلَ الأحقابِ. ويدلّ على حدائِةِ الشعرِ قولُ امرئِ القيسِ بنِ حُجرٍ:

ضِيعَهُ الدُّخْلُونَ إِذْ غَدَرُوا	إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسَنًا
وَلَمْ يَضِعْ بِالغَيْبِ مَنْ نَصَرُوا	أَدُّوا إِلَى جَارِهِمْ خِفَارَتَهُ

لا حَمِيرِيَّ وَفَى ولا عُـدَسٌ ولا اسْتُ عَيْرٍ يَحْكُهَا الشَّفَرُ
لكنْ عُـوَيْرٌ وَفَى بدمِيته لا قِصْرٌ عَابَهُ ولا عَوْرُ
فانظُرْ كم كان عمرُ زُرارةَ، وكم كان بين موت زُرارة
ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام. فإذا استظهرنا الشعرَ وجدنا
له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا
بغاية الاستظهار فماتني عام".

وقد ترددت هذه المقولة في خطها العام لَدُنْ مؤرخي
الشعر الجاهلي ودارسيه، إذ يَرَوْنَ أن الشعر الجاهلي الذي
يمكن الاطمئنان له إنما يبدأ من ذلك التاريخ الذي ذكره
الجاحظ (انظر مثلاً نيلدكه/ من تاريخ ونقد الشعر القديم/ من
ترجمة د. عبد الرحمن بدوي في كتابه: "دراسات المستشرقين
حول صحة الشعر الجاهلي" / ط2/ دار العلم للملايين/
1986م/ 19، وكارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربي/ 1/
ترجمة د. عبد الحلیم النجار/ ط4/ دار المعارف/ 1977م/
55، وأحمد الإسكندري ومصطفى عنان/ الوسيط في الأدب
العربي وتاريخه/ ط4/ مطبعة المعارف ومكبتها/ 1342هـ—
1924م/ 44-45، وريجي بلاشير/ التأثيرات الوراثة
والمشاكل التي تضعها رواية الشعر العتيق/ من ترجمة د. عبد
الرحمن بدوي في كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة
الشعر الجاهلي" / 283، ود. شوقي ضيف/ العصر الجاهلي/
ط7/ دار المعارف/ 1976م/ 38-39، ود. عبد العزيز

نبوى/ دراسات فى الأدب الجاهلى / ط3/ مكتبة الأنجلو
 المصرية/ 1999م/ 12- 13)، وإن كان أرنولد نيكلسون
 المستشرق البريطانى المعروف يتزل بهذا التاريخ إلى مدى قرن
 واحد فقط أو أكثر قليلا بدءا من عام 500م تقريبا
) Reynold A. Nicholson, A Literary
 History of the Arabs, Cambridge,
 1969, P.71). والواقع أن الجاحظ، مع احترامى الشديد
 له وإعجابى البالغ به وبفكره وأسلوبه وشخصيته كلها، لم يقدم
 دليلا على هذا الذى قال، إذ كيف يمكن الاقتناع بأن الذى
 مهد السبيل للشعر هو امرؤ القيس والمهلهل بما يعنى أنهما أول
 من قال الشعر من العرب وأن شعرهما من ثم يتسم بما يتسم به
 أول كل شىء من البدائية وقلة الفن والسذاجة بالنسبة لما جاء
 بعده، على حين أن ما خلفه لنا الملك الضَّليل من شعرٍ، سواء
 من ناحية المقدار أو من ناحية القيمة الفنية حتى لقد جعلوه
 أميرا للشعراء الجاهليين، يكذب ذلك تكذيبا شديدا؟

ولقد لفتت هذه المسألة أنظار الباحثين فأبدوا استغرابهم
 أن يكون الشعر الجاهلى بما فيه من فن متقدم وليد تلك المدة
 القصيرة التى يحددها الجاحظ بمائة وخمسين عاما أو مائتين فقط
 قبل الإسلام. يقول مثلا أحمد حسن الزيات: "وليس يسوغ فى
 العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة
 فى شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه

العُصْر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تمذَّب أسلوبه وتشعبت مناحيه" (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربي/ ط24/ دار نهضة مصر/ 28). ويقول أيضا حنا الفاخوري: "وأقدم شعرٍ وصل إلينا كان ما قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلا، وكان قصائد كاملة تدل على محاولات كثيرة سبقتها وهيأت طريقها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من استقامة الوزن واللغة والبيان" (حنا الفاخوري / تاريخ الأدب العربي/ دون دار نشر أو تاريخ/ 52). ومثلهما في ذلك د. عبد العزيز نبوي، الذي يقرر أن "الشعر الجاهلي، منذ أقدم نصوصه التي وصلت إلينا، قد اكتملت له أو كادت مقوماته الفنية بدءا من طرائق التعبير، وانتهاء بالموسيقى من وزن وتقفية. وهذا يعنى أنه مرت حَقْبٌ طويلة قبل أن يستقر للشعر الجاهلي سماته وخصائصه" (د. عبد العزيز نبوي/ دراسات في الأدب الجاهلي/ 12) ... إلخ. ويؤكد تشارلز ليال أن "تعدد البحور التي كان يستعملها الشعراء الجاهليون وتعقدها، وكذلك القواعد الراسخة التي تتعلق بالوزن والقافية، فضلا عن الأسلوب الواحد الذي كانوا ينتهجونه في بناء قصائدهم رغم المسافات التي تفصل كلا منهم عن الآخر، كل ذلك يشير إلى دراسةٍ وممارسةٍ طويلةٍ سابقةٍ لفن الشعر وإمكانات اللسان العربي، وإن لم يكن بين يدينا سجل لشيء

C. J. Lyall, *Translations of* "من هذا") **Ancient Arabian Poetry, London, (1885, P.xvi** وهو ما يوافق عليه رينولد نيكلسون (**A Literary History of the Arabs, P.75-76**). وبالمثل يقرر إجنطايوس جويدي في كتابه: "L'Arabie Antéislamique" أن القصائد الجاهلية الرائعة التي وصلتنا عن القرن السادس الميلادي تشير إلى أن وراءها صنعة طويلة (**I. Guidi, L'Arabie Antéislamique, Paris, 1921, P.21**). ويعلل كليمان هوار اختفاء الشعر السابق على ذلك التاريخ بأن الذكريات البشرية، ما لم يتم حفظها كتابة على الجدران أو الحجارة أو الأوراق، فإنها حَرِيَّةٌ أن تضيع مع الأيام. ومن ثم يضيف قائلاً إن الشعر العربي الذي وصلنا لا يرجع إلى أبعد من القرن السادس الميلادي عندما استُعملت الألفباء النبطية في تسجيل ذلك الشعر (**Clément Huart, A History of Arabic Literature, William Heinmann, London, 1903, P.7**). ثم إن كلام الجاحظ عن زرارة والمسافة الزمنية التي تفصله عن الرسول عليه السلام لا علاقة له بهذا الذي نحن فيه، فضلاً عن أن الأبيات التي استشهد بها عميد الكتاب العرب القدماء لا تتضمن شيئاً مما يشير إليه.

وفوق ذلك فلست أستطيع أن أجد مناسبة بين كلامه في هذا السياق عن امرئ القيس والمهلهل من جهة وكلامه عن فلاسفة اليونان من جهة أخرى، وإن كان عبد الفتاح كيليطو قد تصور أن الجاحظ إنما يوازن بين الشعر والفلسفة مُعْلِيًا من شأن الأخيرة، جاعلاً إياها كالشيخ الجرب الطويل العمر، أما الشعر فصَبِيٌّ نَزِقٌ لم تَعْرُكْه الحياة بعدُ لأن عمره لا يزال قصيرا. وهذه هي عبارته: "لا جدال أن هذا المتكلم يقدم الفلسفة على الشعر، ليس في الزمن فحسب، وإنما في القيمة أيضا. فكأن الأسبقية الزمنية تمنح الفلسفة جدارة ومزية واستحقاقا، بينما تأخر ظهور الشعر علامةً على طفولته وسذاجته وعدم نضجه. الفلسفة كالشيخ الذي جرب الأمور واستفاد من عمره الطويل، بينما الشعر كالصبي الطائش النَّزِقِ الذي لا يُؤَبِّه لكلامه ولا يُعْتَمَدُ عليه ولا يُعْتَدَّ به" (عبد الفتاح كيليطو/ بين الفلسفة والشعر/ موقع "lycos"). لكن التركيب النحوي في كلام الجاحظ لا يساعد على تفسير العبارة على هذا النحو، وإلا لجاء هكذا مثلا: "أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من فُهِجَ سبيله وسهل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة. وأما كُتِبَ أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون، ثم بطليموس وديموقراطس وفلان وفلان، فموجودة قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور،

والأحقاب قبل الأحقاب"، وبذلك تكون هناك مقارنة بين الشعر والفلسفة، علاوة على أن تركيب جملة الجاحظ، فيما لو أبقيناها رغم ذلك كما هي، ينقصه خبر المتدا، وهو كلمة "موجودة" أو ما يشبهها، اللهم إلا إذا كان الجاحظ قد قصد أنه قبل الشعر كانت هناك كتب في فلسفة الشعر مهدت الطريق إليه. لكن لا بد أن نفترض في هذه الحالة أنه قد سها فاستطرد قافراً من الكلام عن الشعر الجاهلي إلى الكلام عن الشعر عموماً، لأنه لا صلة، كما نعرف، بين شعر الجاهليين وفلسفة الإغريق. وعندئذ يكون قول الجاحظ: "وكتب أرسطاطاليس... معطوفاً على قوله: "امرؤ القيس بن حُجر والمهلهل بن ربيعة"، وهو ما قد يرشح له ورود "كتب أرسطوطاليس" بعد فاصلة، لا بعد نقطة كما كتبها كيليطو.

وعلى أية حال فهناك أشعار تُروى عن أزمان أبعد كثيراً من تلك المدة التي حددها الجاحظ كتلك التي تنسب لعاد وشمود مثلاً. صحيح أن ابن سلام قد نفى أن تكون مثل تلك الأشعار حقيقية، إلا أن الحجة التي استند إليها في ذلك النفي ليست بالحاسمة. ذلك أنه اعتمد فيها على ما جاء في القرآن الكريم عن أولئك القوم من أنهم لم تبق منهم باقية، وهو ما أدى به إلى التساؤل قائلاً إنه إذا كانت عاد وشمود قد استؤصلتا كما جاء في القرآن، فمن الذي أدى لنا تلك الأشعار يا ترى؟

لكن فاته أن ليس شرطاً أن يؤدي لنا أشعارهم أحدٌ منهم بالذات، إذ من الممكن جداً أن يكون غيرهم من العرب ممن كان يحفظ تلك الأشعار هو الذى أداها لنا، أو أن تكون قد كُتبت ثم وصلتنا عبر من وقعت في أيديهم تلك الكتابات، ثم ضاعت هذه الكتابات فيما بعد. ولست أقصد بذلك أن هذه الأشعار وأشباهها صحيحة بالضرورة، بل كل ما أريد أن أوضحه هو أن الحجة التي ساقها ابن سلام، على جلالته قدره، لا تستطيع أن تحسم المسألة، وبخاصة أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الثموديون قد قالوا شعراً ولا أن يكون ذلك الشعر قد بقى تلك المدة التي تفصل بينهم وبين الإسلام، إذ هي ليست بالمدة الطويلة، فها نحن أولاء ما زلنا نتمم بأشعار الجاهلية التي يُقرّ بها الباحثون، ونقرؤها وندرسها ونحفظ كثيراً من نصوصها رغم انصرام كل هاتيك القرون التي تبلغ الألف والستمائة من السنين. ومثلهم في ذلك تلك الأمم التي اختفت من مسرح التاريخ واختفت معها لغاتها فلم يعد يعرفها إلا المتخصصون القليلون، والتي نعرف مع ذلك عن تراثها وآدابها وأفكارها وعقائدها الشيء الكثير، كما هو الحال مع الأكاديين مثلاً من التاريخ القديم، والهنود الحمر من تاريخنا الحديث. وعلى الوجه الآخر قد يكون تراث أمة من الأمم مَصُونًا مُتَاحًا بين أيدي أخلافها، لكنهم لا يعرفون عنه شيئاً كما كان وضع الحضارة

المصرية الفرعونية مثلا بالنسبة لنا نحن المصريين قبل الحملة الفرنسية وقبل فك حجر رشيد، الذي كان بمثابة كلمة "افتح يا سمسم" لكنوز على بابا.

ولقد كانت اللهجة الثمودية تجرى على القواعد التي نعرفها في الفصحى في اشتقاقها وأزمنة أفعالها ووجود صيغ الثنية وأسماء الإشارة والضمائر وحروف الجر والعطف فيها، وإن كانت أداة التعريف عندهم هي "الهاء" بدلا من "أل" (د. شوقي ضيف/ العصر الجاهلي/ 112) مما يمكن أن يفسر على أنه مظهرٌ لهجِّيٌ يختفى عند نظم الشعر مثلا، فلماذا نُحِيلُ إذن أن يكون الثموديون قد قالوا شعرا، أو أن يكون شعرهم قد بقى حتى وصل بعض منه أهل الجاهلية القرييين من الإسلام؟ أما قول د. جواد على، تحت عنوان "العربية الفصحى" في الفصل التاسع والثلاثين بعد المائة من كتابه: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، إن النصوص التي وصلتنا عن الثموديين تختلف عن العربية التي نعرفها، فمن الممكن، لو صحَّ هذا الكلام وكان شيئا مطَّردا في اللغة كلها، الرد عليه بأن هذه النصوص ليست نصوصا أدبية وأنه كان من عادتهم تخصيص اللغة التي نسميها الآن بـ"الفصحى" للإبداع الأدبي فقط، وتخصيص اللهجات القبلية لما عدا ذلك حتى لو كان شيئا مكتوبا. الواقع أنه لا يوجد عقلا ولا نقلا ما يُحِيلُ هذا. وأما

اعتراض الدكتور طه حسين مثلاً على الرائية التي ينسبها صاحب "الأغانى" لأحد أصهار إسماعيل من العرب بحجة أنها مكتوبة بلغة لينة مفهومة الألفاظ مستقيمة القواعد النحوية والصرفية والعروضية كلغة العرب أيام النبي عليه السلام بما يفيد أن اللغة العربية قد ظلت كل ذلك الزمن الطويل دون تطوير (في الأدب الجاهلى / دار المعارف / 1964م / 182-183، وبالمناسبة فعبارة "عليه السلام" هذه فمن عندى، إذ لم يحدث مرة أن صلى الدكتور طه على النبي في ذلك الكتاب!)، فيمكن الجواب عليه بأننا لا نزال حتى الآن، ورغم مرور زمن أكبر من الزمن الذى يفصل بين إسماعيل والجاهلية القريبة من الإسلام، نفهم كثيراً من الشعر الجاهلى مع اختلاف حياتنا الآن عن الحياة آنذاك أكثر مما كانت مختلفة بين العصرين المذكورين، وبخاصة أن موضوع القصيدة المشار إليها موضوع إنسانى بسيط لا يتعلق بوصف الحصان ولا الناقة وما إلى ذلك مما يكثر فيه الغريب بالنسبة لنا لأن حياتنا الآن تخلو من الناقة والحصان ولا نعرف أسماء أعضائهما ولا وجوه الحسن والسوء فيها كما كان يعرفها الجاهليون، بل يتعلق بجدثان الدهر وتقلبات الأيام وحتمية الموت وعجز البشر عن الوقوف في وجه تصاريق القدر مما يخلو عادة من حوشى الألفاظ ولا يجد القارئ صعوبة في فهمه. كما أن قواعد النحو والصرف

والعروض ما زالت باقية كما تركها لنا الجاهليون رغم اختلاف ظروف حياتنا تماما عن حياتهم. ومع هذا فلا بد أن أسارع إلى التوضيح بأني لا أقول بالضرورة إن تلك القصيدة صحيحة فعلا، إذ يحتاج الأمر إلى دراسة أوسع وأعمق وأكثر أناة مما فعل طه حسين المتسرع دون سبب وجيه إلى الرفض والإنكار، لا لشيء إلا لأن المستشرق البريطاني مرجليوث (كما سنوضح لاحقا) قد شاءت له حماقته وعصبيته على العرب والإسلام من قبله أن يحمل على الشعر الجاهلي كله لينسفه نسفا فجاء طه حسين فنسج على منواله وأنكر الشعر الجاهلي بدوره: كُله أو جُلّه! وقد ننتهى بعد هذا إلى قبول القصيدة كلها أو بعضها أو إلى رفضها جملةً أو إلى التوقف بشأنها.

وعلى أية حال فهذا نص ما قاله ابن سلام في كتابه: "طبقات فحول الشعراء" في سياق هجومه على ابن إسحاق صاحب سيرة النبي عليه السلام: "وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مَخْرَمَةَ بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسَّيْر. قال الزهري: لا يزال في الناس عِلْمٌ ما بَقِيَ مَوَلَى آل مَخْرَمَةَ. وكان أكثر علمه بالمغازي والسَّيْر وغير ذلك فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي

بالشعر. أُتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلامٌ مؤلفٌ معقودٌ بقوافٍ. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن آذاه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: "فَقُطِعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا" (سورة الأنعام/ 45) أي لا بقية لهم، وقال أيضا: "وأنه أهلك عادا الأولى* وثمودَ فما أبقى" (سورة النجم/ 50-51)، وقال في عاد "فهل ترى لهم من باقية؟" (سورة الحاقة/ 8)، وقال: "ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله؟" (سورة إبراهيم/ 9)؟ وقال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه: إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. أخبرني مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن علي يقول: قال أبو عبد الله بن سلام، لا أدري أرفعه أم لا، وأظنه قد رفعه: أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه: إسماعيلُ ابن إبراهيم صلوات الله عليهما. وأخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء، قال: العرب كلها وكَلدُ إسماعيلِ إلا حَمِيرَ وبقايا جُرهم. وكذلك يُروى أن إسماعيل بن إبراهيم جاورهم وأصهر إليهم. ولكن العربية التي عنى محمد بن علي اللسان الذي نزل به

القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه،
وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا. لم يجاوز أبناء نزار في
أنسابهم وأشعارهم عدنان، اقتصروا على معدّ. ولم يذكر عدنان
جاهلياً قط غير لبيد بن ربيعة الكلابي في بيت واحد قاله. قال:

فإن لم تجد من دون عدنان والدًا ودون معدّ فلتزعك العواذلُ
وقد روى لعباس بن مرداس السلمي بيتاً في عدنان
قال:

وعكّ بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطرد
والبيت مريب عند أبي عبد الله، فما فوق عدنان أسماء لم
تؤخذ إلا عن الكتب، والله أعلم بها، لم يذكرها عربي قط. وإنما
كان معدّ بإزاء موسى بن عمران صلى الله عليه أو قبله قليلاً،
وبين موسى وعاد وشمود الدهر الطويل والأمد البعيد. فنحن لا
نقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين
شعراً، فكيف بعاد وشمود؟".

وواضح أن ابن سلام يظن أن عاداً وشمود كانتا قبل زمنه
بآلاف السنين وأنه لم يبق منهما شيء. لكن شمود لم يكن يفصل
بينها وبين الإسلام في الواقع أكثر من ألف سنة أو أقل، إذ
يعود تاريخ الشموديين إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، واستمروا
بعده فترة، وكانوا يسكنون مدائن صالح وما حولها، وجاء في
القرآن الكريم أنهم قد أخذتهم الرجفة، إلا أنهم رغم هذا قد
خلفوا لنا كثيراً من النقوش في بلادهم وخارج بلادهم (د).

شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 33، 111)، مما يدل على أن فهم ابن سلام للآية الكريمة الخاصة باستصالحهم لم يكن فهما سليما. كذلك فاللغة التى كتبوا بها نقوشهم لا تختلف عن العربية الفصحى كما نعرفها، اللهم إلا فيما لا يقدم أو يؤخر حسبا رأينا. كما أن ثمود على الأقل تتلو تاريخيا إسماعيل بن إبراهيم ولا تتقدمه كما سبق إلى وهم عالمنا الجليل، إذ إن إبراهيم وإسماعيل إنما سبقا ميلاد السيد المسيح بأزمان طوال، وليس بقرون قليلة كما هو الحال مع ثمود حسبا عرفنا قبل قليل، فضلا عن أنه لا يوجد فارق زمنى يُذكر بين ثمود وموسى عليه السلام حسبا يقول ابن سلام، فقد قرأنا آنفاً أن ثمود سبقت عيسى عليه السلام بعدة قرون، وهو ما يصدق على سيدنا موسى أيضا. كذلك فإسماعيل لا يمكن أن يكون هو أول من تكلم العربية طبقا لما يقوله ابن سلام، الذى يضيف مع ذلك أنه عليه السلام قد نسى لغته الأولى لصالح لغة الضاد، إذ السؤال هو: وكيف ينسى ذلك النبى الكريم لغته ويتخذ لغة أخرى إلا إذا كانت هذه اللغة الأخرى لها وجود آنذاك، وهو ما يعنى أنها سابقة على نسيانه للغته؟ وهذه اللغة هى لغة زوجته العربية. أى أن اللسان العربى كان موجودا فى ذلك الحين، ولم يكن إسماعيل أول من تكلم به كما قال ابن سلام، فالفرد (أى فرد) لا يمكنه استحداث لغة لم تكن، لأن اللغة تحتاج إلى أزمان

وأزمان، وهي تنمو وتتطور وتتسع وتتعد بالتدرج لا دفعة واحدة كما يوحي كلام ابن سلام رحمه الله.

وعلاوة على ذلك فقد ورد اسم عدنان عند شعراء آخرين غير الشعراء اللذين ذكرهما عالمنا الجليل واللذين تابعه فيما قاله عنهما د. جواد على في أول الفصل الأربعين بعد المائة (بعنوان "اللسان العربي") من كتابه: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام". ومن هؤلاء الشعراء المهلهل بن ربيعة وليلى العفيفة وأمّية بن أبي الصلت، اللذين يقولون على التوالي:

يَوْمَ لَنَا كَانَتْ رِئَاسَةٌ أَهْلِهِ دُونَ الْقَبَائِلِ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ

يَا بَنِي الْأَعْمَاصِ إِمَّا تَقْطَعُوا لِبَنِي عَدْنَانَ أَسْبَابَ الرَّجَا

.....

قُلْ لِعَدْنَانَ: فُديْتُمْ! شَمُّرُوا لِبَنِي الْأَعْجَامِ تَشْمِيرَ الْوَحَى

نَفَوْا عَنْ أَرْضِهِمْ عَدْنَانَ طُرًّا وَكَانُوا لِلْقَبَائِلِ قَاهِرِينَ
وفي "مجمع الأمثال" للميداني بيت شعري آخر ورد فيه اسم "عدنان"، نسبه المؤلف لعبد الله بن همام أحد بني عبد الله بن غطفان، مضيفا أنه يُنسب للنابغة أيضا، وهو ما عزاه البغدادي في "خزانة الأدب" لهذا الأخير فقط، وإن كان قد عاد فذكر أنه يُنسب في "الفاخر" (للمفضل بن سلمة) إلى

الاثنين جميعاً، مع تحديد الغطفاني بأنه عبد الله بن هَمَارِق،
ونصه:

بما انتهكوا من رب عدنانَ جهرةً وعوفٌ يناجيهم، وذلكم جَلَلٌ
وفي "الإيناس بعلم الأنساب" يورد الوزير المغربي هذين
البيتين لسلمة بن قيس العُكَلِيّ:

سَيَلُغُ قَدْفِي نَهْشَلًا أَنْ مَجْدَهَا قَصِيرٌ وَقَوْلِي شَتْمُهُ وَقَصَائِدُهُ
وَيَأْتِي عَلَى الْفَوْرَيْنِ دُونَ مَحَجَّرٍ وَيَصْعُدُ فِي عَكِّ بْنِ عَدْنَانَ نَاشِدُهُ

وبالإضافة إلى ذلك فقد مر بنا ما قاله عدد من الباحثين
من أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا يمكن أن يكون أول
ما نظمته العرب من أشعار، بل لا بد أن تكون قد سبقته أشعار
أخرى على مدى زمني طويل حتى استوى الفن الشعري على
سُوقِهِ. أما إلى أي مدى يمتد هذا الزمن في الماضي بالضبط
فعلمه عند الله، إذ لم يستطع حتى الآن أيُّ باحثٍ الإتيان بما
يَشْفِي ويكفي في هذا السبيل.

وهذا كله من شأنه التخفيف من مخاوف ابن سلام
والتهديئة من شكوكه التي نحترمها رغم كل شيء، إذ لم يكن
الرجل في تلك المخاوف ولا في هذه الشكوك صاحب هوى أو
مأرب، بل كان يبغى البحث عن بَرْدِ اليقين في مجال من مجالات
العلم، ولم يكن يقصد إحداث ضجيج مقعقع يلفت إليه الأنظار
ولا أن يحارب العرب والمسلمين بتشكيكهم في كل شيء من
تراثهم وحضارتهم كما يفعل بعض المستشرقين ومن يعدو لاهثاً

خلفهم مقلدا لهم في كل ما يفعلون. على أننى، كما سبق التنبيه، لا أقول إن الأشعار التي بلغتنا عن عاد وثمود وأشباههما لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة، بل كل ما أبغى قوله هو أننا ينبغي أن نعيد النظر فيما قيل بخصوص الشك في الشعر الجاهلي.

وهذه هي النقطة التي أريد أن أتناولها الآن. وقد كان ابن سلام هو أول من فصل القول من القدماء في هذه القضية، وإليك بعض ما قاله في هذا الصدد مما أصبح منطلقاً لمن جاء بعده (وبخاصة من المُحدّثين عرباً ومستشرقين) للشك في شعر ما قبل الإسلام: بعضه أو كثير منه أو جُلّه أو كُله. قال: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير، لا خير فيه ولا حجة في عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يُستخرج ولا مثل يُضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر مُعجِب ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى. وقد اختلف العلماء بعدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه".

ثم مضى مؤكداً أن "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تتقفه العين، ومنها ما تتقفه الأذن، ومنها ما تتقفه اليد، ومنها ما يتقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهنزة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلونٍ ولا مسٍّ ولا طرازٍ ولا وسَمٍ ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرَجها وزائفها وستوقها ومُفرَعها. ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسّه وذرعته حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة الشعر، فتكون في هذه الصفة بمئة دينار وبعثى دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ولا يجد واصفها مزيدياً على هذه الصفة. وتوصف الدابة فيقال: خفيف العنان لين الظهر شديد الحافر فتي السن نقي من العيوب فيكون بخمسين ديناراً أو نحوها، وتكون أخرى بعثى دينار وأكثر، وتكون هذه صفتها. ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء: إنه لندى الخلق طلّ الصوت طويل النفس مصيب للحن، ويوصف الآخر بهذه الصفة، وبينهما بونٌ بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة

والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها ولا علم يُوقَف عليه. وإن كثرة المدارس لتُعدي علي العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به".

ثم يضرب على ذلك بعض الأمثلة من واقع الحياة الأدبية: "قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيان أبي محرز، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويهِ ويقولهُ: بأى شئ تردّ هذه الأشعار التي تُروى؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم. قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت. وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابك! قال: إذا أخذتَ درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه ردي، فهل ينفعك استحسانك إياه؟".

ويبدو أن ابن سلام يتصور أن الشعر الصحيح لا بد أن يكون شعرا جيدا من الناحية الفنية والمضمونية بالضرورة، وهذا ما يوحى به قوله عما لا يطمئن له من شعر إنه "لا خير فيه ولا حجة في عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف"، مع أنه لا تلازم البتة بين الشعر الصحيح من جهة والجودة الفنية والفائدة الخلقية والاجتماعية

من جهة أخرى، ولا بين الشعر المزيف وتفاهة الفن والمضمون كذلك، وهذا مما يعرفه كل أحد. أما قوله، عن بعض ما كان يُتداول على أيامه من شعر لا ترتاح نفسه له ولا يرى صحته، إنه "قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء" فقد يمكن التعقيب عليه بأن الشعر المروى عن أهل البادية لا بد أن ينتهى هو أيضا بعد ذلك إلى التقييد في الورق، فليست الكتابة إذن عارا على النصوص الشعرية ولا على من يأخذ بها، ولا ينبغي من ثم أن تُتخذ تُكَاةً لرفض شيء من تلك النصوص إلا إذا قام دليل قاطع على أنه زائف مصنوع. كما أن رواية الأعراب لشيء من الشعر ليست في حد ذاتها برهانا على صحته، إذ البدو بشر من البشر في نهاية المطاف، يجوز عليهم الكذب والصدق جميعا، ويقع منهم التزييف كما يقع منهم التحقيق، وفيهم الأمين الذى يُطمأن له والخائن الذى يُجفَل منه ولا يوثق به. ثم هل كان العرب كلهم أبناء بادية؟ ألم يكن فيهم من يسكن المدن؟ ألم يكن بين سكان المدن هؤلاء شعراء؟ بلى كان بينهم شعراء، وابن سلام نفسه قد أفرد لشعراء مكة ويشرب والطائف والبحرين قسما خاصا من كتابه الذى نحن بصدده، علاوة على من كان يعيش منهم في بلاطى الحيرة والغساسنة، فكيف نسى عالمنا الجليل هذا حين اشترط أن يكون الشعر الصحيح من

رواية البدو، والبدو وحدهم؟ وهذا أكبر دليل على أن ما زعمه كليمان هوار من أن المدن العربية في ذلك الحين كانت من شدة الاشتغال بالتجارة بحيث لم تكن هناك أية فرصة لترعرع الإبداع الأدبي فيها هو كلام لا يؤبه به البتة (**Clément Huart, A History of Arabic Literature, P.6**). وفوق هذا ألم يكن بين العرب من يعتمد على الكتابة في رواية الشعر الجاهلي؟ ثم لماذا ننسى أن كثيرا جدا من البدو العرب قد انتقلوا إلى العيش في أمصار البلاد المفتوحة وأصبحوا بهذا من سكان المدن؟ أفإن تغيرت مساكنهم ينبغي أن يتغير الحكم عليهم ولا يُوثق عندئذ بما يروونه من شعر الجاهليين؟

أما حديث ابن سلام عن قدرة العلماء المطلقة على فرز صحيح الشعر الجاهلي من زائفه بمجرد النظر فيه ففيه مبالغة كبيرة رغم معرفتنا بقيمة التخصص وضرورته، إذ إن أحكام العلماء التي تكلم عنها ابن سلام هنا لا تزيد عن أن تكون أحكاما انطباعية، ومعروف ما يمكن أن يعتري الأحكام الانطباعية من فساد مهما علت درجة صاحبها في العلم والخبرة. ومن هنا كان لا بد للعالم من الرجوع إلى القواعد المرعية عند أهل كل صناعة، وتعريف القارئ عن طريق التطبيق العملي كيف اعتمد عليها في الحكم على هذا النص

الشعري أو ذاك، وسوق البراهين التي تدل على ما يقول حتى تكون أمام الباحث الفرصة لتمحيص ما يقرأ، ومن ثم قبوله أو رفضه عن بينة، وهو ما لم يفعله ابن سلام للأسف في كثير من الحالات كما في النص الذي ناقشه الآن والذي ينسب للعلماء قدرات خارقة لا تعرف الفشل، أو لم يوفق فيه في بعض الحالات الأخرى كما رأينا في حديثه عما ينسب لعاد وشمود من أشعار. إن كلام ابن سلام هنا ليشبه قول من يرى أن الطبيب ليس في حاجة إلى تحليلات ولا أشعة ولا إلى الكشف على المريض، بل يكفي أن يلقي نظرة عليه فيعرف للتو ما يعاني منه. وهو ما يتسبب في وقوع كوارث كان من الممكن تدارك كثير منها وتجنب نسبة غير قليلة من حالات الوفاة أو تفاقم المرض لدرجة خارجة عن السيطرة مثلا لو أن الطبيب طامن من غلوائه في الثقة بعلمه وخبرته بعض الشيء. وكم كان يونس صادقا في قوله التالي الذي استشهد به ابن سلام: "لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله. ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". كما أنه هو نفسه يحكم على خلف الأهر قاتلا: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدق لهسانا. كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خيرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه"، مع أن خلفا هذا متهم لدى

بعض العلماء الآخرين بأنه وضاع كبير للشعر. فما القول في هذا؟ أليس هذا دليلاً آخر على أن مسألة معرفة العلماء بالشعر الجاهلي ومقدرتهم على تمييز صحيحه من ملفقه مسألة نسبية؟ وإلا فلماذا اختلفوا في الحكم على خلف الأحرار إذنا كانت أحكامهم لا يختر منها الماء كما يريدنا ابن سلام أن نصدق؟

ليس ذلك فقط، بل ها هو ذا ابن سلام نفسه يخبرنا بأن الاختلاف بين المختصين برواية الشعر الجاهلي كان شديداً، وأن هذا الاختلاف قد دفعه إلى الاقتصار على بعض ذلك الشعر وأصحابه دون البعض الآخر: "وقد اختلف الناس والرواة فيهم فنظر قوم من أهل العلم بالشعر والنفاد في كلام العرب والعلم بالعريية إذا اختلفت الرواة فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها. ولا يُقنع الناس مع ذلك إلا الرواية عن تقدم، فاقترنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين". أما قوله عن ابن إسحاق: "وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غشاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير. قال الزهري: لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخزومة. وكان أكثر علمه

بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر. أتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر. إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ " فأرى أن فيه تجنيا عليه، إذ كيف السبيل إلى معرفة أن الرجال والنساء المذكورين هنا لم يقولوا شعرا قط؟ الحق أن ذلك أمر يحتاج إلى دليل، وبخاصة أن أماننا أشعارا تُنسب لهم، ونفيها عنهم هو الذى يحتاج إلى برهان، وأين هذا البرهان؟ ثم إن عالمنا الجليل يؤكد أنه قد ضاع من الشعر العربي الكثير والكثير، وهو ما كان ينبغى أن يحجزه عن التسرع فى إطلاق مثل تلك الأحكام! على أننى لا أقصد أن كل ما أورده ابن إسحاق فى السيرة النبوية من أشعار صحيح لا ريب فيه، بل قُصارَى ما أقول إن الأمر لا ينبغى أن يُقَطَّع فيه بتلك السهولة التى ينتحيتها ابن سلام. ثم إننى لا أفهم على أى أساس حَكَمَ على الأشعار المنسوبة فى السيرة لعاد وثمود بأنها مجرد كلام معقود بقوافٍ وليست شعرا. ألم يكن أحرى به أن يورد لنا الحيشيات التى نفى بها عن هذا الشعر الجودة الفنية، بل أنكر بناءً عليها مجرد دخوله ميدان هذا الفن؟ ومرة

أخرى هل لا بد أن يكون كل شعرٍ صحيحٍ جيداً من الناحية الفنية؟

وهو يقول إن الشعر الجاهلي كان غزيراً شديداً الغزارة، لكن "جاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤوّلوا إلى ديوانٍ مدوّنٍ ولا كتابٍ مكتوب، وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول وما مُدِح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بنى مروان أو صار منه. قال يونس: فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكّر أيامها وآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت. وليس يُشكّل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولّدون، وإنما عَصَل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيُشكّل ذلك بعض الإشكالات. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن

متّم بن نُويّرة قَدِمَ البصرةَ في بعض ما يقدّم له البدوى من الجلب والميرة فترل النحيت، فأثيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه متّم، وقمنا له بحاجته وكفيناها ضيعته. فلما نَفَدَ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متّم، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متّم والوقائع التي شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله. وكان أوّل من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمادُ الراوية، وكان غير موثوق به. وكان يَنَحَل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها فقال: ما أطرفتنى شيئاً. فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة، مديح أبي موسى. قال: ويحك! يمدح الحطيئةُ أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفي، قال: كان حماد لى صديقاً مُلَطِّفاً فعرض علىّ ما قبله يوماً، فقلت له: أمّل علىّ قصيدة لأخوالى بنى سعد بن مالك لطرّفة. فأملّى علىّ:

إن الخليط أجَدَّ منتقله	ولذاك زُمَّتْ غُدُوَّةَ إبله
عهدى بهم في النَّقْبِ قد سندوا	تَهْدِي صِعَابَ مَطِيَّهم ذُلُّه

وهي لأعشى همدان. وسمعت يونس يقول: العجب ممن يأخذ عن حماد. وكان يكذب ويلحن ويكسر".

وكلام ابن سلام عن تشاغل العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد والفتوح معناه أولاً أن العرب كانوا جميعاً مجاهدين لا يستقر منهم في بلده ولا بيته أحد، وهذا بطبيعة الحال غير صحيح. إنما كان بعضهم يجاهد، وبعضهم يتاجر، وبعضهم يزرع، وبعضهم يصنع، وبعضهم يرعى، وبعضهم يعلم أو يتعلم... إلخ كما هو الحال في أي مجتمع آخر. ومعناه ثانياً أنهم عادوا لا يقولون الشعر ما داموا لا يروونه، إذ الرواية أسهل وأقل بعثاً على الحرج من النظم. لكننا ننظر فنجد أنهم ظلوا يقولون الشعر حتى على أيام النبي عليه السلام، وفي أثناء الفتوح ذاتها. وهناك شعرٌ جدُّ كثيرٍ قيل فيها كما نعرف جميعاً. بل إن الرسول عليه السلام كان يقرب إليه بعض شعراء المسلمين ويحثهم على قول الشعر في الذب عن الدين الجديد ويشجعهم، فكان يقول لحسان: أهجهم (أي القرشيين)، وروح القدس معك. فكيف يقال إذن إن الإسلام قد شغل العرب عن رواية الشعر، حتى إذا انتهوا من الفتوح (والكلام هنا بالمناسبة مضطرب، وكأن الجهاد شيء آخر غير الفتوح!) ورجعوا إلى أنفسهم وما كانوا يحفظونه من الأشعار وجدوا أنهم قد نسوا نصيباً كبيراً جداً منها؟ وبالنسبة لابن متمام بن نويرة هل يعقل

أن يأخذ في ارتجال تلك الأشعار الكثيرة المتتابعة التي تشبه شعر جده بهذه السهولة كما يُفهم من الرواية الخاصة بذلك؟ ثم لماذا يصنع ذلك يا ترى؟ وهل شرط أن يكون شعر متمم على مستوى واحد من المثانة والرؤاء؟ أليس من الطبيعي أن يتفاوت شعر الشاعر فيكون بعضه قويا متينا، والآخر دون ذلك، كما هو الحال حتى في شعر شاعر عبقرى مثل المتنبي، إذ نجد في ديوانه مقطوعات وقصائد لا ترتفع إلى مستوى شعره الآخر الرائع في سيف الدولة وكافور وفي التغني بمفاخره وأحزانه الذاتية؟ وقل مثل ذلك في شعر أمير الشعراء أحمد شوقي. وهذان مجرد مثالين اثنين لا غير، وإلا فمعروف عند المشتغلين بالأدب والنقد أن ذلك ينطبق على سائر الشعراء.

أما بالنسبة لحماة وما اشتهر به من كذب ونحل فأبى أتساءل بدورى: إذا كان حماد على هذه الشاكلة من الاشتهار بالنحل والتلفيق، وكذلك باللحن والكسر فوق البيعة بما يعنى أنه من الشعر لا في العير ولا في النفير، فما الذى كان يضطرهم إلى اللجوء إليه دائما وسؤاله عما في جعبته من جديد؟ ثم هل من الحتم اللازم أن يعرف بلال بن أبي بردة كل شعر الخطيئة، أو كانت ذاكرته قرصا مدججا سُجّل عليه كل شعر الشاعر الهجاء فلا يندّ عنها شاردة ولا واردة من ذلك الشعر؟ كذلك أليس من حقنا أن نسمع رد المتهم على

التهمة الموجّهة إليه؟ لكن للأسف تسكت الرواية عند هذا الحد فلا تعطى المسكين الفرصة لإبداء وجهة نظره! ثم من يا ترى أنبأ الناس بما دار بين بلال وحماد من حوار واتفاقهما في نهاية الأمر على ترك القصيدة المزيفة تذيع في الناس؟ إن أيا منهما لا يمكن أن يكون هو من روى القصة، وإلا لكان كمن يحفر قبره بيده. كما أنه لم يكن هناك إلا هما وحدهما كيلا يقول قائل إن شخصا ثالثا هو الذى فضح الأمر. أما لو افترضنا بعد ذلك كله أن قد كان هناك شخص ثالث، فإنهما لم يكونا ليجروا على قول هذا الكلام بمسمع منه حتى لا يشوها صورتهما في عينه. وفي "الأغاني" أن المدائني كان ينسب القصيدة المذكورة للحطيئة فعلا! فما الذى يمكن أن نقوله هنا؟ وهذا هو نص "الأغاني": "وذكر المدائني أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى، وأنها صحيحة. قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو فأنشده: "جمعت من عامر فيه ومن أسد"، وذكر البتين وبينهما هذا البيت وهو:

فما رَضِيَتْهُمْ حَتَّى رَفَدْتَهُمْ بَوَائِلِ رَهْطِ ذِي الْجَدَّيْنِ بِسَطَامٍ

ثم هل يقدر خطأ حماد في نسبة قصيدة أعشى همدان لطرفة في أمانته بالضرورة؟ ألا يمكن أن تكون المشكلة مشكلة ذاكرة لا مشكلة ضمير؟ وهل هذا هو النص الشعري الوحيد الذى أحاط به الخلاف حول نسبته لصاحبه حتى نذهب فنعلق

المشقة لحماد؟ ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام وجهة النظر الخاصة بأحد الطرفين دون الآخر، وكأن حمادا خرس فلم يُحرر جوابا وسلّم بما قيل في حقه. وأين هذا؟ وعجيب أن يقال في حماد إنه كان ينحل شعر الرجل غيره: هكذا دون إبداء الأسباب. ترى لماذا كان يفعل ذلك؟ أكان مصابا بلُوثَةٍ في عقله تجعله يتبرع من تلقاء نفسه بخداع الناس وإنفاق وقته وجهده في ذلك "لله في الله"؟ وأعجب من هذا أن يقال إنه كان يزيد في الأشعار رغم ما اتُّهم به في ذات الوقت من أنه كان يلحن ويكسر الشعر. يا له من أحمق! لكن ما القول في الذين كانوا يصرون بعد هذا كله على البحث عنده دائما عن الجديد في الشعر؟ أليسوا مثله حمقى بل أعرق منه في الحماقة وأوغل؟ وأعجب من هذا وذاك أن يلقَّب هذا الكذاب الوضاع الخالي من الموهبة الشعرية بـ "الراوية"؟ إن مثل هذا اللقب ليس له في الواقع من معنى إلا أنهم كانوا يحترمون روايته ويقدرونها حتى إنهم لم يروا فيه إلا أنه "راوية"! وفي "الأغاني" أن المفضل الضبيّ قد وصفه بأنه "رجل عارف بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشبهه به مذهب رجل ويُذخِله في شعره ويُحمَل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء". أى أنه كان عالما بالشعر ذا بصيرة نقدية عجيبة فيه وصاحب موهبة وبراعة في التقليد ومقدرة

على خلط الأمور حتى لتداخل الأشعار الصحيحة والزائفة على يديه فلا يميز بينها إلا عالمٌ حرّيت. فمن نصدق يا ترى؟ أنصدق من يرميه بالجهل الفاحش بالشعر وباللحن والكسر فيه، أم نصدق من يصوره بصورة العبقرى الجهبذ الذى لا يعجزه في هذا الميدان شىء؟

وهناك خيران آخران غريبان عنه في "الأغاني" مُفَادهما أنه بقى يكذب على الناس ويضع لهم الشعر الجاهلى المنحول على مدى عشرات السنين، على الأقل من أيام الخليفة الأموى الوليد بن يزيد (الذى نجح في امتحانٍ عقده له كى يتثبت أنه يحفظ فعلا لمن لا يعرفهم من الشعراء مائة قصيدة على كل حرف من حروف الألفباء) حتى عصر المهدي ثاني خلفاء بنى العباس حين اكتشف تلاعبه فنادى في الناس ألا يقبلوا روايته، وكأن الدولة الإسلامية كان من مهامها نقد الأدب والكشف عن الشعر المنحول! فهل يقبل العقل أن يظل الرجل يضحك على ذقون العرب كل هاتيك العشرات من السنين دون أن يكشفه أحد قبل المهدي العباسي، وكأنه يتعامل مع أمة من الأفدام الأعتام البائسين؟ وأخيرا وليس آخرا نجد ابن سلام يبدأ كلامه قائلًا إن الشعر العربى لم يعرف غير الرواية الشفوية، ليعود فيضيف بعد قليل أنه كان هناك قسط كبير منه مقيد في ديوان عند النعمان بن المنذر وانتهى مطافه إلى أيدي بنى

مروان. وذلك القسط، حسب كلامه، هو أفضل الشعر الجاهلي من الناحية الفنية لأنه شعر الفحول ومن مدحوا النعمان وأسرته. وهذا تناقض واضح!

كذلك نقرأ في "تاريخ بغداد" لأبي بكر بن الخطيب أن أبا عمرو الشيباني، وهو أيضا راوية كوفي كحماد، كان يجمع شعر القبائل حتى إذا انتهى من شعر إحداها كتب مصحفا بخطه ووضعه في مسجد الكوفة. ومع هذا فقد كان خصومه يتهمونه بالسرف في شرب الخمر رغم إقرارهم بأنه ثقة في روايته. ويعلق طه حسين قائلا: "وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه إلى شعرائها" (طه حسين/ في الأدب الجاهلي / 171)، وهو ما يعنى أن من البشر من يظل يقول: "عترة" ولو طارت، ومنهم طه حسين، فهذا هو ذا الشيباني قد اجتمع خصومه وأنصاره على توثيقه، بيد أن طه حسين لا يعجبه العجب، فيتهم الرجل بأنه كان يؤلف الشعر وينسبه إلى شعراء القبائل التي تدفع له. أما من أين أتى طه حسين بهذا الكلام، فينبغي أيها القارئ أن نخبر على ما يقوله ساجدا موافقا ولا تسأل مثل هذا السؤال. وعجيب أن يسرف طه حسين في الشك في الشعر الجاهلي حتى ليزعم أنه كله تقريبا مصنوع صنعا، حاطبا هكذا في جبل مرجليوث المستشرق البريطاني الحبيث مع بعض التلاوين التي لا تقدم ولا

تؤخر، ثم يصدّق دون أدنى تفكير أو محاولة في التثبت أية رواية تشكك في علماء المسلمين، بل يجترع لبعضهم الاتهامات اختراعاً كما رأينا في حالة الشيباني المسكين!

أيا ما يكن الأمر فإن ما قاله ابن سلام، وهو أكثر المؤلفين العرب القدماء شمولاً وتفصيلاً في الحديث عن النحل والانتحال في الشعر الجاهلي، لا يُعدّ شيئاً إلى جانب ما كتبه المستشرق البريطاني ديفيد صمويل مرجليوث في بحثه الذي نشره في عدد يولييه 1925م من المجلة الآسيوية الملكية بعنوان "The Origins of Arabic Poetry"، والذي انقض فيه على الشعر الجاهلي ينفية كله نفياً باتاً لا يقبل نقضاً ولا إبراماً، ويتهم العلماء العرب في العصر العباسي بأنهم قد صنعوا ذلك الشعر صناعة ولفقوا له أسماء شعراء فوق البيعة. وجاء على إثره طه حسين فردد مقولته تلك العجيبة حذوكم النعل بالنعل، اللهم إلا بعض الخيوط الرفيعة التي لا تُذكر، إذ كل ما هنالك أنه، في الوقت الذي يزعم فيه مرجليوث أن "كل" الشعر الجاهلي منحول زائف، فإن طه حسين يحاول أن يبدو مستقلاً عن متبوعه فيقول: "جلّله، إن لم يكن كله". أما فيما عدا ذلك فقد أخذ طه حسين من المستشرق البريطاني الموتور أدلته واتجاه بحثه. وعبثاً يحاول أنصار طه حسين تبرئته والادعاء بأنه لم يأخذ شيئاً من مرجليوث، رغم أن الدلائل

والشواهد جميعها تنطق بأقوى لسان بأنه إنما أغار على بحث مرجليوث إغارة شاملة، وإن وشّاه ببعض التزاويق والخذلقات التي ظن أنها يمكن أن تغطي على سرقة. بل إن مرجليوث نفسه قد اشترك في اللعبة مدافعا عن ناهب فكرته زاعما أن الباحثين قد صدرا تقريبا في وقت واحد، بينما يفصل بينهما عشرة أشهر كاملة، كما أن طه حسين في كل ما كتب قبل ذلك التاريخ من مقالاتٍ وكُتُبٍ كان يتحدث عن شعر الجاهلية حديث المطمئن له تمام الاطمئنان. بل إنه في آخر ما كتب في هذا الموضوع قبل مرجليوث، وكان ذلك في الفصل الأول من كتابه: "قادة الفكر"، الذي سبق صدوره صدور بحث مرجليوث بشهرين تقريبا (في إبريل 1925م على وجه التحديد)، قد جعل من الجاهلية وأشعارها أساسا لحضارة الإسلام، مؤكدا أنه لولا هذه الأشعار وأصحابها ما كان الخلفاء والعلماء والقواد المسلمون. وقد ألح على هذه الفكرة إلحاحا كبيرا، في الوقت الذي ذكر معها شكَّ بعض الباحثين الأوربيين المحدثين في وجود هوميروس. وهذا نص عبارته: "عَلَامَ تقوم الحياة العربية في بداوة العرب وأول عهدهم بالإسلام؟ على الشعر!... هل كانت توجد الحضارة الإسلامية التي ظهر فيها مَنْ ظهر من الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال لو لم توجد البداوة العربية التي سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى

وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم؟" (قادة الفكر/ ط9/ دار المعارف بمصر/ 10-11). لكنه ما إن ظهر بحث مرجليوث ووصل إلى أيدي الباحثين والعلماء في مصر حتى رأيناه ينتكس على رأسه وينقلب مائة وثمانين درجة مرددا عكس ما كان يردده طوال تلك السنين التي أريت على الخمس عشرة سنة منذ أول مقال وجدته يتناول فيه الكلام عن الشعر الجاهلي كما وضّحت في بحث لي كتبتُه منذ أكثر من سبع عشرة سنة ونشرته على المشبك منذ عدة سنوات بعنوان "نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي: سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وقد عقدتُ لِبَحْثِي طه حسين ومرجليوث دراسة مستفيضة قارنت فيها بينهما وانتهيت إلى أن الدكتور طه لم يأت بشيء أساسي غير ما قاله المستشرق البريطاني، وهذه الدراسة متاحة لمن يريد لها في كتابي: "معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين": فكلاهما ينفي الشعر الجاهلي كله، وإن تظاهر طه حسين بأن من الممكن أن يكون بعض ذلك الشعر صحيحا. لكنها صحة نظرية لأنه في ذات الوقت يحرص على إثارة الريبة في ذلك الشعر جميعه متحججا بأنه يجري في ذلك على الشك المنهجي الذي يُنسب للفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وهو ما بينت أنه لا أساس له من الصحة، إذ إن طه

حسين لم يفهم تلك الفلسفة ولا نجح في تطبيقها على موضوعه، فقد دخل الساحة وفي ذهنه التشكيك في الشعر الجاهلي لا لشيء إلا لأن مرجليوث قد شكك فيه، فكان لا بد له بدوره من الشك والتشكيك في كل ما يتعلق بذلك الشعر كأنه صدى صوت المستشرق البريطاني أو بوق فمه، مع الاطمئنان في نفس الوقت إلى كل نص آخر ما دام يمكن الالتواء به لخدمة فكرته التي سرقها من مرجليوث بمباركة صاحبها كما رأينا. ولو كان يفهم فعلا ذلك الشك المنهجي، أو على الأقل: لو كان مخلصاً وجاداً في تطبيقه على بحثه، لوقف من كل النصوص التي بين يديه موقف الاحتراز والارتياب إلى أن يظهر له أنها تستحق الاطمئنان حقاً.

كما أن كليهما يهاجم الرواة الشفويين الذين يقول مؤرخو الأدب العربي بوجه عام إنهم هم الذين حفظوا للأجيال التالية أشعار الجاهلية، ويشكك في مقدرتهم على أداء تلك المهمة. وفي الوقت ذاته ينفي كلاهما أن يكون العرب في ذلك الوقت على معرفة بالكتابة بحيث يستطيعون أن يسجلوا ذلك الشعر لو كان له فعلاً وجود، كي يحفظوه من الضياع. وبالمثل فكل منهما يعتمد في نفيه لذلك الشعر على اختفاء اللهجات القبلية من قصائده ومجيئه كله في قالب فصيح مما يشير إلى أن العرب كانوا ينظمون شعرهم قبل الإسلام بلغة واحدة هي

اللغة الفصحى، وهذا ما يرفضه كلاهما ويرى أن الفصحى قبل الإسلام لم يكن لها وجود. كما يعتمد كل منهما على خلوّ ذلك الشعر من الموضوعات الدينية، اللهم إلا ما فيه من بعض العقائد والشعائر الإسلامية، وهو ما يدل على أنه إنما صنّع بعد الإسلام صنْعًا (انظر د. إبراهيم عوض/ معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين/ مطبعة الفجر الجديد/ القاهرة/ 1987م/ 56-77).

ومع هذا كله يأتي أحمد عبد المعطى حجازى فيفسر شك طه حسين في الشعر الجاهلي على النحو التالى الذى لا أفهم كيف توصل إليه: "وإذا كان الرواة العرب ينسبون القصائد المعلقة لشعراء أفرادٍ كامرئ القيس وطرفة بن العبد، وعنترة فقد ذهب عميد الأدب إلي أن الشعر الجاهلي منحول، أو هو بعبارة أدق نتاج جماعي يصور حياة الجماعة العربية البدوية ويجسد أخلاقها ويعبر عن نظرتها الخاصة للوجود بلغة طقسية قريبة من لغة الشعائر الدينية التي تصبح فيها الجماعة كيانا واحدا يتوحد فيه الأفراد وتتصل الأجيال"، وهو كلام لم يَدُرْ في خاطر طه حسين ولا حتى في الأحلام! إنما هو من أوهام حجازى المضحكة! (انظر مقاله في "أهرام" الأربعاء 11 جمادى الأولى 1427هـ - 7 يونيو 2006م بعنوان "الشعر في حياتنا - الشعر ليس امتيازًا خاصًا").

ويجد القارئ رداً مفصلاً وتفنيدياً تاماً لكل ما هَرَفَ به مرجليوث في الدراسة المطولة التي ألحقتها بترجمتي لبحث ذلك المستشرق (ديفيد صمويل مرجليوث/ أصول الشعر العربي/ ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض/ ط2/ دار الفكر العربي/ 1421هـ — 2000م/ 115-162). وفي تلك الدراسة بينت أن دعوى مرجليوث القائلة بأن الشعر الجاهلي لم يكن له وجود وأن العرب لم يعرفوا نظم الشعر قبل العصر الأموي هي دعوى متهافنة، ويكفى أن نقرأ في ذلك الشعر الأموي نفسه الذي لا يشك فيه مرجليوث لحظَةً إشاراتٍ متكررةً إلى شعراء الجاهلية بوصفهم المثل الأعلى لشعراء العصر الأموي، علاوة على حديث القرآن الكريم المتكرر عن الشعر والشعراء، وهو الحديث الذي لا يمكن أن يكون معناه الكهانة والكهان كما يزعم مرجليوث على غير أساس كافي ينفي معرفة العرب للشعر في ذلك الوقت، إذ تحديث أي إنسان أن يأتينا بأى نص قديم يقول إن كلمة "الشعراء" في ذلك الوقت كانت تعني "الكهان". علاوة على أن وقائع التاريخ ورواياته تقول إن الشعراء كانوا موجودين بكل يقين قبل الإسلام وفي عصر الرسول عليه السلام على عكس ما يريد مرجليوث منا أن نفتنح. وبالنسبة فقد سبقه كليمان هوار فربط على نحوٍ ما بين الشاعر من جهة والكاهن والساحر من

A History of Arabic (انظر: **Literature, PP.7-8**). ثم يزيد الطين بلةً أن يردد أحمد حسن الزيات هذا السخف، وأن يكون ترديده له فوق ذلك ترديد الواثق المطمئن الذي لا يرى في الأمر أية غرابة. بل إن الطريقة التي رددده بها لتوهم من لا يعرف خبيئة الأمر أن هذا الكلام هو رأيه هو، توصل إليه من تلقاء نفسه. وفضلاً عن هذا فإنه لم يقدم لنا ما يدل على صحة ما يقول (انظر كتابه: "تاريخ الأدب العربي" / 28-29). وعودةً إلى مرجليوث نقول إنه لمن العجيب أن يأتي باحث في الشعر الجاهلي هو د. كريم الوائلي فيزعم أن المستشرق البريطاني لا ينكر وجود ذلك الشعر، بل يؤكد أنه كان موجوداً، وكل ما هنالك أنه يشك في الطريقة التي وصل بها إلينا، وهو ما يقلب كلام مرجليوث رأساً على عقب (انظر الفصل المسمى: "توثيق الشعر الجاهلي" من كتابه: "الشعر الجاهلي - قضاياها وظواهره الفنية" المنشور على المشباك). ولا أدري من أين له بذلك الفهم الغريب! أما مسألة اللهجات التي يطنطن بها كل من مرجليوث وتابعه المصري المتفاني في تعقب خطواته الطائشة الهائشة الفائشة فيكفي هنا في إحضار ما زعماه بشأنها أن نقول إن القرآن قد ذكر في أكثر من آية أنه نزل بلسان عربي، لا بلهجة قريش أو الحجاز مثلاً، مما يبرهن أصلب برهان على

أنه كانت هناك لغة واحدة للعرب جميعا بخلاف ما ادعاه الاثنان
بمُتأناً وميئناً من أن اللغة العربية لم تصبح لسانا لمن نسميهم
بـ"العرب" إلا بعد قيام الدولة الإسلامية بدءاً من عصر
الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أننا لم نسمع بتاتا أن العرب
في الجاهلية أو قبل قيام الدولة الجديدة بعد ذلك في عصر
المبعث كانوا يحتاجون إلى تراجمة بين بعضهم وبعض أو قامت
عقبة تحول دون تفاهمهم. ثم إننا ما زلنا حتى الآن نستعمل في
حياتنا اليومية لهجات متعددة تختلف عن الفصحى في أشياء
ليست بالهينة، لكننا حين نكتب أو نبدع نترك عادةً هذه
اللهجات وراء ظهورنا ونلجأ إلى المستوى الفصيح، فما
المشكلة في هذا؟ بل إنني لأذهب إلى عكس ما يقول به كثير من
الباحثين من أن العرب قبل الإسلام بقليل من الوقت نسبياً قد
انتهوا إلى اصطناع لهجة قريش في إبداعاتهم واتخاذها من ثم لغة
أدبية لهم جميعاً، إذ أرى أن الفصحى كانت موجودة منذ زمن
طويل ينحو الخطاب والشعراء منهم نحوها تاركين عندئذ
لهجاتهم المختلفة التي كانوا يخصصونها لموضوعات الحياة العادية
كما هو الحال في كل اللغات، وإلا فلو أخذنا بنظرية ارتقاء
لهجة قريش عشية بزوغ الإسلام إلى احتلال موقع اللغة القومية
للعرب كلهم لكان معنى هذا أن العرب قبل ذلك كانوا
يصطنعون لغات مختلفة بعدد قبائلهم، وهو ما يقتضى أن كل

قبيلة منهم كانت تمثل دولة مستقلة لها حدودها وقوميتها بحيث لا تتداخل مع أية قبيلة أخرى. وأين ذلك، وكيف، وهم لم يكونوا يستقرون في موضع واحد قط، بل كانوا دائمى السعى وراء العشب والماء طول العام، والاختلاط من ثم في كل أرجاء البادية؟ أو أنهم كانت لهم لغة أخرى غير العربية يستعملون في أمورهم المعيشية لهجاتها المختلفة، تلك اللهجات التي أخذت لهجة قريش منها موقع الصدارة قرب مجيء الإسلام وأضحت بذلك لغتهم القومية بدلا من لغتهم الأولى. فهل كان للعرب لغة أخرى غير هذه التي بين أيدينا؟ فما هي تلك اللغة يا ترى؟ وما اسمها؟ وما الدليل على وجودها؟ وفوق هذا فإن أيا من مؤرخيهم أو خطبائهم أو شعرائهم لم يتحدث في هذا الموضوع بتاتا، بل لم يشر إليه أى باحث مجرد إشارة.

وتبقى مسألة الدين، وفي الشعر الجاهلى إشارات متكررة إلى عدد من مظاهره وشعائره وقتذاك. وأقصى ما قد يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن الشعر الجاهلى يخلو من القول المفصل في أمور الدين، وهو ما يمكن أن يفسر بأن كثيرا من ذلك الشعر قد ضاع وأن المسلمين لم يجدوا في أنفسهم ميلا إلى حفظه وترديده. وينبغى ألا ننسى أيضا أن خطب العرب وأمثالهم تخلو مثل الشعر، وربما أكثر من الشعر، من الحديث في أمور الدين. أما القول بأن ذلك دليل على أنه مصنوع في

الإسلام فنتيجة غير لازمة ولا مسلمة، فضلا عن أن القول بما يستلزم أن تكون أمة العرب والمسلمين كلها على بكرة أبيها أمة من المزيّفين والمتواطئين معهم، أو أمة من الكذابين الوضّاعين من جهة، ومن الأغبياء المغفلين من جهة أخرى حتى ليجوز أن يخترع المخترعون منها شعر عصر كامل وشعراءه فجأة، وكأن الأمة نامت ذات ليلة دون أن يكون هناك شعر جاهلي ولا شعراء جاهليون ثم استيقظت من مرقدها فإذا بين يديها ذلك الشعر وشعراؤه، ورغم هذا لا يجد هؤلاء المخترعون المزيّفون من يعقب على صنيعهم. ثم إن العرب قبل ذلك كله كانوا يعتمدون على ذاكرتهم اعتمادا أساسيا حتى أضحت الذاكرة العربية من كثرة الاستعمال والثقة بها حادة الرهافة. أما الاتهامات التي وُجّهت إلى بعض الرواة فمن الممكن أن تكون كلاما مرسلا، بل لقد وجدنا بعضها لا يقوم على أساس، أو لا يقوم على الأقل على أساس متين. كما أن قول القرآن الكريم في خطابه للكافرين: "أم لكم كتاب فيه تدرسون* إن لكم فيه لما تخيرون؟" (القلم/ 37) ليس معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئا عن القراءة والكتابة حسبما زعم مرجليوث بجهله وبهلوانيته، بل الكلام فيه موجه إلى القرشيين وحدهم لا إلى العرب كلهم، إذ كان أهل مكة يسخرون من الجنة ومن المؤمنين بما قائلين إنه إن كان ثمة جنة

ونعيم فلسوف يتمتعون رغم ذلك بما فيها من خيرات ولذائذ، فأنكر عليهم القرآن قولهم ذلك متسائلا: أَوْفَى أَيْدِيهِمْ كِتَابُ سَمَوى يَقُولُ بِأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيُتِمَّتُونَ كَمَا يَزْعَمُونَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ كَالْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؟ ولقد أثبت الباحثون من عرب ومستشرقين معرفة العرب للكتابة والقراءة ولجوءهم إليها في عملية تسجيل الشعر في غير قليل من الأحيان (انظر في ذلك مقال كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربي القديم"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى في كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" / 292-304، والفصل المطول المستفيض الذى عقده لذلك الموضوع ودعمه بالشواهد الكثيرة والأدلة القوية د. ناصر الدين الأسد في كتابه القيم: "مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية"/ دار المعارف/ 1956م)... إلخ.

وقد انتهى الأمر بدراستى مرجليوث وطه حسين عند الباحثين المحترمين إلى الانزواء فى دائرة النبذ والإهمال حتى فى نطاق المستشرقين أنفسهم الذين انقض بعضهم على بحث مرجليوث المتهاافت السخيف فمزقوا أوصاله وأبرزوا ما فيه من تفكك ومجافاة للمنطق وأصول البحث العلمى، وهو نفس المصير الذى لاقاه كتاب طه حسين رغم القعقعات التى يحاول بعض من يُحسَبون على الثقافة العربية أن يُحدِثوها بين الحين

والحين تلميعا له جاهلين أن ذلك الكتاب قد مات وشبع موتا منذ ثمانين عاما إثر تتالى الضربات القاضية عليه من أقلام العلماء الأثبات التي كشفت عواره وفضحت ما فيه من خورٍ فكريّ وركاكةٍ علمية وتسرّعٍ أهوجٍ إلى نتائج مقررة سلفا لا تؤدى إليها المقدمات التي ساقها صاحبه، وأن ما مات لا يعود للحياة إلا يوم الدين. وبالناسبة فكثير من النصوص الشعرية التي شكك فيها طه حسين في كتابه: "في الشعر الجاهلي" ثم في خَلْفِه: "في الأدب الجاهلي" ليست نصوصا جاهلية بل إسلامية، وهذا من أعجب العجب! على أن قولنا إن المستشرقين الآخرين قد هاجموا نظرية مرجليوث الرعناء في نفى الشعر الجاهلي كله لا يعنى أنهم لا يشكون أى شك في ذلك الشعر. إنهم يشكون، بيّد أن شكهم لا ينسحب على ذلك الشعر كله، بل على أشياء فيه لا تجعلهم يطمئنون تمام الاطمئنان إلى ما وصل إلينا منه رغم غرابة علمائنا القدامى لنصوصه، بل رغم تنطّس هؤلاء العلماء في تلك الغرابة أحيانا أكثر مما ينبغى كما أشرت إلى بعض ذلك فيما مضى. ويستطيع القارئ أن يقرأ عددا من أبحاث هؤلاء المستشرقين في هذا المجال في الكتاب الذى صدر للدكتور عبد الرحمن بدوى للمرة الأولى عام 1979م عن دار العلم للملايين ببيروت بعنوان "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي" والذى يضم ترجمة

عشرة من أبحاث كبارهم في ذلك الموضوع مثل نيلدكه وشبرنجر وبلاشير، وقد مرت الإشارة إليه قبل قليل.

ولعل أهم ما تناولوه ووقفوا عنده ملياً الطريقة التي كان يُروى بها الشعر الجاهلي عادة، وهي الطريقة الشفوية، إذ فسروا في ضوءها ما لوحظ على نصوص ذلك الشعر من اختلاف في روايتها تقديمًا وتأخيراً وتغييراً لكلمة أو عبارة بكلمة أو عبارة أخرى، أو اختلافٍ في نسبة نص معين إلى أكثر من شاعر، أو تداخل نصٍّ لشاعرٍ ما مع نص لشاعرٍ آخر يشترك معه في الوزن والقافية ويقترب منه في الموضوع الذي يعالجه... على أساس أن الذاكرة البشرية مهما كانت قوتها لا بد أن يصيبها الوهن والنسيان من حين لآخر، وهو ما يوافق ما قاله هاملتون جيب في هذا الصدد في كتابه: " **Arabic Literature, Oxford University Press, (P.20 1974)**. ولا شك أن في بعض ما قالوه في هذا السبيل شيئاً من الوجهة، إلا أنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن اختلاف روايات الشعر الجاهلي لا يرجع كله إلى خيانة الذاكرة بالضرورة، بل ربما وردت أكثر من رواية لكثير من نصوصه عن الشاعر نفسه تبعاً لاختلاف الأزمنة والظروف التي كان الشاعر يلقي فيها على الجمهور قصائده، إذ من المعروف أن المبدع لا يكف عن معاودة النظر في إبداعاته

والعمل على صقلها كلما واتته الفرصة. وأية فرصة أعظم من أن أشعاره لم يكن يتم تثبيتها كتابة إلا في أحيان قليلة؟ وإذن فالفرصة مفتوحة له على مصراعيها كي يُدخِل أي تغيير يريد في الوقت الذي يشاء. وأنا أفعل ذلك في مقالاتي ودراساتي المنشورة على المشباك ولم تُثبِت بَعْدُ على الورق، إذ بإمكانى كلما أعدت نشر ما كنت قد نشرته في موقع آخر غير الموقع الأول أن أدخِل فيه من التغييرات والتصحيحات ما أشاء وبمتهى السهولة. بل إننا، حتى بعد أن يتم تثبيت نص أى كتاب لنا على الأوراق، نستطيع أن نعيد النظر فيه عند التفكير في طبعه مرة أخرى. فإذا كان هذا يحدث في أعمالنا المكتوبة، فما بالنا بإبداعات الشعراء الجاهليين التي لم تكن تُكْتَب في العادة كما قلنا؟ (انظر في هذا الصدد دراسة هـ. ألفرت: "ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة" / من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى في كتابه المذكور / 41-86، ودراسة ف. كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربي القديم" / من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى في نفس الكتاب / 292-304، وبحث جيمس مونرو (James Monroe) Oral Composition in Pre-Islamic Poetry " المنشور في " Journal of Literature Arabic " / 1972م / 3 / 1-7، وترجمته

العربية لفضل بن عمار العمارى بعنوان "النظم الشفوى فى الشعر الجاهلى" / دار الأصاله/ الرياض / 1407هـ —
1987م).

وبطبيعة الحال فإن ضعف الذاكرة والأعيها ليست وحدها السبب فيما اعترى الشعر الجاهلى من تغييرات، فلست أحسب أن كل الرواة الذين أدوا إلينا ذلك الشعر كانوا مخلصين أو حريصين على أن يقوموا بواجبهم على النحو المطلوب، لأنهم فى نهاية المطاف بشر من البشر. وعلى دارس الشعر الجاهلى أن ينظر فى كل قصيدة على حدة وألا يرفضها إلا إذا قام فى نفسه من بواعث الشك ما لا يستطيع الرد عليه، كأن تكون القصيدة إسلامية حقا بحيث لا يمكن توجيهها بأى حال، أو أن يكون فيها من اضطراب التاريخ ما لا يستقيم معه أمرها البتة. ومن يُرد أن يرى كيف طبقتُ هذا الاختبار فى دراساتي فباستطاعته مراجعة الفصلين الخاصين بذلك من كتابي: "عترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية"، و"النابعة الجعدى وشعره". كذلك على الدارس أن يحصر شكه فيما يقبل الشك منها فلا يعمم ذلك الشك دون مسوغ. وهناك قصائد منسوبة إلى آدم مثلا، ولا أظن عاقلا يصدق أن آدم كان يتكلم فى ذلك الزمن الموعول فى القدم بلسان العرب. صحيح أننا لا نعرف متى بدأ ظهور اللغة العربية ولا متى

أضحت لغة لنظم الشعر، إلا أن هذا لا يعنى أن نصدق الشعر المنسوب لأبي البشر بتلك اللغة، فاللغات لا تظهر كاملة مرة واحدة، وآدم إنما يمثل أول فرد في أول جيل من أجيال البشر على الأرض، فلا يعقل إذن أن تظهر العربية على يديه كاملة الفن وطرائق التعبير وكأنها نزلت من السماء لا ينقصها شيء. إن هذا ضد طبيعة الحياة كما نعرفها، وذلك إن صدقنا أن ذلك الجذ البعيد كان يتحدث لغة من اللغات التي نعرفها أصلاً!

أعود فأبْلُورُ موقفي من قضية النحل والانتحال في الشعر الجاهلي فأقول إن هناك بلا شك شعرا جاهليا منحولا، إلا أنني لا أتوسع في ذلك ولا حتى توسع ابن سلام، الذي يبدو (بالقياس لبعض الباحثين المحدثين) من المعتدلين إلى حد بعيد. ذلك أن الأسباب التي استند إليها الباحثون في الشك في الشعر الجاهلي ليست دائما بالأسباب القوية التي تجعلني أتشكك في هذا الشعر على ذلك النطاق الواسع الذي يريده طه حسين مثلا، أو حتى على النطاق الذي كان يتحرك فيه ابن سلام حسبما وضحتُ فيما سبق من هذا الفصل. ومن هنا فإنني أميل إلى القول بأن باحثا كبيرا كالدكتور شوقي ضيف لم يقدم دائما المسوغات الكافية في رفض عدد من قصائد الشعر الجاهلي، وأن السبب في ذلك هو امتلاء نفسه بهاجس النحل

والانتحال رغم وقوفه في ذات الوقت في وجه من يريدون إثارة عواصف الارتياب وأعاصيره في ذلك الشعر: فمثلا نراه، رحمه الله، يشك شكاً شديداً في قصيدة النابغة الذبياني: "بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما" لأنها، كما يقول، "نسيب خالص ولأن بها روحاً إسلامية تتصح في قوله مخاطباً صاحبتة:

حيّاك ربي، فإننا لا يحل لنا فهو النساء، وإن الدين قد عَزَمَا
مشمّرين على خوصٍ مزنّمةٍ نرجو الإله ونرجو البر والطعما

رغم أنّها من رواية الأصمعي كما ذكر هو نفسه (العصر الجاهلي/ 278). ولست أشاطر الأستاذ الدكتور شكه الشديد في القصيدة، فإن مجيئها نسيباً خالصاً لا يُعدّ مسوّغاً لرفض نسبتها إلى الشاعر ضربة لازب، وإلا فهل عنده دليل على أن النابغة لا يمكن أن يقول شعراً خالصاً في النسيب؟ كما أن البيتين اللذين يصفهما بأنهما ذوا روح إسلامية لا يتّسمان في حقيقة الأمر بشيء إسلامي حصراً، إذ الكلام فيهما عن الإله والدين بعامّة، وهو كلام يصدق على كثير من الأديان. وحتى لو كانا إسلاميين حقاً وصدقاً، فإن ذلك ليس بالسبب الكافي لرفض القصيدة كليهما، بل لرفض البيتين فحسب. وهو نفسه لم يردّ بيتين لزهير بن أبي سلمى يؤمن فيهما باليوم الآخر والحساب ويؤكد معرفة الله تعالى بغيب النفوس واطلاعه المطلق على كل شيء (المرجع السابق/ 303)، فهذا من هذا. ولا ننس أن النابغة كان يتردد على بلاط الحيرة والغساسنة،

وكان ملوكهما نصارى. بل إن في شعره، كما نعرف، كلاماً عن بعض الأعياد والاحتفالات النصرانية.

وبالمثل نجد الأستاذ الدكتور ينكر صحة قصيدة الأعشى الدالية التي تقول كتب الأدب إنه كان قد أعدها لمجد الرسول عليه السلام قبل أن تلقاه قريش وتصدده عن الذهاب إليه وإعلان الإيمان به، والتي تتضمن بعض التعاليم الإسلامية والعبارات القرآنية، بحجة أنها "لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى"، وأنه لا يمكن أن "يؤمن بتعاليم القرآن على هذا النحو ثم ينصرف عن الرسول وهدية" حسب تعبيره (السابق/ 342). يشير الاستاذ الدكتور إلى ما تحكيه كتب الأدب من أن الأعشى أعد العدة للوفادة على النبي عليه السلام وهو لا يزال في مكة وجهّز في مدحه قصيدة يقولها عند لقائه، إلا أن قريشا ما إن علمت بهذا الذي كان ينتويه حتى سارعت بمقابلته وعملت على تنفيره من الدين الجديد وصاحبه، فرجع من طريقه دون أن يفد عليه صلى الله عليه وسلم، ثم تابعت الحوادث حتى مات ولم يدخل في الإسلام. لكن من قال إن الأعشى كان في خاطره الانصراف عن الرسول انصرافاً نهائياً؟ ربما انصاع لكلام القرشيين ريثما تتاح له فرصة أخرى، أو ربما ضعف أمام ما أعطوه من مال فأخذه وانصرف مؤقتاً انتظاراً لظروف أفضل يستطيع أن يعلن فيها إسلامه دون خوف من

ضغط أو إحراج. والناس ليسوا سواء في قوة التمسك بما يؤمنون به، ولا كلهم على استعداد للبذل والتضحية العنيفة، ولا من طبيعتهم جميعا المسارعة إلى تنفيذ ما ينوون عمله. وعندى أن تفسير موقف الأعشى بذلك أقوى في الإقناع من إنكار نسبة القصيدة له والقول بأنها منحولة. وثمة أمثلة أخرى كثيرة يسارع فيها الدكتور شوقي إلى إعلان شكه في هذه القصيدة أو تلك دون أن تكون التسويغات التي يسوقها مُرضيةً للعقل، ولكنى أكتفى بهذين المثليين دليلا على أنه، ككثير من الباحثين العرب، قد امتلأ قلبه بهاجس النحل والانتحال أكثر مما يصح رغم أنه قد رد هجوم مرجليوث وطه حسين وبلاشير على الشعر الجاهلي وبيّن ما في ذلك الهجوم من مغالاة لا تستقيم ومنطق الأشياء (السابق/ 166-175)، وإن لم يعن هذا بطبيعة الحال أن كل القصائد التي ردها أو أبدى شكه فيها لا تستحق هذا الشك أو ذلك الرد. خلاصة القول إن في الشعر الجاهلي شعرا صحيحا، وهو الأغلبية الكبيرة، وفيه إلى جانب هذا شعر منحول أيضا، إلا أن المنحول ليس بالكثرة ولا الاتساع الذي توحى به عادة كتابات من كتبوا في ذلك الموضوع.

هذا، وبلغت النظر في الشعر الجاهلي أن عدد شعرائه كبير هائل: منهم المشهور الطائر الشهرة كامرئ القيس وعترة

والأعشى وزُهَيْر بن أَبِي سُلْمَى والنابغة الذُّبْيَانِي وعمرو بن
كلثوم وطَرْفَة بن العبد وزرقاء اليمامة، ومنهم من لا يحظون
بشيء من الشهرة كأبي حذيفة وأعصر بن سعد وأوس الهجيمي
وجناب بن منقذ وسبيع التميمي وأرطأة الفزاري وابنة أبي
الجدعاء وكسرة بنت دوشن وجمال السلمية وزهراء الكلابية
وسُعدى الأسدية، ومنهم من كان بين ذلك قَوَامًا مثل عَيْد بن
الأبرص والمهلل بن ربيعة وعلقمة الفحل والمرقش الأكبر
ولَقِيْط بن يَعْمُر وعروة بن الورد وتَابُطْ شَرًّا والشَّنْفَرَى وعمرو
بن قميئة وسلامة بن جندل وعبد يَعُوْث الحارثي وكعب بن
الأشرف النَّصْرِيّ وجليلة بنت مُرَّة وليلى العفيفة. ومنهم
أصحاب المطوِّلات، ومنهم من لم يصلنا عنهم إلا مقطوعات أو
تُتْفُّ أو أبياتٌ مفردة. ومنهم كذلك أصحاب الدواوين،
ومنهم من لهم عدد صغير من القصائد والمقطوعات، ومنهم من
ليس لهم إلا بعض أبيات أو أقل من ذلك. ومنهم من كان
يَنْظِم في أناةٍ وريثٍ ويعيد النظر في ما ينظمه قبل أن يذيعه في
الناس حتى ليقول ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" إن زهيراً كان
ينفق في إبداع القصيدة الواحدة وقتاً طويلاً، وإن الحُطَيْيئة (من
الشعراء المخضرمين)، وسُوَيْد بن كُرَاع وعَدِيّ بن الرقاع (من
شعراء بني أمية) كانوا يتخذونه مثلاً لهم يحتذون طريقته
وينقحون شعرهم قبل أن يذيعوه تنقيحاً شديداً كما كان

يصنع. ومنهم في المقابل من لم يكن يعكف كل هذا الوقت الطويل على تهذيب ما ينظم بل كانوا يميلون إلى إذاعة ما يبدعون من شعر على الجمهور بمجرد ما يفرغون من نظمه، وهؤلاء يُسمَّون: "أصحاب الطبع"، وهو ما تناوله الجاحظ في كتابه: "البيان والتبيين"... وهكذا. ومن أولئك الشعراء من كان ملكاً أو أميراً أو شيخ قبيلة كامرئ القيس والمهلهل والأفوه الأودي وأبي قيس بن الأسلت وحاتم الطائي، ومن كان فارساً كسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وقيس بن الخطيم وعبدة بن الطبيب وأحِيحة بن الجلاح، ومن كان حكيماً كأميّة بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، ومن كان صعلوكاً كتاباً شراً والسُّلَيْك بن السُّلْكة، ومن كان عبداً كعنترة بن شداد وسُحَيْم عبد بنى الحسحاس (وهو جاهلي إسلامي)، ومن كان يتخذ من المديح مرتزقاً كالنابغة والأعشى والمنخّل اليشكري وأبي زبيد الطائي...

ولم يترك شعراء الجاهلية موضوعاً من الموضوعات إلا ونظموا فيه، فشعروا في المدح والفخر والهجاء والرثاء والحماسة والوصف والخمر والنسيب والغزل والأطال والرحلة والقصة والتمرد على أعراف القبيلة والتجارب الشخصية والحكمة ومفارقات الحياة. أي أنهم قد نظموا أشعارهم في الأمور الاجتماعية والشخصية على السواء، وذلك

على عكس ما يردده بعض الدارسين من أن الشعر الجاهلي كان شعراً غَيْرِيًّا لا يعدو الشاعر فيه أن يكون ناطقاً بلسان الجماعة، وكان شخصيته قد أُلغيتْ إغناءً (ممن تناول هذه المسألة وقال بذلك القول المستشرق البريطاني جب في كتابه: **"Arabic Literature", P.28**، إذ زعم أن غالبية شعراء الجاهلية كانوا يعبرون عن الأفكار والمشاعر الجماعية أكثر مما يعبرون عن شخصياتهم الفردية. وقد ردد كذلك هذا القول د. عبده بدوى في كتابه: "الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي" / الهيئة المصرية العامة للكتاب / 1988م / 39). وعلى هذا فقد صور لنا شعراء الجاهلية في قصائدهم ومقطوعاتهم المجتمع العربي في زمنهم، فذكروا الأماكن التي كانوا يترددون بينها أو يُلمّون بها من مدن أو عيون ماء أو جبال وتلال أو بوادٍ، كما أوردوا أسماء قبائلهم ومشاهير الرجال بينهم، سواء كانت شهرتهم بسبب فروسياتهم وشجاعتهم في الحروب أو بسبب كرمهم وأريحيّتهم أو بسبب بخلهم أو بسبب استبدادهم أو بسبب حكمتهم أو بسبب ما اشتهروا به من شعر أو خُطَب... وبالمثل تحدثوا عن كثير من الأحداث المهمة في تاريخهم القريب والبعيد، وتناولوا بالذكر أنسابهم، وأوردوا بعض طقوس دينهم وأسماء أصنامهم، ورسوموا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومثلهم العليا، وتحدثوا

عن مناخ بلادهم من حرّ وبرّد ومطر وسيول وريح
وغمام، ووصفوا أشجارها ونباتاتها ونبايح مياها وحيواناتها
وطيورها الوحشية والإنسية، وقدموا لنا كثيرا من التفاصيل
عن الأوهام التي كانوا يتوهّمونها والمهن التي كانوا يمتهنونها
والهوايات التي كانوا يمارسونها ويقضون بها وقت فراغهم من
حجامة وكهانة وزراعة ورعى وصيد وحدادة وتجارة ولعب
ولهو، كما تتضمن أشعارهم كثيرا جدا من أسماء الأعلام لديهم
ذكرانا وإناثا.

وهذا يجرّنا إلى ما ادعاه د. طه حسين تسرعًا ودون
تثبّت في كتابه: "في الأدب الجاهلي" من أن الشعر العربي
المنسوب إلى الجاهلية لا يصور الحياة العربية قبل الإسلام، وأنا
إذا أردنا التماس تلك الحياة فعلينا بالقرآن، أما الشعر الجاهلي
فهو شعر مزيف موضوع بعد الإسلام وضّعًا، ومن ثمّ فإنه لا
يفيدنا بشيء في هذا المجال (في الأدب الجاهلي/ 70-80،
وفي مواضع أخرى متناثرة من الكتاب). إنه يقول مثلاً إن
الشعر الجاهلي يخلو من الحديث عن النصرانية، مع أن هناك
كلاماً متكرراً عن الرهبان والصلبان وبعض المناسبات
النصرانية مما ينقض كلامه نقضاً. كذلك يزعم الدكتور طه أن
شعراء الجاهلية سكتوا فلم يذكروا الروم والفرس بشيء، بينما
هناك مثلاً قصيدة امرئ القيس الرائية التي يتحدث فيها عن

رحلته إلى القسطنطينية وبعض المواطنين التي مر بها هو ورفيقه، وكذلك قصيدة لقيط بن يعمر التي يحذر فيها قومه والعرب كلهم مما يدبره لهم كسرى من جيش يجهزه لغزو بلادهم واستدلالهم، وقصيدة الأعشى التي يتغنى فيها بانتصار العرب على الفرس في يوم ذي قار. وعلى نفس الشاكلة يمضي طه حسين فيقول إن ما نظن أنه شعر جاهلي لم يتناول المشكلة الطبقية، في الوقت الذي يتضمن هذا الشعر فعلا صفحات كثيرة سطرها الشعراء الصعاليك، وهم الشعراء الذين خرجوا على قبائلهم وكونوا في منقطعات البادية عصابات تغير على القوافل والأغنياء ثم يوزعون ما يجرزونه بهذه الطريقة على أنفسهم بالسوية. كما أن تمدح الشعراء الأغنياء آنذاك بما كانوا يُسدونه إلى الفقراء والبائسين من حولهم هو لون آخر من تصوير هذا الجانب الذي يزعم طه حسين أننا نفتقده في شعر الجاهلية. أما أن ذلك الشعر لا يُفيض في القول إلا حين يتناول البادية، بخلاف حياة المدن التي لم يمسه إلا مساً رقيقاً كما يقول، فهذا أمر طبيعي. ذلك أن بلاد العرب أوآنذاك كانت تغلب عليها البداوة غلبة عنيفة، إذ إن معظم أرضها، كما هو معروف، صحراء قاحلة. وثمة دراسات كثيرة يتناول كل منها هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الجاهلية بما يكذب مقالة طه حسين، الذي كان لا يزال حديث عهد

بالعودة من فرنسا حين كتب ما كتب في هذه القضية، فكان يظن أنه جمع العلم من كل أطرافه رغم أنه لم يتخصص في فرنسا في الأدب العربي، بل في تاريخ الإغريق والرومان، علاوة على أن الدكتوربة التي أحرزها هناك إنما هي دكتوربة السلك الثالث لا دكتوربة الدولة التي تُعدّ دكتوربة حقيقية كاملة.

ومن هذه الدراسات تلك الأبحاث الرصينة التي رد بها العلماء الكبار على طه حسين لدى صدور كتابه الخديج: "في الشعر الجاهلي" من أمثال مصطفى صادق الرافعي ومحمد لطفى جمعة ومحمد فريد وجدى ومحمد الخضر حسين ومحمد أحمد الغمراوى، وكذلك سلسلة المقالات التي كتبها د. أحمد أمين في مجلة "الثقافة" تحت عنوان "جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي" وأكد فيها أن الأدب الجاهلي هو في الواقع صورة صادقة لحياة العرب في الجاهلية. ومنها أيضا الفصول التي خصصها كل من السباعي بيومى ود. شوقي ضيف ود. على الجندي، وعبد الله عبد الجبار مع محمد عبد المنعم خفاجي، لهذا الموضوع فيما وضعوه من كتب عن العصر الجاهلي، وكتابا د. أحمد الحوفي عن الحياة والمرأة في شعر الجاهلية، وكتاب د. يوسف خليف عن شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، وكتاب د. سيد حنفي حسنين عن الفروسية في ذلك العصر أيضا، فضلا عن الكتب والفصول الأخرى التي

خصصها أصحابها للحديث عن الحكمة أو الحرب أو النسب أو الحيوان أو النجوم أو الأنواء أو الخمر أو السُّود في الشعر الجاهلي... إلخ. وقبل ذلك لدينا كتاب "الأصنام" لابن الكلبي، وهو يضم عدداً غير قليل من الشواهد الشعرية المتعلقة بالأصنام وبيوتها وعبادة العرب لها، و"الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، الذي يتضمن كثيراً جداً من أخبار العرب في الجاهلية ووقائعهم وحكاياتهم مرفقة بما يرتبط بها ويصورها من أشعار. وفي "معجم البلدان" وأشباهه من المعاجم ثروة شعرية هائلة تفوق الحصر في وصف المواطن المختلفة في جزيرة العرب من وديان وجبال وشعاب ومياه وقرى وذُكُر أسمائها وتحديد مواقعها. وصدق جرجي زيدان إذ يقول إن عرب الجاهلية قد صوروا "عاداتهم وحيواناتهم وأدواتهم في أشعارهم كما صورها المصريون والأشوريون واليونان والرومان على قصورهم ومعابدهم. وكما استخراج علماء الآثار عادات تلك الأمم وأخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة فالباحث في شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآدابهم وأخلاقهم وطبائعهم وسائر أحوالهم. ولذلك قال ابن خلدون إن الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصل يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. ونزيد على ذلك أنه مستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصنائعهم" (جرجي

زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقي
 ضيف/ دار الهلال/ 1 / 81). وهذا هو نيكلسون يقول مثلاً
 إن الشعر الجاهلي يفيض بالدراسات الدقيقة التي تتعلق بعالم
 الحيوان، ومن الممكن وصفه بأنه عبارة عن نقد للحياة والفكر
 عند العرب قبل الإسلام (انظر كتابه: **A History of**
Arabic Literature, PP.78- 79).

ومن القضايا المهمة التي تتعلق بالشعر الجاهلي أيضاً بناء
 القصيدة. ولعل أول من افتح الكتابة في هذا الموضوع من
 مؤرخي الأدب ونقاده هو ابن قتيبة، الذي قال في كتابه:
 "الشعر والشعراء": "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّد
 القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثار، فبكى وشكا
 وخاطب الرَّبَّع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها
 الطاعنين عنها، إذ كان نازلة العَمَد في الحلول والظعن على
 خلاف ما عليه نازلة المَدَر لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ وانتجاعهم
 الكلاً وتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك
 بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة
 والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي
 به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس لائتُّ
 بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف
 النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسببٍ،

وضارِبًا فيه بسهمٍ حلالٍ أو حرامٍ. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النَّصَب والسهر وسرَى الليل وحرَّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسَّمّاح وفضّله على الأشباه وصعّر في قدره الجزيل. فالشاعر الجيد من سلك هذه الأساليب وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطل فيمِلّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمَاءً إلى المزيد... وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزلٍ عامرٍ أو يبكى عند مَشِيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جرّوا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة".

وأول ما ينبغي التنبيه إليه هو أن الملاحظة السابقة ليست من بُنَيَات عقل ابن قتيبة على عكس ما هو شائع، إذ هو مجرد حاكٍ لها كما جاء في بداية كلامه، وإن كان يُفهم من نهاية

النص أن الرأى الذى يقول بأنه لا يحق للمتأخر من الشعراء أن يخرج على ما قرره السابقون منهم هو رأيه هو. فإن كان الأمر كذلك فمعناه أنه قد وقع دون أن يدرى فى شىء من التناقض، فقد قال فى مقدمة كتابه ذاك فى سياق الحديث عن الشعراء الذين ترجم لهم فيه والأساس الذى استند إليه فى الحكم على مرتبة كل منهم: "ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من قلد أو استحسّن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدّمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخّره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلّاً حظه، ووفّرتُ عليه حقه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيّره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله! ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا فى عصره، وكل شريف خارجةً فى أوله. فقد كان جريراً والفرزدق والأحطل وأمثالهم يُعدّون مُحدّثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المُحدّث وحَسُن حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدما عندنا بعد العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لِمَنْ بعدنا كالحُرَيْمِيّ والعتّابي

والحسن بن هانيءٍ وأشباههم. فكل من أتى بحسنٍ من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يَضَعْهُ عندنا تأخراً قائله أو فاعله ولا حدائثة سنه. كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه". ومعنى هذا أنه لا فضل للمتقدمين من الشعراء على التاليين لهم، فلماذا يجرّم ابن قتيبة على هؤلاء إذن أن يخرجوا على ما قرره أولئك ونهجوا سبيله إذا كان الفريقان موهوبين كلاهما ولا يتفاضلان بهذا الاعتبار؟ كما أن الحياة لا تعترف بهذا التضييق الذى يريد بعض الناس أن يلزموا أنفسهم وغيرهم أيضا به، بل تتسع لألوان كثيرة مختلفة من الأذواق والمعايير، وبخاصة في ميدان الفنون والآداب. وما دام الله سبحانه لم يجعل العقل والذوق والوجدان والإبداع قصرا على قوم دون قوم ولا على جيل دون جيل ولا على أمة دون أمة، فلماذا اشترط ابن قتيبة على اللاحقين من الشعراء أن يلغوا شخصياتهم الفنية ويحطبوا في حبل من تقدمهم من نظرائهم؟

على أن الذى يهمننا من هذا النص حقا هو ما جاء فيه من أن تلك هى السبيل التى كان ينتهجها دائما أصحاب القصائد، وهو ما لا يوافق الواقع، إذ هناك قصائد جاهلية كثيرة جدا لم يجر فيها ناظموها على هذه الخطة، بل تراهم يدخلون في موضوعهم مباشرة، أو يستهلون شعرهم بشيء

آخر غير الوقوف على الأطلال: كالنسيب مثلاً كما في قول
المسيب بن علس:

كَلِفْتُ بِلَيْلَى خَدَيْنِ الشَّبَابِ وَعَالَجْتُ مِنْهَا زَمَانًا حَبَالًا
أو الحديث عن فراق الحبيبة لانتقالها مع قبيلتها إلى منزل
آخر كما في قصيدة بشامة بن الغدير التي مطلعها:

إن الخليط أجدَّ البين فابتكروا لنيّةٍ ثم ما عاجوا وما انتظروا
(وهو ما يمكن تسميته بـ"مقدمة الفراق" أو "المقدمة
الفراقية")، أو بالحديث عن السهاد ومراعاة النجوم ومقاساة
الأرق والقلق (وهو ما أُطلق عليه: "المقدمة السُّهْدِيَّة")، ومنه
قصيدة النابغة المشهورة: "كَلِينِي هُمَّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ" وقصيدة
عروة بن الورد: "أَرِقْتُ وَصُحْبَتِي بِمَضِيْقِ عَمَقٍ" وقصيدة الممزق
العبدى:

أَرِقْتُ فَلَمْ تَخْدَعِ بَعِيْنِي وَسَنَّةٌ وَمَنْ يَلْقَى مَا لَا قَيْتُ لَا بُدَّ يَأْرَقُ
أو بالرد على عتاب زوجته له على ما يهينه من مال
على الفقراء والمساكين مما ترى أن البيت أولى به كما هو الحال
في بعض قصائد حاتم الطائي، أو على تركه بيته وأسرته
والانطلاق في الأرض كما في بعض أشعار عروة بن الورد، أو
على احتفاظه بفرسه رغم حاجة البيت إلى ثمنه كما في قصيدة
ابن المضلل:

بَاتَتْ تَلُومٌ عَلَى ثَادِقٍ لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عَصِيَانُهَا

(وهو ما نستطيع أن نسمه مثلا بـ "المقدمة العتابية")،
أو بوصف الخمر مثلما هو الأمر في معلقة عمرو بن كلثوم التي
يبدوها بالحديث عن الخمر ثم يخرج منه إلى الفخر بنفسه
ويقومه والتحدى للملك الحيرى الذى ظن أن بمكنته النيل من
كرامة الشاعر وأمه فكان في ذلك حتفه الوحى، ثم لا شىء في
القصيدة بعد ذلك، أو بالتحسر على أيام الشباب التي
انصرفت ولم يعد لها من رجوع كما في قصيدة علقمة بن عبدة
التميمي: "طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ" ... وغير ذلك من
الابتداءات، وإن كان افتتاح القصيدة بالوقوف على الطلل
أشهر من غيره من الافتتاحات.

وحتى إذا وقف الشعراء على الأطلال فإن كثيرا منهم لا
يعقبون ذلك بالرحلة لا للممدوح ولا لأى شخص آخر، بل
كثيرا ما لا يكون هناك ممدوح البتة، كما هو الوضع في معلقة
عنتره والملك الصليل مثلا. كذلك فكثير من هذا الشعر لا
يزيد على أن يكون تصويرا لتجربة ذاتية حقيقية أو متوهمة لا
صلة بينها بتاتا وبين الأغراض الشعرية التقليدية ولا البناء الفنى
الذى تحدث عنه ابن قتيبة بأى حال، ومن ذلك بعض أشعار
الشَّنْفَرى التي يصف فيها لقاءه بالغول وعراكه معها. واضح
إذن أن ما قاله ابن قتيبة لا يقتصر على شعر المديح، بل يقع في
شعر المديح وفي غيره. وحتى في شعر المديح فإنه لا يقع عليه

كله بل على بعضه فقط. أى أن ما يحسبه كثير من الباحثين نظاما صارما يتبعه الجاهليون والقدماء عموما فى بناء القصيدة لم يكن فى الحقيقة كذلك، بل كان يراعى فى بعض قصائد المديح وحسب، لكنه لا يقتصر عليها بل يشركها فى ذلك كثير من القصائد غير المدحجية أيضا كمعلقة امرئ القيس التى يتناول فيها مغامراته الالهية مع النساء ويصف الحصان والسحاب والسيل، وكمعلقة طرفة التى يستهلها بالوقوف على أطلال خولة رغم أنها ليست فى المديح ولا حتى فى الهجاء أو الرثاء أو أى موضوع من موضوعات الشعر التقليدية، بل فى التعبير عن التمرد على التقاليد والحيرة فى فهم الحياة، وكمعلقة عنترة بن شداد التى يفخر فيها بشجاعته وفروسيته أمام حبيبتة ويرسم صورة حانية لأذهمه الذى اشتكى له حر القتال وود لو يستطيع أن يرفع صوته بالكلام الواضح المبين كما يفعل البشر لولا عجزه عن التعبير اللغوى المقصور على أولئك البشر... وقد كان د. شوقى ضيف أكثر دقة وحذرا فى حديثه فى هذا السياق عن أسلوب الشعراء الجاهليين فى نظم قصائدهم، إذ قرر أنهم "كانوا يحرصون فى كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلى على أسلوب موروث فيها، إذ نراها تبدئ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدمن ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر فى الصحراء، وحينئذ يصف ناقته التى تملأ حسه ونفسه

وصفا دقيقا فيه حدق ومهارة، ثم يخرج من ذلك إلى الموضوع المعين من مدح وهجاء أو غيرها. واستقرت تلك "الطريقة التقليدية" وثبتت أصولها في مطولاته الكبرى على مر العصور" (د. شوقي ضيف/ الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ ط8/ دار المعارف/ 18). فهو، كما نرى، يقول إنهم كانوا يفعلون ذلك في كثير من مطولاتهم لا فيها كلها ولا في المدائح منها فحسب. وهذا أقرب إلى الواقع (كما أشرنا قبل قليل) مما جاء في نص ابن قتيبة آنفا، هذا النص الذي فهمه نيكلسون على حرفيته فأساء الفهم والتقدير، إذ كتب زاعما أن الشاعر الجاهلي لم يكن أمامه أى اختيار فيما يخص النظام الموسيقى للقصيدة العربية أو في اختيار موضوعاته وأسلوب معالجتها، ولم يكن يجروء من ثم على الخروج على شيء من ذلك، وإن عاد فاستثنى بعض الحالات من هذه "التقاليد الجامدة" على حد تعبيره (انظر كتابه: **A History of Arabic Literature**, PP.77-78).

ومن القضايا المتعلقة بالشعر الجاهلي كذلك ما قيل عن مكانة الشاعر في ذلك العصر، فقد ذكر ابن رشيق في "باب احتماء القبائل بشعرائها" من كتابه: "العمدة في محاسن الشعر وآدابه": "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنأها، وصُنعت الأُطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر

كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم، وذَبُّ عن أحسابهم، وتحليدٌ لمآثرهم، وإشادةً بذكرهم. وكانوا لا يهنتون إلا بغلامٍ يولد أو شاعرٍ ينبغ فيهم أو فرس تُنتج". وقد أخذ مؤرخو الأدب العربي يستشهدون بهذه العبارة على أنها أمر مفروغ منه وأن ما ورد فيها إنما كان يقع حرفياً. ومن هؤلاء جلال الدين السيوطي (المزهر في علوم اللغة والأدب/ القاهرة/ 1335هـ / 2 / 293)، وجرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية/ 83)، والشيخ أحمد الإسكندري والشيخ أحمد العناني (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه/ 59)، ورينولد نيكلسون (A History of Arabic Literature, P. 71)، وأحمد حسن الزيات (تاريخ الأدب العربي/ 44)، والسباعي بيومي (تاريخ الأدب العربي- في العصر الجاهلي/ مكتبة الأنجلو المصرية/ 142)، ود. علي الجندي (في تاريخ الشعر الجاهلي/ دار المعارف/ 274)، وك. أ. فارق (K. A. Fariq, History of Arabic Literature, Vikas Publications, Delhi- Bombay- Bangalore- Kanpur- London, P.43)... إلخ. على أي، رغم ذلك كله، لا أحسب أن هذا كان يقع حرفياً كما جاء في كلام ابن رشيق، بل المقصود أن العرب كانوا يتفاخرون بشعرائهم كما يتفاخر أي منا بما تمتاز به أسرته أو قريته أو مدينته أو جامعته أو وطنه

أو أمته، لا أن الحفلات كانت تقام فعلا ويلعب النساء بالآلات الموسيقية وما إلى ذلك، إذ لم يقابلنا خبر واحد عن قبيلة معينة احتفلت بأحد شعرائها على هذا النحو، إنما هو كلام عام مرسل، علاوة على أن أحدا لم يقل هذا القول قبل ابن رشيق، وهو متأخر، إذ هو من أهل القرن الرابع الهجري، فأين كان ذلك الكلام قبله؟ لقد كانت مكانة الشاعر الجاهلي بين قبيلته مكانة كبيرة بلا شك، وهذا كل ما أفهمه من نص ابن رشيق لا أكثر، إذ كان هو الخامي عن أعراضها والمذيع لمفاخرها والمالي وقت فراغها بما ينشدها من شعر معجب يسليها ويمتعها والخرق لمشاعرها والعاذف على أوتار قلبها والمعزّي لها في أوقات الملل والمثير لحماستها عند الحروب والمُشعل نار الانتقام في نفوسها... وهكذا، وإن لم يعن هذا أن الشعراء جميعا كانوا يفعلون كل ذلك، وفي كل الظروف والأوقات، بل كان هناك شعراء لا يتغنّون إلا بما يجدونه في قلوبهم بوصفهم أفرادا في دنيا البشر لا أعضاء في قبيلة معينة، كما كان هناك أيضا شعراء متمردون يشذون عن قبيلتهم فتخلعهم كما هو الشأن مثلا في شعراء الصعاليك. هذا ما أفهمه من كلام ابن رشيق، أما الاحتفال بنبوغ الشعراء في العصر الجاهلي فلا أدري كيف يمكن تحديد الوقت الذي ينبغ فيه شاعر ما: أبول شعر يقوله؟ لكن هذا ليس ما يُفهم من كلمة "نبوغ"! أم يكون

بانتشار شهرته؟ لكن أمن الممكن تحديد وقت معين لذلك؟ أم يرجع الأمر إلى لجنة تعلن أنه بلغ النبوغ الشعري؟ لكن متى كان الجاهليون يعرفون نظاما كهذا؟ الواقع أننا كيفما قلنا تلك العبارة فلن نصل منها إلى شيء محدد يريح البال. ولهذا كله أرى أن المقصود بها هو معناها الرمزي الذي أشرت إليه آنفا، وهو أن الشاعر الجاهلي كان بوجه عام ذا مكانة عالية بين قومه للأسباب التي ذكرناها.

أما قول نيلدكه إن الشاعر الجاهلي كان "نبي قبيلته وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب، تَطْلُبُ الرأى عنده في البحث عن مَرَاغٍ جديدة، وبكلمته وحدها تُضْرَبُ الخيام وتُحَلَّ، كما كان يجدو الرحالة العطاش في التنقيب عن الماء" (انظر حنا الفاخوري/ تاريخ الأدب العربي/ 59) فكلام غير صحيح، إذ ها هم أولاء شعراء الجاهلية بين أيدينا، وقد قرأنا أشعارهم وتراجهم فلم نجد شيئا مما يزعمه نيلدكه. إنما كانت قيادة القبيلة لشيخها، فإن تصادف أن كان شاعرا فيها ونِعِمَتْ كما هو الوضع في حال كُليب بن ربيعة والفند الزماني وعمرو بن كلثوم وأحيحة بن الجلاح ودريد بن الصمة، وإلا فالشاعر فرد من أفراد القبيلة يسمع ما انتهى إليه قرارها ويلتزم به كما يلتزم غيره، مع رعاية مكانته المتميزة كما قلنا. وإلا فقد كان عنترة شاعرا، وشاعرا كبيرا، فهل كان قبيلته تتبع خطاه وترى ما يراه؟ كما كان طرفة أيضا شاعرا، ولم تكن قبيلته تعيره أدنى اهتمام من جهة الرياسة

والرأى، إذ كان شابا لاهيا عابثا يصطدم بها ولا ينسجم مع أوضاعها حتى ليمَ على تمرده لوما شديدا سجله هو نفسه في معلقته. ولدينا الأعشى وزهير والنابعة وحسان، وغيرهم كثيرون من شعراء الجاهلية، ولم نقرأ أن أيا منهم كان سيد قبيلته يوما. ثم لقد كان هناك شعراء رحالة ينتجعون الممدوحين، فهل كان على قبائلهم إذا ما ألتت بها مُلِمَّةٌ أن تنتظرهم حتى يؤوبوا من أسفارهم فيشيروا عليها بما ينبغي أن تصنعه؟ كما أن القبيلة الواحدة كثيرا ما كان لها أكثر من شاعر، فمن منهم يا ترى كان هو السيد المطاع الذي تأخذ برأيه وتنصاع لمشورته؟ أم هل كان لكل قبيلة شيوخٌ عدَّة؟ وما القول في الشعراء المتمردين على قبائلهم؟ أكانت تلك القبائل تتخذ منهم شيوخا لها رغم ذلك؟ وأخيرا متى كانت الموهبة الشعرية والشخصية الحكيمة المهيبة التي تعنو لها رقاب الآخرين صُنُويْن متلازمين حتى يكون كل شاعر جاهلي سيدا لقبيلته بالضرورة؟ ألا ما أكثر ما يشيع في دنيا الأدب العربي من مقولات (وبخاصة ما كان منها صادرا عن المستشرقين) إذا ما تحراها الدارس أو وقف إزاءها وقفه المتسائل فسرعان ما ينكشف زيفها وما فيها من مجافاة للمنطق ووقائع الحياة!

القصص

ينقل د. أحمد أمين في كتابه: "فجر الإسلام" (ط12/ مكتبة النهضة المصرية/ 1978م/ 36) عن المستشرق البريطاني ديلاسي أوليري (De Lacy O'Leary) في كتابه: "Arabia Before Muhammad" أن العربي ضعيف الخيال جامد العواطف، لكنه يعقب على ذلك بأن الناظر في شعر العرب، وإن كان لا يرى فيه أثرا للشعر القصصي أو التمثيلي أو الملاحم الطويلة التي تُشيد بذكر مفاخر الأمة كـ"إلياذة" هوميروس و"شاهنامة" الفردوسي، يلاحظ رغم ذلك براعة الشاعر العربي في فن الفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز، وهو مظهر من مظاهر الخيال. كما أن بكاء ذلك الشاعر للأطلال والديار، وذكره للأيام والحوادث، ووصفه لشعوره ووجدانه، وتصويره لالتياحه وهيامه، كل ذلك دليل على تمتعه بالعواطف الحية. ويردد أحمد حسن الزيات شيئاً قريباً مما نقله أحمد أمين عن أوليري، وإن اختلفت مسوغاته، إذ من رأيه أن مزاوله هذا

الفن تقتضى الرويّة والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، كما تتطلب الإمام بطبائع الناس، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، فضلا عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أنهم أشد الناس اختصارًا للقول، وأقلهم تعمقًا في البحث، مع قلة تعرضهم للأسفار البعيدة، والأخطار الشديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع النشر، والنشر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النشر، وفكّر في تدوين شيء من القصص (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربي/ 31، 393).

بيد أن عددا من كبار النقاد ومؤرخي الأدب عندنا تولّى تنفيذ هذه التهمة المتسرعة: ومن هؤلاء الدكاترة زكى مبارك، الذى أكد أن العرب "كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون" (د. زكى مبارك/ النشر الفني فى القرن الرابع/ دار الكتب المصرية/ 1934م/ 1/ 197). كما رد عمر الدسوقي باستفاضة فى كتابه: "فى الأدب العربى الحديث" (مطبعة الرسالة/ 1948م/ 331-347) على هذه الفريضة العنصرية وأدحضها على أساس علمى وفلسفى مبينا أن ما كتبه العرب

وما ترجموه من قصصٍ في القديم والحديث ينبئ بجلاء عما يتمتعون به من خيال ومهارة فنية في هذا السبيل. بل يذهب أحمد أمين أيضا إلى أنه كانت هناك صلة بين عرب الجاهلية وآداب غيرهم من الأمم كالإغريق والفرس تمثلت في أنهم أخذوا بعض القصص فاحتفظوا به يروونه ويتسامرون به على الحال التي نقلوه عليها دون تبديل، أو صاغوه في قالب يتفوق وذوقهم، علاوة على قصصهم الأصيل الذي لم يأخذوه عن غيرهم مما نجده في "أيام العرب" وما يسميه بـ"أحاديث الهوى" (انظر د. أحمد أمين/ فجر الإسلام/ 66-68).

ويقول محمود تيمور في كتابه: "محاضرات في القصص في أدب العرب: ماضيه وحاضره" (معهد الدراسات العربية العالية/ القاهرة/ 1958م/ 26): "سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربي أن فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نُصَبَ أعيننا القصةَ الغربيةَ في صياغتها الخاصة بها وإطارها المرسوم لها ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها في أدبنا العربي فإذا هو خلُوهُ منها أو يكاد. وشَدَّ ما أخطأنا في هذا الوزن والقياس، فلأدب العربي قَصَصٌ ذو صِبْغَةٍ خاصَةٍ به وإطارٍ مرسومٍ له، وهو يصور نفسية المجتمع العربي وخلالها فلا يقصّر في التصوير. وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضآحة، وكأننا لم نفقد في مجتمعنا العربي حتى اليوم ما

يكشف عنه ذلك القَصَص من ملامحَ وسماتِ على الرغم من تعاقب العصور وتداول الآماد. وهو في جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التي هي جوهر القَصَص الفنى، وإن تباينت الصياغة واختلف الإطار". ومن الطريف أن تيمور كان يرى عكس هذا الرأى قبلا زاعما أن البيئات الصحراوية ينقصها الخيال وأن ما تركه لنا العرب في هذا الميدان شىء ضئيل لا قيمة له، وإن صَنَّف هذا التراث رغم ذلك إلى قَصَصٍ عاطفى وقَصَصٍ حربىٍّ وبطولىٍّ وقَصَصٍ علمىٍّ فلسفىٍّ (انظر محمود تيمور/ نشوء القصة وتطورها/ المجلة الجديدة/ سبتمبر 1936م/ 52، 54-56، 61، ومقدمته لجموعة "الشيخ سيد العبيط"/ المطبعة السلفية/ القاهرة/ 1926م/ 41).

وفي ذات السياق يبدى محمد مفيد الشوباشى استنكاره من أنه "لا يزال بيننا أناس ينكرون على العرب كل ميزة حضارية وينظرون بعين الاستهانة والازدراء إلى آياهم الباهرة في ميادين الأدب والفن والعلم. وقد شملت استهانتهم وزرايتهم، فيما شملنا، القصة العربية القديمة! وسَنَدُهم في هذا أن قِصَص العرب كانت إما أخبارا أو حكايات أو شعرا روائيا، فهي لا تشبه القصة الحديثة التى نعرفها بحال، وعلى ذلك لا تستحق أن تسمى: قِصَصًا" (محمد مفيد الشوباشى/ القصة العربية القديمة/ سلسلة "المكتبة الثقافية"/ إبريل

1964م/3). وبحقّ يقرر د. محمد حسين هيكل أن فن القصص قد عرفته جميع الأمم القديمة والحديثة، وأن "القصة"، كما نعرفها اليوم، ليست إلا شكلا من الأشكال التي اتخذها هذا الفن على مدى تاريخه الطويل، وأن هذا الشكل سوف يتطور ولا شك في المستقبل إلى صور وألوان أخرى. أما بالنسبة إلى الأدب العربي القديم فهو يؤكد حُفُوله بالأعمال القصصية المعبرة عن أوضاع العصور التي ظهرت فيها وملايحها شعرا ونثرا (انظر د. محمد حسين هيكل/ ثورة الأدب/ ط3/ مكتبة النهضة المصرية/ 1965م/ 67-73. وانظر كذلك مقاله: "رأى في القصة العربية"/ الهلال/ أغسطس 1948م/ 116).

وبفيض د. محمود ذهني، على مدى عشرات الصفحات من كتابه: "القصة في الأدب العربي القديم"، في مناقشة دعوى افتقار الذهن العربي إلى الخيال وخلو أدبنا القديم من الفن القصصي، مقدما عددا من الأدلة العقلية والنصوصية: منها مثلا ما ورد في كتب التاريخ والحديث والتفسير من روايات عن النضر بن الحارث، الذي كان يحارب دعوة الرسول عليه السلام من خلال جلوسه مجلسه صلى الله عليه وسلم بين مشركي قريش وتلاوته عليهم حكايات الأكاكرة وقوادهم ورجال دولتهم بغية صرف قلوبهم عن الدين الجديد ومحاوله

تخليصهم من تأثير كتابه المعجز. ومنها ورود كلمات "قَصَّ" و"يُقَصِّ" و"قصة" و"قَصَص" في لغة العرب وكتابهم مما يدل على معرفتهم بهذا اللون من الأدب. ومنها ما يقوله المؤرخون من أنه كان معاوية رجال موكلون بالكتب التي تتحدث عن أخبار العرب وسياسات الملوك الماضين يقرؤونها عليه كل ليلة. ومنها امتلاء كتب الأدب العربي بالحكايات وال نوادر والقصص التي تدور حول عاداتهم وأحوال معيشتهم ومعاركهم وأساطيرهم، أو حول أخبار العجم وملوكهم وسيرتهم في رعاياهم، أو حول المغامرات والمكائد التي يجيهاها البشر بعضهم لبعض... إلخ (انظر كتابه: "القصة في الأدب العربي القديم"/ مكتبة الأنجلو المصرية/ 1973م/ 53-144). والواقع أن ما قاله د. ذهني صحيح مائة في المائة، فمن يرجع إلى كتب الأدب العربي القديم سوف يهوله المقدار الضخم للقِصَص التي تتضمنها تلك الكتب، وكثير منها يعود إلى العصر الجاهلي أبطالاً وموضوعاتٍ وتواريخ. ومن يُردُّ أن يتحقق من هذا يمكنه مثلاً النظر في كتاب "قصص العرب" لمحمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي بأجزائه الثلاثة، وهذا الكتاب يحتوي على مئات من القصص يخصّ العصرَ الجاهليَّ منها قدرٌ غير قليل، وإنْ لزم القول بأنه لا يتضمن مع ذلك جميع القصص العربية ولا معظمها بل عينات

منها فحَسَب، كما أنه لا يتعرض للقصص الطويلة بحال، بل يجتزئ بالقصص ذات الحجم الصغير، تلك القصص التي ينطبق على عدد غير قليل منها شرائط القصة القصيرة كما نعرفها الآن. وهذا مجرد مثال ليس إلا.

وعلى أساسٍ مما مر ينبغي أن نقرأ ما كتبه فاروق خورشيد من أن "العلماء مُجمِعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم. وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي تتناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم... وليس كتاب "الأغاني" هو المرجع الوحيد في هذا، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأمالي" و"صبح الأعشى" و"العقد الفريد" و"الشعر والشعراء" وكتب التراجم والطبقات بما لا يدع مجالاً للشك في أن الفن القصصي قد تناول الحياة الجاهلية في كل مظاهرها، إلا أن الدارسين المُحدَثين رفضوا بكل بساطة أن يعتبروا هذه القصص فناً ثرياً مميزاً له أصوله الجاهلية، واعتمدوا في هذا على أن كل هذه الكتب إنما دُوِّنت في العصر العباسي الذي يبعد بعداً زمنياً كبيراً عن العصر الجاهلي". ويمضي فاروق خورشيد مبيناً أن الذين قاموا بتدوين أخبار الجاهليين في العصر

العباسي قد اعتمدوا، إلى جانب الرواية والحفظ، على ما خلفته الجاهلية من كتابات ومدونات، إذ كان التدوين والكتّاب معروفين عند الجاهليين، "فقد يكون من المعقول" كما يقول "أن ينقل الراوي قصيدة شعر، أما أحداث تاريخ وحكاية حياة فهذه تحتاج إلى تدوين في نقلها" (فاروق خورشيد/ في الرواية العربية/ ط3/ دار الشروق/ 1403هـ — 1982م/ 27-28). بل إنه ليرى أن "الفن الجاهلي الأول كان هو القصة والرواية، أما ما عدا هذا من صور كالخطابة والسجع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة، ودرّسها أقرب إلى درّس اللغة منه إلى درّس الأدب" (المرجع السابق/ 74). ومن كلام خورشيد هذا نخرج بأن عرب الجاهلية لم يكونوا يعتمدون في حفظ قصصهم على الذاكرة فقط بل على الكتابة في المقام الأول.

فإذا جئنا إلى الدكتور شوقي ضيف وما أثبتته في كتاب "العصر الجاهلي" في هذا الصدد ألفيناه يؤكد أن عرب الجاهلية "كانوا يشغفون بالقصص شغفا شديداً، وساعدهم على هذا أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يُرْحَى الليلُ سدوله يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله: "كان وكان" حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث. وشباب

الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدّرات وراء الأحيية، كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة"، بيّد أنه يستمر قائلاً إنهم لم يكونوا يدونون قصصهم، بل يتناقلونه شفاهاً، إلى أن تم تدوينه فى العصر العباسى، ومن ثم لم يصلنا كما كان الجاهليون يروونه. وهذا نص كلامه: "ليس بين أيدينا شىء من أصول هذا القصص الذى كان يدور بينهم، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دونوا لنا ما انتهى إليهم منه. وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعناها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته" (العصر الجاهلى / 399). فعندنا إذن من يقول إن الجاهليين كانوا يدونون تاريخهم وقصصهم كتابة، ومن يقول إنهم لم يكونوا يصنعون شىء من ذلك. وصاحب هذا الرأى الأخير، وهو الدكتور شوقى ضيف، لا يكتفى بذلك بل يردّ ما جاء عن هشام بن محمد الكلبي من أنه رأى فى بيع الحيرة بعض مدوّناتٍ استخراج منها تاريخ العرب، لأنه متهم فى كثير مما يرويه على حدّ تعبيره. وهو ما لا يُعدّ دليلاً كافياً، إذ حتى لو كان هذا الاتهام صحيحاً فليس معناه أنه كان يكذب فى كل شىء ولا يقول الصدق أبداً، وبخاصة أن ما قاله عن مدوّنات الحيرة لا يدخل فى باب الخرافات التى لا يقبلها

العقل، فقد كان من العرب من يكتب حسبما هو معروف لنا جميعا، وبالذات في مملكة الحيرة التي كانت تتبع إمبراطورية الفُرس أصحاب الكتابة والسجلات والدواوين.

وقد أوردنا في الفصل الخاص بالشعر الجاهلي من هذا الكتاب أنه كان لدى ملوك الحيرة ديوان يضم أشعار فحول الجاهلية ومدائح من مدحهم من شعرائها، وهو يظاهر ما قاله ابن الكلبي ويعضده. أما قول الأستاذ الدكتور عقب ذلك إنه "حتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدونات لم يكن مكتوبا بالعربية، إنما كان مكتوبا بالسريانية، التي كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام" فهو مصادرة على المطلوب، إذ معنى كلامه هذا أن كلام ابن الكلبي ليس صحيحا لأنه ليس صحيحا. كيف؟ إنه، بعد أن يفترض أن ما قاله ذلك العالم المسلم صحيح، يعود فيقول إنه لا يمكن أن تكون الكتابات التي رآها عربية بل سريانية. وهو ما يفيد أنه لا يزال يكذب لأنه إنما كان يقصد أنه قرأ ذلك بالعربية، إذ لم يكن يعرف السريانية، وإلا لعرف ذلك عنه أو لقال إنه استعان في الاطلاع على ما فيها بمن يعرف السريانية. كما أن سياق الكلام يدل على أن المراد كتابات عربية. ومعنى هذا أنه يقول إنه قرأ الكتابات المذكورة بالعربية، على حين يقول واقع الأمر إنها كانت مكتوبة بالسريانية التي لم يكن يعرفها. أي أنه لم

يقرأها على هذا الاحتمال أيضا، وأنه قد كذب هنا كذلك! لكن هل يمكن أن يكون ما قاله د. شوقي في حق ابن الكلبي سليما؟ أما أنا فلست أستطيع أن أوافق أستاذي الذي أكن له كل الاحترام لأن الذي أعرفه أن مملكة الحيرة كانت مملكة عربية، فلماذا تتحدث مملكة كهذه بلسان السريان لا بلسان العرب؟ كما أن الشعراء العرب الكبار في الجاهلية كانوا يقصدون ملوكها ويمدحونهم أيضا بالعربية لا بالسريانية، والأستاذ الدكتور لا ينكر هذا بل يشته في كتبه التي تتعرض لشعر تلك الحقبة ككتابه الذي بين أيدينا وكتابه عن "الفن ومذهبه في الشعر العربي" مثلا. وفوق هذا فإن أسماء ملوكها أسماء عربية لا سريانية. أما إن ثبت مثلا (أقول: مثلا!) أن السريانية كانت تستعمل في بعض الطقوس الدينية فهذا شيء آخر غير ما نحن بصدده. إذن فلماذا يجب أن يكون القصص المذكور مكتوبا هو بالذات بالسريانية؟

وثمة خبر كذلك أورده المسعودي في "مروج الذهب" عن معاوية يدل على أنه كان هناك منذ خلافته على الأقل تدوين كتابي لما كان الجاهليون يروونه من قصص وحكايات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثم لم ينتظر حتى مجيء العصر العباسي كما يقول د. شوقي ضيف. وهذا هو النص المذكور، وقد ورد في سياق كلام المسعودي عن المنهج الذي كان

معاوية يتبعه في إنفاق ساعات يومه نهارا وليلا، وهو خاص بسماع العاهل الأموى أخبار العرب وأيامها في الجاهلية: "ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتهما وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتهما، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطُرفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكاييد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمرَّ بسمعه كلَّ ليلة جُمْلُ من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم". ولدينا أيضا كتاب "أخبار عبيد بن شريّة الجُرهميِّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذى سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عبيداً وقد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدوّن ذلك ويُنسب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد

المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصحّ عند كثير من الأخباريين من أخبار من وقد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عبيد بن شريّة وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب الأنساب. وكتاب عبيد بن شريّة متداول في أيدي الناس مشهور".

ترى هل بإمكاننا القول بأن تدوين القصص الجاهلى لم يتأخر به الزمن إلى عصر العباسيين على عكس ما يقول به د. شوقى ضيف؟ ذلك أننا هنا أمام دليل مكتوب يقول إن هذا التدوين قد بدأ منذ أول العصر الأموى، وإن كنا لا نستطيع الجزم على وجه اليقين كما صنع فاروق خورشيد بأن ذلك التدوين قد بدأ فى الجاهلية فعلا، بالضبط مثلما لا نستطيع الجزم بعكسه أيضا. لكن إلى أى مدى نستطيع القول بأن ما كتبه عبيد بن شريّة هو قصص جاهلى فعلا؟ إنه يتحدث مثلا عن قوم عاد وما أنزله الله بهم بسبب عصيانهم وكفرهم كما نقرأ فى القرآن الجيد، فهل كان الجاهليون يعرفون ما أورده القرآن فى هذا الصدد من تفصيلات زادتها القصة تفصيلات أخرى كثيرة لم ترد فى الكتاب الجيد؟ وهل كانوا يعرفون فى ذلك الصدد مثل التعبير التالى: "سبع ليال وثمانية أيام حسوما

حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية" حسبما ورد في كتاب عبيد، وهو تعبير قرآني ورد في سورة "الحاقة" عند رواية المولى سبحانه قصة هلاكهم؟ ومن ثمّ فهل نُعدّ ما تركه لنا عبيد قصصاً جاهلياً أضاف هو إليه تفصيلات إسلامية؟ أم هل نعدّه قصصاً إسلامياً تام الإسلامياً على أساس أن الجاهليين، وإن كانوا قد سمعوا بعباد، لم يكن عندهم علم بما وقع بهم تفصيلاً من مصائب جرّاء كفرهم وتمردهم؟ هذا أمر من الصعب البتّ فيه. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن القصص الجاهلي لم يكن نثراً فحسب، بل كان شعراً أيضاً. كما أن كثيراً من القصص العربي المأثور عن الجاهلية أو الذي يتخذ من الجاهلية موضوعاً له يختلط فيه الشعر والنثر، وليس نثراً صافياً.

وأول شيء نتعرض له الآن هو: ما مدى تطابق هذه النصوص القصصية مع ما تركه لنا الجاهليون من تلك النصوص؟ فأما النصوص القصصية الشعرية فيغلب على الظن أنها أقرب إلى ما تركه العرب فعلاً، على أساس أن الشعر سهل الحفظ بسبب ما يقوم عليه من تركيز ونغم موسيقي، اللهم إلا إذا ثبت أن ثمة تزييفاً أو تلاعباً في النص. وأما النصوص النثرية فحتى لو قبلنا ما تقوله بعض الروايات من أنه كان هناك قصص جاهلي مكتوب فإن هذا لا يسوغ أبداً إطلاقاً مثل ذلك القول وتعميمه على كل القصص، إذ كانت الكتابة في الجاهلية

محصورة في نطاق ضيق مما يستبعد الدارس معه التوسع في كتابة مثل تلك النصوص التي لا علاقة لها بالمعاهدات أو الرسائل الرسمية وما أشبه، وبخاصة إذا علمنا أن مواد الكتابة لدى العرب آنذاك كانت نادرة وبدائية في غالب الأمر. كذلك قد يقال إن الأسلوب الذي صيغت به تلك النصوص القصصية لا ينسجم بوجه عام مع ما نعرفه من النصوص الثرية الجاهلية على قلتها من خطبٍ وأمثالٍ وأسجاعٍ كهانٍ، بل ينسجم بالأحرى مع الكتابة العربية بعد تطورها في العصر العباسي الذي دقت فيه الأفكار ولانت فيه الأساليب ورقت وتلونت ووضح فيها روح التحضر، إلا أنه يمكن مع هذا الرد بأن أسلوب القصص بطبيعته أسلوب بسيط مناسب لا يعرف الوعورة ولا الاحتفال اللذين نجدهما في كثير من الأشعار والخطب الجاهلية أو غير الجاهلية. لكن إلى أي مدى ابتعدت تلك النصوص عن الروايات الأصلية التي كان يتداولها أهل الجاهلية؟ الواقع أنه يصعب جدا، بل يستحيل في الظروف الحالية القطع بشيء من هذا، وإن كنا نتصور أن الموضوعات قد بقيت كما هي أو ظلت قريبة مما كانت عليه في الأصل. أما سبب القطع بأن تلك النصوص قد نالها قدر من التحوير فذلك راجع إلى أنها نصوص ثرية لا تعلق بالذاكرة علقو الشعر، الذي رأينا في الفصل الخاص به أنه هو أيضا لم يسلم تماما من

التغييرات الراجعة إلى ما يعترى الذاكرة البشرية من ضعف أو التباس على الأقل. كما أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى بذل الجهد والاهتمام في حفظ النصوص القصصية مثلما هو الحال في القرآن الكريم، وكذلك حديث النبي عليه السلام ولكن بدرجة أقل، ولا كانت النصوص القصصية مسجوعة كمواعظ الحفء وأحاديث الكهان، أو قصيرة موقّعة كالأمثال. وفضلا عن هذا فإن القَصَصَ الجاهلي لا يرتبط بشخص بعينه قد أَلّفه على عكس الشعر الذي يُنسب، إلا في الشاذ النادر، إلى هذا الشخص أو ذاك، أما القِصَصُ فإنها في الأغلب نتاج جماعي، والجماعة لا تهتم بالتدقيق في حفظ إبداعها قدر اهتمام الأفراد ينتاجهم كما هو معروف. بل إنى لأؤكد أن القصاصين أنفسهم هم أول من أدخل التحويرات والتغييرات في تلك النصوص طبقا لما هو معروف من حكايتهم لها كل مرة بطريقة مختلفة قليلا أو كثيرا عن المرة السابقة بحكم ضعف الذاكرة البشرية والحالة النفسية التي يكونون عليها والجو الذي يحيط بهم أثناء قيامهم بعملية القص... إلخ. فإذا كان هذا هو حال المبدع نفسه، فما بالنا براوى هذا الإبداع؟ ويبقى البناء الفني لهذا القصاص الجاهلي، ولا أظننا بقادرين على البت في السؤال الخاص بمدى بقاء ما وصلنا من قصص جاهلي على حالته الفنية التي خَلّفها لنا قِصَّاصُ الجاهلية. ذلك أننا لا نملك أى

مستندات كتابية تصور لنا ما لحقه من تطور رغم ما قيل من أنه كانت هناك بعض الوثائق القصصية المكتوبة التي تركها لنا الجاهليون في هذا الفن يوما، إذ العبرة بما في اليد الآن لا بما كان في أيدي القدماء.

والآن إلى الموضوعات التي تناولتها القصة الجاهلية. ولسوف نسترشد بما اشتمل عليه كتاب "قَصص العرب" الذي سلفت الإشارة إليه على رغم علمنا بأنه لا يقتصر على القصص الجاهلي وحده. ذلك أن ما يصدق على قصص العرب في الإسلام من هذه الناحية يصدق أيضا بوجه عام على قصصهم قبله، اللهم إلا ما كان مختصا بهذا أو ذاك دون قسيمه، وهو أمر من السهل معرفته في معظم الأحيان لأول وهلة. ومن ينظر في فهرس الكتاب الذي نحن بصدده يجد أن أصحابه قد قسموا القصص العربية إلى: قِصصٍ تستبين بها مظاهرُ حياتهم وأسبابُ مدنيّتهم بذكر أسواقهم وأجلاّب تجارهم والمساكن التي كانت تؤويهم وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل العيش، وقِصصٍ تتضمن معتقداتهم وأخبار كهانهم وكواهنهم وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث والدار الآخرة وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان وتعهدا بألوان الزُّلْفى والقربان، وقِصص تجلّو علومهم ومعارفهم وتوضّح منها ثقافتهم وما كان متداولا

بينهم من مسائل العقل والنقل التي هدتهم إليها فطرتهم أو أهنتها إليهم تجاربهم، وقصص يُرى منها ما كانوا يتغنون به من المكارم والمفاخر وما كانوا يتذمّمون به من المناقص والمعرات سواء أكان ذلك يتصل بكل منهم في نفسه أم فيما يتصل بالأقربين من ذويه أم فيما يضم أهل قبيلته أم فيما يشمل الناس جميعاً، وقصص تعدد غرائزهم وخصالهم فتكشف ما طُبعوا عليه من وفرة العقل وحدة الذكاء وصدق الفراسة وقوة النفس وما أهلتهم له طبيعة بلادهم وأسلوب حياتهم من شريف السجايا ومدوح الخصال، وقصص تشرح ما أثار عنهم من عادات وشمائل في الأسباب الدائرة بينهم وتبين ما انتهجوه في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل، وقصص تمثل أحوال المرأة العربية وما تجرى عليه في تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها ومعانتها له في الحياتين الاجتماعية والمدنية بالسعى في سبيل الرزق والاشتراك في خوض معامع الحروب والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة في ذلك العهد، وقصص تمثل ذلاقة لسانهم وحكمة منطقتهم وما ينضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى وجمال الأسلوب وحسن التصرف في الإبانة والتعبير، وقصص تُسرّد بارع مُلحهم ورائع طُرفهم في جواباتهم المُسكّنة وتصرفاتهم الحكيمة وتخلصاتهم اللبقة مما يدل على حضور

الذهن وسرعة البديهة وشدة العارضة، وقصص تعرب عما يقع بين العامة والملوك والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم من كل ذى صلة بالحكم والحكام مما يتناول حيلهم في المنازعات والخصومات ويوضح طرائقهم في رفع الظلمات ورجع الحقوق وما يجرى هذا الجرى، وقصص تصور احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم وتمجيدهم للأسلاف وتعديدهم ما تركوا من مآثر وما أدى إليه ذلك من مفاخر ومنافرات، وقصص تنقل ما كانوا يتفكحون به من أسمار ومطايبات ومناقشات وأفأكيه مما نال به المحدثون والندماء سنيّ الجوائز والخلع من الخلفاء والوزراء وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجوه في المجتمعات والمنتديات، وقصص تؤرخ مذكور أيامهم وتفصل مشهور وقائعهم ومقتل كبرائهم وتصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم أخذًا بالشر وحماية للذمار، وقصص تحكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث في الغارات والغزوات والفتوح مصورةً نفسياتهم وأحوالهم واصفةً تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفساح رقعتها مفصلةً عُددهم وآلاتهم وأسلحتهم في حياتهم الجديدة. ومن الواضح مثلا أن العناوين التي يرد فيها ذكر الخلفاء أو الوزراء أو الدولة العربية وحياتهم الجديدة هي من القصص التي تنتمي إلى تاريخهم الإسلامي لا الجاهلي. ومن الواضح أيضا أن

واضعى الكتاب قد ركزوا فى تلك العناوين على الجوانب الطيبة فى الشخصية العربية تعصبا منهم للعرب، وكأن العرب كانوا بلا عيوب، وهو ما يكذبه الواقع ومنطق الحياة، بل يكذبه قبل ذلك كله ما نقرؤه فى تلك القصص نفسها التى بين أيدينا، وإن كنا نتفهم الدوافع التى حَدَتْ بالمؤلفين إلى انتهاج تلك الخطة، إذ كانوا يروّون الهجوم الظالم الذى يشنه على أمة العرب أعداؤها الخارجيون وأذناهم من بين أظهرنا فى الداخل، فأرادوا أن يقولوا إن العرب لم يكونوا يوما بهذا السوء الذى يصورهم به هؤلاء وهؤلاء، بل كانت لهم دائما حسناتهم الباهرة وإنجازاتهم الرائعة المعجبة التى يضارعون بها كثيرا من الأمم الأخرى، إن لم يتفوقوا فيها عليهم.

وقد رجع واضعو الكتاب إلى عشرات الكتب التراثية كى ينقلوا منها ما ضمّوه كتابهم من قصص. والناظر فى عناوين المراجع والمصادر المذكورة فى فهرس ذلك الكتاب يجد أن بعض تلك الكتب تاريخى، وبعضها أدبى، وبعضها قصصى، وبعضها يتعلق بسيرة هذا الشخص أو ذاك، وبعضها من كتب الأملى، وبعضها من الكتب التى تشرح الأمثال، وبعضها من كتب الموسوعات، وبعضها من كتب الطرائف، وبعضها من دواوين الشعر ومجموعاته وشروحه، وبعضها من كتب التراجم العامة أو الخاصة، وبعضها من كتب السياسة، وبعضها من

كتب الشواهد اللغوية... إلخ. ولعل من المستحسن أن نورد هنا بعض أسماء تلك الكتب: فمنها مثلاً "أخبار الأذكياء" لابن الجوزى، و"الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، و"الأمالي" للشريف الرضى، و"الأوراق" للصُّولى، و"بلاغات النساء" لأحمد بن أبي طاهر، و"جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد الخطابي، و"الحيوان" للجاحظ، و"زهر الآداب" للحصرى، و"صبح الأعشى" للقلقشندي، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"الكامل فى الأدب" للمبرّد، و"الكامل فى التاريخ" لابن الأثير، و"الحاسن والمساوى" للبيهقى، و"المستطرف من كل فن مستظرف" للأبشيهى، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموى، و"نقائض جريير والفرزدق" لأبى عبيدة، و"نهاية الأرب" للنويرى... وهلمَّ جرّاً.

والآن إلى شواهد من القصص الجاهلى الذى أوردته لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: ونبدأ بقصيدتى تابطَ شراً فى لقائه بالغول حيث يتحدث عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدّق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول واحداً من الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تابطَ شراً توهم رؤية الغول فعلاً ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحاييش، أو يكون قد اخترع القصة كلها اختراعاً، وقد...، وقد... إلا أن الأبيات مع ذلك تصور اعتقاداً كان سائداً بين الجاهليين كما ذكرنا، أو فنقل:

إنهما تصور خرافة من خرافاتهم. ومعروف أن أهل الريف في بلادنا إلى وقت قريب كانوا هم أيضا يؤمنون بالغول، وأذكر أنني كنت في طفولتي أرتعب من ذكر تلك الغول، إذ كان اعتقادنا أنهما تنبش القبور وتأكل جثث الموتى، فكانت أتخيلني وقد ميتّ ووُسدتُ الثرى في القبر وتركني أهلي ومضوا إلى بيوتهم لتنفرد بي الغول في الظلام تأكل لحمي أكلا وتنهش عظامي نهشا، وأنا من العجز في حالة تامة! وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الاعتقاد قد تقلص إلى حد بعيد ولم أعد أسمع بشيء من ذلك مع انتشار التعليم ودخول الكهرباء القرية. وربما كان تكرر حديث شاعرنا في قصيدتين على الأقل عن الغول راجعا إلى أنه كان كثيرا ما يجوب الصحراء في الظلام الدامس وحيدا، إذ كان صعلوكا متمردا لا يأوى إلى المجتمعات، بل كان يشكل، مع أمثاله من الصعاليك المتمردين، عصابات لقطع الطريق، فكانت حياتهم قلقا وخوفا وتشردا مستمرا. فإذا أضفنا الجهل الذي كان سائدا آنذاك في المجتمع العربي تبين لنا أن انتشار مثل تلك الخرافة بين الجاهليين أمر طبيعي تماما، وبخاصة في ظروف شخص كتابتُ شراً.

وقد تكرر ذكر "الغول" في شعر العرب قبل الإسلام بما يدل على أن هذه الخرافة كانت تسكن عقول الجاهليين كما قلنا: فمن ذلك قول طارقة الشاعرة الجاهلية، حين اقترن

زوجها بامرأة أخرى، إنه قد اتخذ بدلا منها "هوجاء مقاء كشيبه الغول". ومنه قول امرئ القيس تمكما بغريم له كان يهدده بالقتل:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ؟

وقول زهير بن أبي سلمى يصف ناقته:

تُبَادِرُ أَعْوَالَ الْعَشِيِّ وَتَتَّقِي غَلَالََةَ مَلُويٍّ مِنَ الْقِدِّ مُحْصَدِ

والآن إلى القصيدتين اللتين قص فيهما تآبطاً شراً حكايته مع الغول، وفيهما يتبدى قصاصا بارع التصوير والتشويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بطلنى قصته في اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله في القصيدة الأولى من الفعل الماضى إلى التعبير بالفعل المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أمورا مضت وانقضت، كما في قوله: "فشدت... فأهوى لها كفى... فأضربها... فخرت":

أَلَا مَنْ مَبْلُغٌ فَيَّانَ فَهَمِّ	بِمَا لَأَقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بَطَّانِ
بَأْنِي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوِي	بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا: كِلَانَا نَضُو أَيْنِ	أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى	لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولِ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهَشٍ فَخَرَّتْ	صَرِيْعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ
فَقَالَتْ: عُدْ، فَقُلْتُ لَهَا: رُوَيْدًا	مَكَانِكَ إِنِّي ثَبْتُ الْجَنَانِ
فَلَمْ أَنْفَكْ مُتَكِنًا عَلَيْهَا	لَأَنْظُرَ مُصْبِحًا مَاذَا أَتَانِي

كَرَأْسِ الْهَرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَتَوْبٍ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شِنَانِ؟

إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسٍ قَبِيحِ
وَسَاقًا مُخْدَجٍ وَشَوَاةً كَلْبِ

كَمَا اجْتَابَتِ الْكَاعِبُ الْخَيْعَلَا
وَمَزَقَ جَلْبَابَهُ الْأَلْيَلَا
فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلَا
فَيَا جَارَتَا، أَتِ مَا أَهْوَلَا
بِوَجْهِ تَهَوَّلَ فَاسْتَعْوَلَا
فَوَلَّتْ، فَكُنْتُ لَهَا أَعْوَلَا
نَ ذُو سَفَاسِقٍ قَدْ أَحْلَقَ الْمِحْمَلَا
فَحَدَّ وَكَمْ أُرِهِ صَيْقَلَا
نِ مِنْ وَرَقِ الطَّلْحِ لَمْ تُغْزَلَا
فِيَانَّ لَهَا بِاللَّوَى مِنْزَلَا

وَأَدْهَمَ قَدْ جُبْتُ جَلْبَابَهُ
إِلَى أَنْ حَدَا الصُّبْحُ أَتْنَاءَهُ
عَلَى شَيْمِ نَارٍ تَنَوَّرَتْهَا
فَأَصْبَحْتُ وَالْعُوقُ لِي جَارَةٌ
وَطَالَبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَوْتُ
فَقُلْتُ لَهَا: يَا انظري كي تَرِي
فَطَارَ بِقَحْفِ ابْنَةِ الْجَمَلَا
إِذَا كَلَّ أَمْهَيْتُهُ بِالصَّفَا
عِظَاءَةً قَفَّرَ لَهَا حُلَّتَا
فَمَنْ سَالَ: أَيْنَ ثَوْتُ جَارَتِي؟

وأما الشاهد الثاني فمن شعر للنابغة الذبياني يصف فيه مطاردة الكلاب للشور الوحشي حين يطلقها صاحبها عليه أثناء اصطياده لها. ومثل تلك القصة التي تتكرر كثيرا في الشعر الجاهلي تدل على شيوع صيد الشور الوحشي في بلاد العرب قبل الإسلام. والأبيات مأخوذة من معلقة الشاعر المشهورة، ولا ينبغي أن يفوتنا ما تتميز به تلك الأبيات من وصف مفعم بالحيوية والدقة في التشبيه والتنبه للتفصيلات الموحية. ولا بد من التنبيه ثانية إلى أن القصة التي نحن بصدد الكلام عنها لا

تستقل بقصيدة كاملة، بل تشكل فقط جزءاً من قصيدة أكبر،
شأنها في ذلك كشأن أغلب القصص الجاهلي الشعرى:

يومَ الجليلِ على مُستأنسٍ وحيدٍ	كأنَّ رَحلي، وقد زالَ التهَارُ بنا
طاوي المصيرِ كسيفِ الصَّيقلِ الفَرْدِ	من وحشٍ وجرةٍ موشيٍّ أكارعه
تُزجي الشَّمالُ عليه جامدَ البَرْدِ	سرتُ عليه من الجوزاءِ سارية
طوغَ الشَّوامتِ من خوفٍ ومن صرد	فارتاعَ من صوتِ كلابٍ فباتَ له
صُمعُ الكُعبِ بريناتٍ من الحَرْدِ	فبَتهنَّ عليه واستمرَّ به
طعنَ المَعاركِ عندَ المَحْجَرِ التَّجْدِ	وكان ضُمْرانُ منه حيثُ يُوزَعُه
طعنَ الميَطِرِ إذ يَشفي من العَضْدِ	شكَّ الفريسةَ بالمدري فأنفَذها
سَفودُ شَرِبِ نُسوةٍ عندَ مُفْئادِ	كأنه، خارجاً من جبٍ صَفَحته
في حالكِ اللونِ صدقٍ غيرِ ذي أودِ	فظلَّ يعجمُ أعلى الروقِ مُقبضاً
ولا سيبَلُ إلى عَقْلٍ ولا قَوْدِ	لما رأى واشقَّ إقصاصَ صاحبه
وإنَّ مولاكَ لم يسلمْ ولم يصدِ	قالت له النفسُ: إني لا أرى طمعاً

كذلك تصور الأبيات التالية، وهي لامرئ القيس، واقعة
من وقائع الصيد، إلا أن الفريسة هنا أرنبٌ برى لا ثورٌ
وحشى، ثم تنتهي بالحديث عن تناول الطعام بعد انتهاء المطاردة
بالنجاح، فهي إذن قصة من قصص القنص واللهو:

على ظَهْرٍ بازٍ في السَّماءِ محَلِّقِ	كَأنَّ غلامي إذ عَلا حَالَ مَتِيهِ
إليَّها وجَلاماً بِطَرَفِ مَلَقَلِقِ	رأى أرنباً فانقَضَ يَهوي أَمَامَهُ
فيذرك من أعلى القِطاة فتزَلِّقِ	فقلتُ له: صَوِّبْ ولا تَجْهَدْهُ
بجيدِ العُلامِ ذي القميصِ المُطَوِّقِ	فأدبرنَ كالجَزَعِ المِفْصَلِ بينه
كغيثِ العَشيِّ الأَقهَبِ المتودِّقِ	وأدرَكهُنَّ ثانياً مِن عَناهِ
عِداًءٌ ولمْ يَنْصَحْ بماءٍ فيَعْرِقِ	فصاد لنا عَيْراً وثوراً وخاضباً

وَوَظَلَّ غَلَامِي يُضْجِعُ الرُّمَحَ حَوْلَهُ لِكُلِّ مَهَاةٍ أَوْ لِأَحْقَبَ سَهْوَقٍ
 وَقَامَ طَوَالَ الشَّخْصِ إِذْ يَخْضِبُونَهُ قِيَامَ الْعَزِيمِزِ الْفَارِسِيِّ الْمُنْطَقِ
 فَقُلْنَا: أَلَا قَدْ كَانَ صَيْدًا لِقَانِصٍ فَجَبَّوْا عَلَيْنَا كُلَّ ثَوْبٍ مُزْوَقٍ
 وَوَضَلَّ صِحَابِي يَشْتَتُونَ بِنَعْمَةٍ يَصْفُونَ غَارًا بِاللِّكِيكِ الْمَوْشَقِ

أما الأبيات التي نحن مقبلون عليها الآن، وهى للملك الضليل أيضا، فتتوسع في الحديث عن نزوله هو وأصحابه في بعض الطريق بغية الأكل والاستراحة حيث نصبوا لأنفسهم ما يشبه الخيمة يستترون بها، ثم راحوا بعد ذلك يتناولون ما أعدوه من شواء لم يجدوا بدا حين انتهوا منه من مسح أيديهم في أعراف خيولهم لعدم وجود مناديل معهم. كذلك لم يفت الشاعر التلفت حوله وتسجيل ما كان يراه من حيوان وحشى يقف على مقربة منهم ويتطلع إليهم بعينونه التى تشبه حبات الجزع غير المثقوب كما يقول، والجزع حجر كريم تتخذ منه العقود التى تزين نحور الجميلات، وهو تشبيه عجيب. وهناك كلمة ليست شائعة الاستعمال فى الأدب العربى حتى فى القديم منه هى كلمة "نمّس"، ولها علوق بالقلب رغم ذلك. وهى قريبة من "نمس"، وإن لم يقتصر معناها على مجرد المس، بل تضم إليه أيضا معنى مسح اليد فى شىء خشن بغية إزالة ما علق بها من دسم. وهذه هى الأبيات:

وقلت لفتيان كرام: ألا انزلوا فعألوا علينا فضل ثوب مطب
 وأوتاده مازية، وعمّاده ردئية فيها أسنة فعضب

وأطنا به أشتان خوص نجائب
فلما دخلناه أصفنا ظهورنا
فضل لنا يوم لذيذ ونعمة
كان عيون الوحش حول خبائنا
نمش بأعراف الجياد أكفنا
إلى أن تروحننا بلا متعت
وصهوته من أنحمي مشرعب
إلى كل حاري جديد مشطب
فقل في مقيل نحسه متغيب
وأرخلنا الجزع الذي لم يتقب
إذا نحن قمنا عن شواء مضهب
عليه كسيد الردهة المتأوب
ونظل مع امرئ القيس في هوه، ولكن في غير ميدان القنص، أو

قل: إنه في ميدان القنص أيضا، إلا أنه قنص من نوع آخر، قنص المرأة لا قنص الحيوان. وفي الأبيات التي سنوردها من فورنا يروى لنا الشاعر، صدقا أو كذبا، بعض مغامراته في دنيا النساء حيث يتبدى شخصا عابثا فاجرا لا يرعوى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه من عدوان على الحرمات والأعراض حين يتسلل في جنح الليل البهيم إلى حيث اتعد مع إحدى صواحيبه في الخلاء، أو إلى حيث يقتحم على أخرى خباءها، وهي تناشده أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما يبدو، وإلا ما استجابت له رغم ذلك وتمادت معه فيما أرادها منها... إلخ. وهو في كل ذلك يصف حبيباته وصفا حيا عجيبا ويحكى ما وقع منهن ومنه غير متخرج من شيء، مؤردا كثيرا من التفاصيل الدالة التي تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهرا بمن لما مرّد عليه من استهتار، إذ كان ابن ملك لا يبالي بما يأتي أو يدع. وعجيب أنه، حين يصور ما يقع من النساء من تصرفات أو

ما يصدر عنهن من كلام، قادر على تقمصهن فكأن امرأة هي التي
تتكلم أمامنا أو تتصرف لا أننا نقرأ شعرا:

ويوم دخلتُ الحِذْرَ خدرَ عُيْبِرَةَ
تقولُ وقد مالَ القَيْطُ بنا معاً:
فقلتُ لها: سيري وأرْخي زَمَامَهُ
فمِنْبَلِكِ حُبْلِي قد طَرَقْتُ ومُرْضِعِ
إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفْتُ لَهُ
ويوماً على ظهر الكَيْبِ تعَدَّرْتُ
أفَاطِمُ، مهلاً بعضَ هذا التَدَلُّلِ
وإنْ تَكُ قد ساءتْكِ مني خَلِيقَةٌ
أَغْرَكَ مني أنْ حُبَّكَ قَاتِلِي
وما ذَرَقْتُ عَيْنَاكَ إلا لتَضْرِبِي
وبيضةِ خِدرٍ لا يُرامُ خباؤها
تجاوَزْتُ أحرَاساً إليها ومَعَشَرًا
إذا ما الشريا في السماء تعرضت
فجِئْتُ وقد نَصَّتْ لَنومِ ثيابِها
فقلت: يمين الله مالِكِ حيلةِ
خَرَجْتُ بها أمشي تجرُّ ورائِنا
فلما أجزنا ساحةَ الحَيِّ وانحنى
هصرتُ بِفؤدي رأسها فتمايلت
مُهْفَهْفَةً بيضاءَ غيرَ مُفاصَلةِ
كِبْكِرِ المَقاناةِ البياضِ بِصُفْرَةٍ

فقلت: لك الويلات إنك مُرجلي
عَقَرْتُ بعيري يا امرأ القيس، فانزل
ولا تُبعديني من جَنَّاك المَعْلَلِ
فألهيئها عن ذي ثَمَامِ مُحَمَّدِ
بشيق، وتحتي شقُّها لم يُحوِّلِ
عَلِيٍّ وآلتُ خَلْفَةَ لم تَحَلَّلِ
وإن كنتِ قد أزمعتِ صرْمِي فأججلي
فسُلي ثيابي من ثيابكِ تَنسُلِ
وأنتِ مهمما تأمري القلبِ يفعل؟
بسَهْمِيكِ في أعشارِ قَلْبِ مُقْتَلِ
تَمَتَّعتُ من لهُوِّها غيرَ مُعْجَلِ
عليَّ حِرَاصًا لو يُسِرُّونَ مقتلي
تعرُّضَ أُنثاءِ الوشاحِ المُفَصَّلِ
لدى السِّتْرِ إلا لِنِسَةِ المُتَقَصِّلِ
وما إن أرى عنك الغوايةَ تنجلي
على أتريننا ذَيْلَ مِرْطِ مُرْحَلِ
بنا بطنُ حَبْتِ ذِي حِقَافِ عَقْتَلِ
عليَّ هُضيمَ الكَشْحِ رَبِّا المَخْلَخَلِ
ترانِبِها مصقولة كالسَّجْنَجَلِ
غذاها نَميرُ المِماءِ غيرَ المَحْلَلِ

تصدّ وتُبدي عن أسيلٍ وتثقي
وجيد كجيد الرنم ليس بفاحش
وفرع يُعشّي المتن أسود فاحم
غدائره مستشزرات إلى العلى
وكشح لطيف كالجديل محصر
وتعطو برخص غير شثن كأنه
تضيء الظلام بالعشاء كأنها
وتضحى فيبت المسك فوق فراشها
إلى مثلها يرنو الحليم صيابة
تسلت عميات الرجال عن الصبا
ألا ربّ خصم فيك ألوى ردّدته
وتبقى الأبيات التالية، وهي لسلامة بن جندل، وفيها
يصور انتصار قومه على أعدائهم ساردا ما وقع لكل واحد من
كبار محاربي أولئك الأعداء: فمنهم من صرع في التراب،
ومنهم من نجّاه الفرار من الهلاك، إذ نالته طعنة كان من شأنها
أن تُردّيه قتيلا لولا أن أجله لم يكن بعد، ومنهم من وقع أسيرا
في أيديهم فاقتادوه إلى مضاربهم مكبلا بالأغلال تتفرج عليه
نساء القبيلة ويشمتن به وبقومه. وكما نرى فهو يطلعنا في كل
لوحة على صورة من صور تلك الهزيمة التي منى بها هؤلاء
الأعداء. والملاحظ أنها مجرد سرد ووصف لا حوار فيها ولا

بناظرة من وحش وجرة مطفل
إذا هي نصّته ولا بمعطل
أثيت كقنو النخلة المتعكل
تضل المداري في مثنى ومرسل
وساق كأنبوب السقى المذل
أساريع ظبي أو مساويك إسحل
منارة ممسى راهب متيّل
نؤوم الصّحى لم تتطّق عن تفضّل
إذا ما اسكرت بين درع ومجول
وليس صيبي عن هواها بمنسل
نصيح على تغذاله غير مؤتل

توسع في التفاصيل، إلا أن الروح القصصية ظاهرة فيها رغم ذلك:

فَأَيَّامُنَا عَنَّا تُجَلِّي وَتُعَرِّبُ	وَمَنْ كَانَ لَا تُعْتَدُ أَيَّامُهُ لَهُ
إِلَى حَيْثُ أَوْفَى صَوْتِيهِ مَثْقَبُ	جَعَلْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ كُنْتَلَةِ رَوْحَةٍ
صَرِيْعَا، وَأَطْرَافُ الْعَوَالِي تَصَبُّبُ	غِدَاةَ تَرَكَنَا فِي الْغَبَارِ ابْنَ جِحْدِرٍ
قِتَادَةٌ لَمَّا جَاءَنَا وَهُوَ يَطْلُبُ	لَقُوا مِثْلَ مَا لَاقَى اللَّجِيْمِيُّ قَبْلَهُ
بَأَخْبَثِ مَا يَأْتِي بِهِ مَتَأَوُّبُ	فَآبَ إِلَى حَجْرٍ، وَقَدْ فَضَّ جَمْعُهُ
إِلَى حَيْثُ سَاوَى أَنْفُهُ الْمَتَنَقَّبُ	وَقَدْ نَالَ حَدَّ السِّيفِ مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ
إِلَى أَهْلِنَا مَخْزُومَةٌ، وَهُوَ مُحَقَّبُ	وَجِشَامَةُ الذُّهْلِيِّ قَدْ وَسَجَتْ بِهِ
رِبَائِبُ مِنْ أَحْسَابِ شِيْبَانَ تَنْقَبُ	تَعْرِفُهُ وَسَطَ الْبُيُوتِ مُكَبَّلًا
يَمَانٍ إِذَا مَا خَالَطَ الْعَظْمَ مِخْدَبُ	وَهُوْذَةٌ نَجَّى بَعْدَ مَا مَالَ رَأْسُهُ
حِزَامٌ عَلَى ظَهْرِ الْأَغْرِّ وَقَيْبُ	فَأَمْسَكُهُ مِنْ بَعْدِ مَا مَالَ رَأْسُهُ
نِعَامٌ بِصَحْرَاءِ الْكُدَيْدِينَ هُرْبُ	غِدَاةَ كَانَ ابْنِي لَجِيمٍ وَيَشْكُرًا

وننتقل إلى القصة النثرى الجاهلي، وهأنذا أورد بعضاً من نماذجها الموثقة في كتب الأدب المختلفة، ونبدأ بكتاب "أخبار النساء" لابن الجوزي الذي نقرأ فيه القصة التالية، وهي قصة من قصص العشق والمؤامرات تتمتع بمستوى فني راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المنبئ عن طبيعة المتحدثين، وفيها النهاية التي تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة في نفس الآن. وهي ترينا أن الطبيعة البشرية، مهما يكن من علو

نفس صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التي قد تكون عيوباً مخيفة كما هو الحال في أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التي تخدع المحتال عليه وتوهمه أنها تبغى مصلحته، ليكتشف في النهاية بعد أن تقع الفأس في الرأس، أنه كان ضحية حيلة مزعجة حيكّت بمهارة شديدة فلم يتبين له ساعتها وجه الحق فيها. ولا ينبغي أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر في القصة، وإن اقتصر العنصر الشعري هنا على بيت واحد في النهاية. ولنلاحظ كيف رُوِيَت القصة كما كانت تُروى الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية وكثير من حكايات العرب وأقوالهم، وذلك باتباع أسلوب العننعة، إذ بدأت على النحو التالي: "حكى الهيثم بن عديّ عن الكلبيّ قال: كان مُلك التّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم يُرَ منه في مُلكه سقطة غير هذه: وذلك أنّه ركب يوماً فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيتها، فقال: عليّ بعديّ بن زيد، وكان كاتبه وخاصته. فقال له: يا عديّ، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إثم هو الموت. فلا بدّ في أن تتلطّف في الجمع بيّني وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألتُ عنها فقيّل لي: امرأة حَكَم بن عوف، رجلٌ من أشرف أهل الحيرة. قال: فهل أعلّمتَ بذلك أحداً؟ قال: لا. قال: فاكتمه. فإذا أصبحت

فجُدَّ بكلِّ كرامةٍ لنزيبك. يريد حَكَمَ بن عوف. فلمَّا أُذِنَ للنَّاسِ بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سريرِهِ، فأعجَب النَّاسَ حالُهُ وتحدَّثوا به. فلمَّا أمسى فأذِنَ للنَّاسِ بدأ به فأكرمه وأجلسه معه وكساه وجملته، ففعل به ذلك أَيَّامًا. ثمَّ قال له عدي: أَيُّها الملك، عندك عشر نسوةٍ، فطلِّقْ أَقْلَهِنَّ عنك مترلةً ثمَّ قل له: فليتزوّجها. ففعل، فلمَّا دخل عليه قال له: يا حكم، إني قد طلّقت فلانةً لك فتزوّجها. فقال حكم لعدي: ما صنع الملك بأحد ما صنع بي، ولا أدري بم أكافئه. فقال له عدي: طلِّق امرأتك كما طلّق امرأته. ففعل، وحظيَّ عدي بها عند الملك، وعلم الرّجل أنّه مكرّ به في امرأته. وفيها يقول بعض أهل الحيرة:

ما في البريّة من أنثى تعادها إلاّ التي أخذ النّعمان من حَكَمٍ
 أما القصة التالية، وهي مأخوذة من كتاب "الأغاني" لأبي
 الفرج الأصفهاني، فبطلها كُليب بن ربيعة، وهو شيخ قبيلة
 مستبد لا يبالي بكرامة أحد ولا بحقوقه، بل يعامل الجميع
 بعسْفٍ وتعالٍ واحتقار لا يُعفى أحدا من ذلك ولو كان صهرا
 له، مما أدى في النهاية إلى أن قتله أخو زوجته واضعًا بذلك
 أحته في كرب عظيم، إذ كانت بين نارين: نار الحزن على مقتل
 زوجها، ونار الخوف من انتقام أهله من أخيها. يقول أبو الفرج
 في ذلك:

"وكان السبب في قتل كليب بن ربيعة... أن كُليِّا كان قد عزَّ وساد في ربيعة فَبَغَى بَعِيًّا شَدِيدًا. وكان هو الذي يُنَزِّههم منازلهم ويرحِّلهم، ولا يتزلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عزه وبَغِيه أنه اتخذ جَرُوكلب، فكان إذا نزل منزلاً به كلاً قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلاً إلا بإذنه. وكان يفعل هذا بجياض الماء فلا يرُدُّها أحد إلا بإذنه أو مَنْ آذَنَ بحرب، فضُرِبَ به المثل في العز فقيل: أعزَّ من كُليِّب وائل. وكان يحمي الصيد ويقول: صيد ناحية كذا وكذا في جوارى، فلا يصيد أحد منه شيئاً. وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يجتبي أحد في مجلسه غيره، فقتله جساس بن مرة... وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بكُريٍّ ولا تَغْلِيٍّ أجار رجلاً ولا بعيراً إلا بإذنه، ولا يحمي حمى إلا بأمره، وكان إذا حمى حمى لا يُقَرَّب. وكان لمُرَّة بن ذُهَل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جساس أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب. وخالة جساس البَسُوسُ، فجاءت فترلت على ابن أختها جساس فكانت جارةً لبني مُرَّة، ومعها ابن لها، ولهم ناقاة خوارة من نَعَم بني سعد، ومعها فصيل. أخبرني علي بن سليمان قال: قال أبو برزة: وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبه أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربياً أمنع مني ذمّة؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة

فَقَالَتْ: نَعَمْ أَحِي جَسَاسٌ وَنَدْمَانُهُ ابْنُ عَمِّهِ عَمْرُو الْمَزْدَلِفِيُّ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ ذُهَلٍ بْنِ شَيْبَانَ. وَزَعَمَ مَقَاتِلُ أَنَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ أُخْتِ جَسَاسٍ. فَبَيْنَا هِيَ تَغْسِلُ رَأْسَ كَلِيبٍ وَتَسْرَحُهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ قَالَ: مَنْ أَعَزُّ وَائِلٌ؟ فَصَمْتَتْ، فَأَعَادَ عَلَيْهَا. فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهَا قَالَتْ: أَخَوَايَ جَسَاسٌ وَهَمَامٌ! فَتَرَعَ رَأْسَهُ مِنْ يَدَيْهَا وَأَخَذَ الْقَوْسَ فَرَمَى فَصِيلَ نَاقَةِ الْبَسُوسِ خَالَةَ جَسَاسٍ وَجَارَةَ بَنِي مُرَّةٍ فَقَتَلَهُ، فَأَغْمَضُوا عَلَيَّ مَا فِيهِ وَسَكَتُوا عَلَيَّ ذَلِكَ. ثُمَّ لَقِيَ كَلِيبُ ابْنَ الْبَسُوسِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ فَصِيلَ نَاقَتِكُمْ؟ قَالَ: قَتَلْتَهُ وَأَخْلَيْتَ لَنَا لَبْنَ أُمِّهِ. فَأَغْمَضُوا عَلَيَّ هَذِهِ أَيْضًا. ثُمَّ إِنَّ كَلِيبًا أَعَادَ عَلَيَّ امْرَأَتَهُ فَقَالَ: مَنْ أَعَزُّ وَائِلٌ؟ فَقَالَتْ: أَخَوَايَ. فَأَضْمَرَهَا وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَسَكَتَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِ إِبِلُ جَسَاسٍ فَرَأَى النَّاقَةَ فَأَنْكَرَهَا، فَقَالَ: مَا هَذِهِ النَّاقَةُ؟ قَالُوا: لَخَالَةَ جَسَاسٍ. قَالَ: أَوْقَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِ ابْنِ السَّعْدِيَّةِ أَنْ يُجِيرَ عَلَيَّ بَغِيرَ إِذْنِي؟ أَرْمِ ضَرَعَهَا يَا غَلَامَ. قَالَ فَرَأَسَ: فَأَخَذَ الْقَوْسَ فَرَمَى ضَرَعَ النَّاقَةَ فَاخْتَلَطَ دَمُهَا بِلَبْنِهَا، وَرَاحَتِ الرِّعَاةُ عَلَيَّ جَسَاسٍ فَأَخْبَرُوهُ بِالْأَمْرِ، فَقَالَ: احْلُبُوا لَهَا مَكْيَالِي لَبْنٍ بِمَحْلِبِهَا، وَلَا تَذْكُرُوا لَهَا مِنْ هَذَا شَيْئًا. ثُمَّ أَغْمَضُوا عَلَيْهَا أَيْضًا. قَالَ مَقَاتِلُ: حَتَّى أَصَابَتْهُمْ سَمَاءٌ، فَغَدَا فِي غَيْبِهَا يَتَمَطَّرُ. وَرَكِبَ جَسَاسٌ بِنِ مَرَّةٍ وَابْنُ عَمِّهِ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ بْنِ ذُهَلٍ، وَقَالَ أَبُو بَرَزَةَ: بَلْ عَمْرُو بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَطَعَنَ عَمْرُو كَلِيبًا فَحَطَمَ صَلْبَهُ. وَقَالَ أَبُو بَرَزَةَ: فَسَكَتَ

جساس حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر بن وائل على نَهْيٍ يقال له: شبيث، فنفاهم كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نَهْيٍ آخر يقال له: الأحص، فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على بطن الجريب فمنعهم إياه فمضوا حتى نزلوا الذنائب، واتبعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليه. ثم مر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب فقال: طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف. وقال بعضهم: بل جساس ناداه فقال: هذا كفعلك بناقة خالتي. فقال له: أَوْقَدْ ذَكَرْتَهَا؟ أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها. فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حُصْنِيهِ، فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عَقَلْتِ استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فاحتز رأسه".

والآن أود من القارئ أن يطالع القصة التالية التي تختلف عما مر بنا حتى الآن من قصص، إذ هي قصة رمزية بعض أبطالها من الحيوان الذي يتكلم كما يتكلم الآدميون، ويشعر كما يشعر الآدميون، ويجادل كما يجادل الآدميون، وعنده الحكمة والحذر كما عند الآدميين. جاء في كتاب "الأمثال"

للمفضّل الضيّ: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان قريباً منهما وادٍ فيه حية قد حمته من كل واحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المكلّئ فرعيتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته؟ قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زماناً، ثم إن الحية لدغته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخي. فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت: أأست ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادي فتكون به وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم؟ قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطها الموائيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالاً. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأحدّها ثم قعد لها فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، فلما رأى ذلك وتخوف شرّها ندم وقال لها: هل لك في أن نتواتق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف

أعادوك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي العهد؟ فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهوراً من أمثال العرب".

ومن هذا النص يتبين لنا أن قَصَصَ الحيوان في الأدب العربي لم ينتظر حتى يضع ابن المقفع كتابه: "كليلة ودمنة"، إذ ها هم أولاء الجاهليون يجعلون من الحيوانات أبطالاً لقصصهم، ويُطَقُونهم بذات اللغة التي يتحدثونها، ويُضْفُون عليهم سائر الخلال البشرية كما سلف القول. وهناك قِصَصٌ جاهليةٌ أخرى عن الحيوان: منها قصة قيام الضَّبِّ بالقضاء في الخصومة التي كانت بين الأرنب والثعلب، وقصة الضب والصفدع، وقصة الغراب الذي أراد أن يقلد العصفور، وقصة النعامة التي ذهبت تطلب قرنين، وقصة برّ الهدهد بأمه، وقصة الرّخَم الحكيم. وكذلك قصة الغراب والديك، وفيها أن الديك كان نديماً للغراب وأثمما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن بعد أن رهن صديقه عند الخمار، لكنه غدر به فبقى في الحبس. وهناك أيضاً قصة الضبع والذئب، وملخصها أن الضبع وجدت ثمرة فاختلسها الذئب فلطمته فتحاكما إلى الضب، فقالت: يا أبا الخَسِيل. قال: سمياً دعوت. قالت: جئناك نحتكم إليك. قال: في بيته يُؤْتَى الحَكَم. قالت: إني التقطت ثمرة. قال: حُلُوا جنيّت. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظَّ نفسه بَعَى. قالت: لطمته. قال:

أَشْفَيْتِ، والبادي أظلم. قالت: فلطمني. قال: حُرَّ انتصر لنفسه. قالت: أقضِ بيننا. قال: قضيت... وغير ذلك مما يجده القارئ في "الحيوان" للجاحظ و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة و"الأذكياء" لابن الجوزي و"خزانة الأدب" للبيهقي وغيرها.

وأترك هنا القارئ مع القصة التالية، وأبطلها من الملوك ورجال البلاط، وتدور حول ضعف البشر أمام نداء قلوبهم حتى لو عرفوا أن في ذلك حتفهم. وهى قصة الزبّاء وجذيمة الأبرش المشهورة، وقد أخذناها من كتاب ابن الجوزي: "الأذكياء": "قال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كان جَذِيمَةُ بن مالك ملكاً على الحيرة وما حولها من السواد. ملكَ ستين سنة، وكان به وَضَحٌ، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد، فَنُهَيْتِ العرب أن يقولوا: الأبرص، فقالوا: الأبرش. فغزا مليح بن البرء، وكان ملكاً على الحضرم، وهو الحاجز بين الروم والفرس، وهو الذي ذكره عَدِيّ بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحضرم إذ بناه وإذ دجلة تُجَبِّي إليه والخابور

فقتله جذيمة وطرد الزبّاء إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة. قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها. وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها، وإذا نشرته جللها فسميت: الزبّاء.

قال الكلبي: وبعث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها ومملكته، فأزالت جذيمة الأبرش عنها وابنت علي الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقاً تحت الفرات. وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليه وتحصنت به. وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء، وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة. فحدثت جذيمة نفسه بخيبتها فجمع خاصته فشاورهم في ذلك، وكان له عبد يقال له: قصير بن سعد، وكان عاقلاً لبيباً، وكان خازنه وصاحب أمره وعميد دولته. فسكت القوم وتكلم قصير فقال: أبيت اللعن أيها الملك، إن الزباء امرأة قد حرمت الرجال فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام. وإنما هي تاركتك رهبةً وحذارَ دولة. الحقد دفين في سويداء القلب له كُمون ككُمون النار في الحجر، إن اقتدحتَه أورَى، وإن تركته تواری. وللملك في بنات الملوك الأكفاء متسع، ولهن فيه منتفع. وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظم شأنك، فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير، الرأي ما رأيت، والحزم فيما قلته، ولكن النفس تواقفة إلى ما تحب وتهوى، ولكل امرئ قدرٌ لا مفر له منه ولا وزر. فوجه إليها خاطباً وقال: اتت الزباء فاذاكر لها ما يرغبها فيه وتصبو إليه. فجاءتها خطبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: انعم بك عينا وبما جئت به وله. وأظهرت له السرور به والرغبة فيه

وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفاً أن لا أجد كفوًّا. والملك فوق قدري، وأنا دون قدره، وقد أجبْتُ إلى ما سأل ورغبتُ فيما قال. ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه. وأهدتُ إليه هديةً سنِّيَّة: ساقَت العبيد والإماء والكُرَاع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملتُ من الثياب والعَيْن والوَرِق. فلما رجع إليه خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبتَه نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصيرٌ خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عَدِي اللَّخْمِيّ، وهو أول ملوك الحيرة من لحم. وكان مُلكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي، وردَّته وقد شب ونبر. فقالت أمه: ألبسوه الطوق. فقال خاله جذيمة: شب عمرو عن الطوق، فصارت مثلاً. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار ببقَّة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه فسكت القوم وافتتح الكلام قصيرُ بن سعد، قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيد بحزم فما يكون. فلا تنق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيفسُد، ولا الحزم بالمنى فيبعُد. والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالثبوت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمتُ على الملك عزمًا بتًا ألا يفعل. فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا

من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقوّوا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر، ولا يطاع لقصيرٍ أمر. فأرسلها مثلاً. وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يُحمَل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيّتها: تلقّوا سيدكم ومَلِك دولتكم. وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيراً فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم، قد زادت بصيرتي فيه. أفأنت على عزمك؟ قال: نعم، وقد زادت رغبتي فيه. قال قصير: ليس للأموار بصاحب، من لم ينظر في العواقب. وقد يُستدرك الأمر قبل فواته. وفي يد المَلِك بقية هو بها مسلط على استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو مُلك وعشيرة ومكان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وألقيتها في يدي من لست آمنُ عليك مكره وغدره. فإن كنتَ ولا بد فاعلاً لهواك تابعاً فإن القوم إن تلقّوك غداً فرّقاً وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمر بعدُ في يدك، والرأي فيه إليك. وإن تلقّوك رزداً واحداً وأقاموا لك صفيين حتى إذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب فأحدقوا بك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم. وهذه العصا لا يُشَقَّ غبارها. وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجارى الريح يقال لها العصا. فإذا كان كذلك فتملّك ظهرها، فهي ناحية بك إن ملكت

ناصيتها. فسمع جذيمة ولم يردّ جواباً، وسار. وكانت الزباء لما رجع
 رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غداً فتلقّوه
 بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم
 فتعرّضوا عليه من كل جانب حتى تُحدّقوا به، وإياكم أن يفوتكم.
 وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزداً واحداً أقاموا له
 صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأجدل
 على فريسته فأحدقوا به، وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره
 فأقبل عليه وقال: صدقت يا قصير. فقال قصير: أيها الملك، أبطأت
 بالجواب حتى فات الصواب. فأرسله مثلاً. فقال: كيف الرأي الآن؟
 قال: هذه العصا، فدوّنكها لعلك تنجو بها. فأنف جذيمة من ذلك
 وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر
 وأيقن بالقتل جمع نفسه فصار على ظهر العصا وأعطاها عنانها
 وزجرها، فذهبت تهوي به هوىّ الريح. فنظر إليه جذيمة وهي تطاول
 به، وأشرفت الزباء من قصرها فقالت: ما أحسنك من عروس تُجلى
 عليّ وتُزفّ إليّ، حتى دخلوا به إلى الزباء ولم يكن معها في قصرها إلا
 جوارٍ أبكارٍ أتراب. وكانت جالسة على سريرها وحوها ألف وصيفةٍ
 كل واحدة لا تشبه صاحبته في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنما قمر
 قد حفّت به النجوم تزهو. فأمرت بالأنطاع فُبسطت، وقالت
 لوصائفها: خذوا بيد سيّدكن وبعل مولاتكن. فأخذن بيده فأجلسنه
 على الأنطاع بحيث يراها وتراه وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم

أمرت الجوارى فقطعن رواهشه، ووضعت الطست تحت يده، فجعلت تشخب في الطست، فقطرت قطرة على النطع، فقالت لجواريهها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يزنك دم أراقه أهله. فلما مات قالت: والله ما وهى دمك ولا شفى قتلك، ولكنه غيضى من فيض. ثم أمرت به فدفن. وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عمر بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخير ويقتفي الأثر عن خاله، فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هوىّ الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكاهيمة. لأمر ما جاءت العصا. فأشرف عليهم قصير فقالوا: ما وراءك؟ قال سعى المقدر بالملك إلى حتفه، على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب بئارك من الزباء. فقال عمرو: وأي ثأر يُطلب من الزباء، وهي أمتع من عقاب الجو؟ فقال قصير: قد علمت نصحي كان خالك، وكان الأجل رائده. والله لا أني عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أدرك به ثأراً أو تُخترَم نفسي فأعذر. ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي. قيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يُؤتى مثلك في مثله. ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه. وقد جئتك مستجيراً بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه

بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل. وإني خشيتُ على نفسي فهربت منه إليك. أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عرك. فقالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرت به فأُنزل، وأجرت له الأنزال ووصلته وكسسته وأخدمته وزادت في إكرامه. وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتعة بقصرٍ مشيدٍ على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصير يوماً: إن لي بالعراق مالاً كثيراً وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيني شيئاً أتعلل به في التجارة وأجعله سبباً للوصول إلى مالي أتيتك بما قدرتُ عليه من ذلك. فأذنت له وأعطته مالاً، فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادها مالاً إلى ماها كثيراً، وقدم عليها فأعجبها ذلك وسرّها وترتّب له عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك طرفاً من الجواهر والبزّ والخزّ والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثلاثة فقدم بأكثر من الأوّلين طرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهمّاتها وملمّاتها، واسترسلت إليه وعوّلت في أمورها عليه. وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصيناً لبيّاً أديباً، فقالت له يوماً: أريد أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرج

إلى العراق فَأْتِنِي بكذا وكذا من السلاح والكُرَاع والعبيد والشياب. فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاع والعبيد والشياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك. وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكراً من حيث لا يعلم فأتيتك بها مع الذي سألت. فأعطته من المال ما أراد وقالت: يا قصير، المُلْكُ يحسن لمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره. ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيراده وإصداره إليك، وما تَقْصُرُ يدك عن شيء تناله، ولا يقعد بك حال ينهض بي. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ خادرٌ، وليث تائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكّنه من قلبها قال: الآن طاب المِصَاع. وخرج من عندها فأتى عَمْرَ بن عدي فقال: قد أصبت الفرصة من الزباء، فأنهض فعجّل الوثبة. فقال له عمرو: قل أَسْمَع، ومُرْ أفعَل، فأنت طبيب هذه القرحة. فقال: الرجال والأموال. قال: حكمتك فيما عندنا مسلّط. فعمد إلى أَلْفَيْ رجل من فتيان قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود وألبسهم السلاح والسيوف والحجف وأنزلهم في الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسفائها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم. وساق الخيل والعبيد والكُرَاع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والحجف وقال: إذا توسطت الإبل مدينة الزباء

فالأمارة بيننا كذا وكذا، فاخترطوا الرُّبُط. فلما قربت العير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها تتهاذى بأحمالها فارتابت بها. وقد كان وُشَيَّ بقصير إليها وحُدِّرَتْ منه، فقالت للواشى به: إن قصيراً اليوم منا، وهو ريب هذه النعمة، وصنوعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسدُ. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشى به إليها، فقالت:

ما للجمال مَشِيهاً وئيداً؟ أجنடلا يحملن أم حديدا

أم صرفاناً بارداً شديداً أم الرجال في المُسُوح سُوداً؟

ثم أقبلت على جواربها فقالت: أرى الموت الأحر في الغرائر السود. فذهبت مثلاً. حتى إذا توسطت الإبل المدينة وتكاملت ألقوا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراعٍ بألْفِيٍّ باترٍ طالبٍ ثأرٍ القتييل غدرًا. وخرجت الزباء تَمْصَعُ ترديد النفق، فسبقها إليه قصير فحال بينهما وبينه. فلما رأت أن قد أُحِيطَ بها ومُلِكَتِ التَقَمَتِ خاتماً في يدها تحت فَصِّه سَمَّ ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو. فأدركها عمرو وقصير فضربها بالسيف حتى هلكت، وملكها مملكته واحتويا على نعمتها. وخطَّ قصير على جذيمة قبراً وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تَمْتَعُ بالعساكر والقنا والمشرقية، عزه ما يُوصفُ

فسعت منيته إلى أعدائه وهو المتوج، والحسام المرهفُ

الأمثال

"الأمثال" جمع "مثَل"، وهو جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلّة لذلّما تُنقلّ مما وردت فيه إلى مُشابهه دون تغيير بغية الاستشهاد بها. وبعض الأمثال قد يكون مسجوعا متوازنا، وإن لم يكن هذا شرطا لا بد منه. وتمتاز هذه الجملة بأنّها تلخّص الموقف أو الجدال أو التعليق وتخصّمه على خير وجه، وبأنّها قصيرة لا تتجاوز بضع كلمات، وبأنّها من الحيوية والسلاسة وحلاوة الصياغة وبراعة التصوير وتعدّد الأبعاد بحيث يُكتب لها السيرورة والانتشار على ألسنة الناس، وبأنّها لا تخلو في كثير من الأحيان من موعظة أو حكمة.

وقد كتب حنا الفاخورى زاعما أن الأمثال الجاهلية، لكونها "كلام الشعب في جميع طبقاتهم، فقد جاءت في أكثرها غير مصقولة كما في قولهم: أول ما أطلعَ ضَبُّ ذَبَّبه" (حنا الفاخورى/ تاريخ الأدب العربي/ 202). وهذا حكمٌ جُزأفٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس في عبارة المثل الذى أورده ما يدل على ركاكة أو ضعف في الصياغة البتة، بل تجرى على فحولة الصياغة العربية. وفي كتب النحو والصرف كلام عن هذا التركيب يجده القارئ في نهاية باب المبتدأ والخبر، إذ يذكر العلماء عدة مواضع يجب فيها حذف الخبر منها أن يكون

المتبدأ مضافاً إلى مصدرٍ عاملٍ في اسمٍ مفسَّرٍ لضميرٍ له حال لا يصح ورودها خبراً، مثل: "أَكْثَرُ شُرَيْبِ السَّوَيْقِ مَلْتوتَا" و"أَخْطَبُ ما يكون الأمير قائماً"، والمثل الذى بين أيدينا يقترب جدا من المثل الأخير كما نرى، إلا أن المعمول هنا (وهو "ذَنبُهُ") مفعول لا حال. ولو أردنا أن نصوغ المثل صياغة عادية لقلنا: "أول شيء يُطْلَعُهُ الضَّبُّ من جحره هو ذَنبُهُ". ومثله قول العقاد في قصيدة "الشاعر الأعمى": "وأظلم ما نال العمى جفنَ شاعرٍ". وعلى هذا فكلام الفاخورى مجرد دعوى فارغة من المضمون. وقد أكد د. شوقي ضيف بحق أن "طائفة من هذه الأمثال تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكنم بن صيفى وعمار بن الظرب، وكان خطباؤهم المُفَوَّهون كثيرا ما يعمدون إلى حشدها في خطاباتهم". بل إنى لأزعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة بعكس ما يهرف به الفاخورى. أما قول الدكتور شوقي ضيف إن "بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف" فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدرا من المصادر التى اعتمدوا عليها فى استخلاص قواعدهم لا أن يحكموا تلك القواعد فى مثل هذه النصوص

الجاهلية التي يصعب أن يكون قد دخلها تغيير يُذكَر، إن كان قد دخلها أى تغيير على الإطلاق كما قال الأستاذ الدكتور نفسه (د. شوقي ضيف/ العصر الجاهلي/ 404، 408)، على عكس ما يؤكد ك. أ. فارق (K. A. Fariq) في الصفحة الثالثة والثلاثين من كتابه: " **History of Arabic Literature** "، إذ يقول إن النثر الجاهلي كله (بما فيه الأمثال طبعا)، شأنه شأن الشعر في ذلك العصر، قد دخله تحريف كثير من قِبَل الرواة، الذين زيفوه وبدّلوه وأضافوا إليه وحذفوا منه وشوّهوه، وذلك دون أن يدعم زعمه هذا بأى برهان، على الأقل فيما يخص الأمثال التي، نظرا لإيجازها الشديد وكثرة ترديدها واستمرار الاستشهاد بها والحرص التام على استعمالها كما نُطِقَ بها لأول مرة دون أى تحوير، يصعب جدا جدا أن ينالها شيء من هذا الذى قال. وسوف نتوسع بعض التوسع في معالجة النقطة الخاصة بدعوى مخالفة الأمثال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما بعد.

ونبدأ بالجانب اللغوي: وهناك ألفاظ كان الجاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابة، لا في وقّعها على الأذن ولا في وقعها على الذهن، ولا تشكّل لهم من ثمّ أية صعوبة في فهم دلالتها، بيّد أن الأمر الآن قد تغير، فأضحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وآصتْ بحاجة إلى من يشرح للقراء

معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شيء في الحياة، فيموت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتجدّ عليها ألفاظ لم تكن معروفة من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كما هو الحال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن ألتقط بعضاً من تلك الألفاظ التي تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصري، إما لأنها غريبة عليه تماماً، وإما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليه في ذاتها، فهي غريبة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعني في لغتنا الحالية معنى آخر غير الذي كان لها قبلاً، أو هي غريبة عليه بصيغتها لكونه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى. ومن هذا النوع من الألفاظ "الاحتلاط: الغضب" (أوّل العيّ الاحتلاط)، و"القَيْن: الحداد" (إذا سمعتَ بسرّي القَيْن فإنه مُصِح)، و"الصرّيح: اللبن الذي ليس فوقه رُغوة" (أبدي الصرّيح عن الرُغوة)، و"العذرة: العذرة"، و"الحقّين: الوطْب الذي يُحقّن باللبن" (أبى الحقّين العذرة)، و"ارجحنّ: مال" و"الشاصي: الرافع رجله" (إذا ارجحنّ شاصياً فارفع يدا)، و"القِدْح: السهم الذي كانوا يستقسمون به، أى يحاولون أن يعرفوا به الغيب حسبما كانوا يتوهمون" (أبصر وسمّ قدحك)، و"الشرب: نصيب الشخص أو الحيوان من الماء" (آخرها أقلها شرباً)، و"العقي (وجمعته أعقاء): ما يخرج من الصبي عند ولادته" (احذر الصبيان لا

تُصَبِّكَ بِأَعْقَانِهَا)، و"الذَّلَّ (وجمعُه "أذلال") : السهولة" (أَجْرٍ
 الْأُمُورِ عَلَى أَذْلَالِهَا)، و"الْحَسَّ: الاستئصال"، و"الْأَسَّ: الْأَصْلُ"
 (الْصِقَ الْحَسَّ بِالْأَسِّ)، و"السَّلَى: مشيمة الحُورِ، وهو الجَمَلُ
 الوليد" (انقطع السَّلَى في البطن)، و"الوَدَمَ: سيور تُرْبَطُ بِهَا
 أطراف العَرَاقِيّ، وهي الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو
 يُحْمَلُ مِنْهُمَا، أو الخشبتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْلِ
 والمؤخّرة، والمفرد: عَرْقُوةٌ" (أَمْرٌ دُونَ عُبَيْدَةَ الوَدَمُ: لم يستشره
 أحد في الأمر لهوان شأنه)، و"البَعَاعُ: المتاع والثقل" (ألقى عليه
 بَعَاعَهُ: ألقى عليه نفسه من حُبِّه له)، و"الرُّخَارِيّ: النبات عند
 ارتفاعه" (أخذت الأرض رُخَارِيَّهَا: اكتملت وبلغت الغاية)،
 و"الرَّطِيطُ: التذمر" (أَرَطِيّ، إن خيرك في الرِّطِيطِ)، و"العَقَنَقَلُ:
 المَصْرَانُ" (أعط أخاك من عَقَنَقَلِ الصَّبِّ: أعطه من كل ما
 معك مهما يكن تافها)، و"حَظَبٌ يَحْظُبُ: سَمِينٌ" (أُعْلِلُ
 تَحْظُبُ)، و"النَّجِثُ: ما كان خافيا فظهر" (بدا نجيث القوم)،
 و"الحُدَيَا: العطية" (بين الحُدَيَا والخُلْسَةِ: إما أن تعطيه مما
 معك وإما اختلسه منك، أى أنه لا فَكَاكَ من أخذه منك ما
 معك)، و"الطَّرِيقَةُ: اللين والضعف"، و"العِنْدَاوَةُ: العِنَادُ" (تحت
 طَرِيقَتِهِ عِنْدَاوَةٌ)، و"الثَّنَاطَةُ: الطين" (ثَأْطَةُ مُدَّتْ بَمَاءٍ: بمعنى "زاد
 الطين بِلَّةً")، و"الجَدْحُ: الشُّرْبُ" ("جَدَحَ جُؤَيْنٌ مِنْ سَوِيْقٍ
 غَيْرِهِ". و"جُؤَيْنٌ: اسم شخص، والسَّوِيْقُ نوع من الطعام)،

و"القُدَّة: الريشة التي تركب على السهم" (حَذَوَ القُدَّةَ بالقُدَّة)،
و"هَرَاق: أَرَاق" ("خَلَّ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ، وَمَنْ هُرِيقَ
بِالفلاة ماؤه"، لأنه لا أمل في صلاحه)، و"الْيَمْع: السراب"
(أَخَذَل من يَلْمَع)، و"الدَّبْرِيّ: الذى يأتى بعد فوات الأوان"
(شرّ الرأى الدَّبْرِيّ)، و"الحَقْحَقَة: السَّير السريع الشديد" (شرّ
السير الحَقْحَقَة)، و"الجِرْوَة: النَّفس" (ضَرَبَ على الأمر الفلانى
جِرْوَتَه: وطَّن نفسه عليه)، و"الهلباجة: النؤوم الكسلان، أو
الثقيل الجافى" (أعجز من هلباجة)، و"غَشْمَشَم: غَشُوم"
(غشمشمٌ يَغشى الشجر: يُفسد كل شىء ولا يبالى، كالثور فى
محل الخزف)، و"القُرَاب: القُرْب" (الفِرَار بِقُرَابٍ أَكيس: الفرار
قبل التورط فى المهلكة أفضل من التمادى فى الأمر)،
و"القَطُوف: البطىء المتأنى فى مشيته"، و"الْوَسَاع: المسرع
السابق" (القَطُوف يَبْلُغ الوَسَاع: قد يلحق المتأنى المتعجّل)،
و"الكِفْت والوثيئة: القدر الصغيرة والكبيرة" (كِفْتُ إلى وثيئة:
تقال لمن لا يكتفى بتحميل صاحبه المكروه الكبير، بل يُلحِق به
مكروها آخر)، و"البِضَاع: الجَمَاع" (كمعلِّمة أمها البِضَاع)،
و"جَلَل: صغير" (كلُّ شىءٍ أخطأ الأنفَ جَلَل)، و"اليهَيْرّ:
السراب" (أَكذَب من اليهَيْرّ)، و"لِحَام: لحوم" (لكنّ لِحَامٌ
بشُرْمَة لا تُجَنّ)، "بَلَلْتُ: ابتليت" (ما بَلَلْتُ من فلان بأفوقَ
ناصِل: ظهر أنه رجل صعب المراس. والأفوق الناصل: السهم

المكسور)، و"وَدَّعَ نفسه: أراحها. وهو مأخوذ من الدَّعَاة لا من التوديع" (من لم يَأْسَ على ما فات ودَّعَ نفسه)، و"العَبْكَة: ما يعلق بأصواف الغنم من بَعْرها" (ما أباليه عَبْكَةً)، و"مُخْرَبِقٌ لِينْبَاعٌ"، أى لاطئٌ بالأرض ينتهز فرصة ليثب على عدوه، و"تَعْظَطَ: اتَّعَظَ" (لا تَعْظِيْنِي وَتَعْظُطِيْ).)

وثمة جانب في الأمثال يحسن أن نتناوله ضمن ما نتناول منها هنا، ألا وهو الألفاظ العارية. والواقع أن مثل هذه الألفاظ لا تظهر بقوة في الأمثال الجاهلية ولا في الأمثال العربية الفصيحة بوجه عام، وربما لم يكن هناك منها في الأمثال الجاهلية التي وقعت لى في كتاب "جهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري إلا "الصُّرَاطُ" و"الاست" و"الخُرء"، فضلاً عن قلة ورود هذه الألفاظ في حد ذاتها. وقد كنت أحسب أن مثل هذا النوع من الألفاظ سيكون كثيراً في كلام الجاهليين نظراً لخشونتهم وبدائيتهم وعدم احتشام وثنيتهم، إلا أن الواقع جاء شيئاً آخر غير ما كنا نتصور، على الأقل طبقاً لما تقوله أمثالهم في هذا الشأن. وهذه بعض شواهد على ورود هاتين اللفظتين في تلك الأمثال: "أَضْرِبْ وَأَنْتَ الْأَعْلَى؟"، "أَضْرِبْ آخِرَ الْيَوْمِ؟"، "اسْتُ الْبَائِنِ أَعْلَمُ"، "اسْتُ لَمْ تُعَوِّدِ الْمَجْمَرَ"، "قَدْ يَضْرِبُ الْعَيْرُ وَالْمِكْوَاةُ فِي النَّارِ"، "خَرَّتْ بَيْنَهُمُ الضَّبْعُ".

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صيغ صرفية وتراكيب نحوية لم تعد تستخدم الآن، مثل استعمال "ليس" في موضع حرف العطف "لا" كما في المثال التالي: "إنما يَجْزَى الفتي ليس الجمّل"، وهو استعمال لـ "ليس" لا يعرفه كثير منا، يضاف إلى استعمالها أداة استثناء كما في قولنا: "قام الطلاب ليس عليّ"، أي قاموا إلا عليّ. ومن هذه التراكيب أيضا حذف خبر "أنّ" رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم من السياق كما في الشاهد التالي: "أشبهه شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا"، إذ المعنى أن هذا المكان هو فعلا المكان الذي يسمّى "شَرْجًا"، إلا أن الأُسَيْمِر (أي شجرات السَّمُر) التي كنت أعبدها فيه ليست موجودة. وتام الكلام إذن هو: "أشبهه شَرْجٌ شَرْجًا لو أن أُسَيْمِرًا كنت أعبدها من قبل كانت هناك". ولعل القارئ قد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع في "أُسْمُر" (جمع "سَمُرَة")، وتصغير صيغ الجمع كما هي (أي دون ردّها إلى صيغة المفرد أوّلاً) ممنوع بوجه عام في اللغة العربية حسبما هو معروف، اللهم إلا ما نصّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير القلّة، ومنها صيغة "أَفْعُل" التي بين أيدينا. كذلك يعرف الملمّون بالنحو العربي أن هناك مواضع تحذف فيها "كان" واسمها، لكن ليس من بينها "إلا"، التي نلاحظ في الشاهد التالي كيف أن قائل المثل قد حذف بعدها "كان" واسمها مثلما يحذفها العرب بعد "لو" كما

في قول الرسول الكريم مثلاً: "التمس ولو خائماً من حديد"، أى ادفع أى مهر حتى لو كان هذ المهر مجرد خاتمٍ من حديد لا قيمة له، وكذلك بعد "إن" المكررة كما في مثل قوله عليه السلام: "الناس مجزيون بأعمالهم: إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ"، أى إن كان العمل المجزيون به خيراً فالجزاء خيرٌ، أو كان هذا العمل شراً فالجزاء شرٌ. ونصّ المثل هو: "إلا حظيةً فلا ألية"، أى "إذا لم يكن أمرك هو الحظوة عند من تريد أن يكرمك فلا تألُ أن تتودد له". ومن الشواهد التي جاءت فيها "كان" واسمها محذوفين قولهم في المثل التالى: "قد قيل ذلك إن حقاً وإن كذباً"، أى قيل ما قيل، وانتهى الأمر، سواء كان الكلام المقول حقاً أو كذباً. كذلك انظر إلى المثل التالى: "أنا غريرك من الأمر" (ومعناه: "أنا عالم بالأمر علماً يجعلنى أجيبك في أى أمر منه حتى لو كان سؤالك على حين غرة") كيف أدى التركيب فيه إلى المعنى المقصود رغم أنه لا يدل عليه دلالة مباشرة لا تُحَوِّج إلى شرح. وهناك أيضاً المثل التالى بتركيبه الذى لا يقابلنا في فصحانا المعاصرة رغم استمراره في العامية: "أَعْوَرُ، عَيْنُكَ وَالْحَجَرُ"، فهو يدل على التحذير من خطر يتهدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذى يمكن أن يصيب عين الأعور، مع ملاحظة أن كلا من المهْدَد (الحجر) والمهْدَد (العين) منصوب كما هو واضح. وهو تركيب لا يستعمل الآن إلا في

العامية كما قلت، بل لا أظنه من التراكيب التي تقابلنا في النصوص القديمة كثيرا. ولا تنس أن أداة النداء قد حُذفت كذلك في النص، إذ الأصل: "يا أعور"، والمقصود: "أيها الأعور، احذر أن يصيب عينك الوحيدة الباقية حجرًا يذهب بصرها أيضا فتصبح أعمى تماما".

أما في قولهم: "أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟" فقد حُذِفَ الفعل وفاعله، وهو استنكار لجمع الشخص بين خَلَّتَيْنِ سَيِّئَتَيْنِ في تعامله مع الناس بدلا من الاقتصار على واحدة منهما ليست في ذاتها بالقليلة. ومثله قولهم في مثلٍ آخَرَ: "أَغْيِرَةً وَجُبْنًا؟"، وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذي يغار أشد الغيرة عليها، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الدفاع عنها إذا تعرض عِرْضُهُ للعدوان. وهناك صيغة صرفية قابلتني في الفعل: "أَنْجَدَ" من قولهم: "أَنْجَدَ مِنْ رَأْيِ حَضَنَّا" (إشارة إلى الوصول إلى الغاية)، وهي صيغة "أَفْعَلَ" للفعل الماضي المشتق من اسم بلدٍ ما أو مدينةٍ من المدن، كقولهم: "أَعْرَقَ، وَأَشَامَ، وَأَعْمَنَ، وَأَيَّمَنَ، وَأَمَّنَى"، أى وصل العراق أو الشام أو عمان أو اليمن أو مَنَى أو شارف الوصول. و"حَضَنَ" اسم جبل مشهور في نجد. وثمة صيغة جمعية لا نستخدمها عادةً في الموضوع الذى جاءت فيه، وهي صيغة "أَفْعَالٍ" في قولهم: "أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا" (جمع "جانٍ" و"بانٍ") بدلا من "جُنَاتُهَا بُنَاتُهَا"، أى أن من جَنَوْا عليها (أى

هدموها) هم أنفسهم الذين سبق أن بنوها. وهى صيغة جمعية قليلة الاستعمال فى هذا الموضع حسبما قلنا كما فى "صاحب: أصحاب" و"شاهد: أشهاد"، ولكنها ليست خاطئة كما قد يُفهم من كلام د. شوقى ضيف، الذى علق على هذا المثل قائلاً إن "القياس" جنائها بُنائها" لأن "فاعلاً" لا يُجمع على "أفعال"...". (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ 408)، وفاته أن القرآن نفسه قد استخدم "أشهاد" فى موضعين منه (هود/ 18، وغافر/ 51)، ومثلها "أصحاب"، التى تكررت فيه نيفاً وسبعين مرةً، وهما جمع "شاهد" و"صاحب" على التوالى، وليس بعد قول الله قول. كذلك ذكر عباس أبو السعود فى كتابه: "الفيصل فى ألوان الجموع" (دار المعارف/ 1971م/ 40) أنه ورد عن العرب أيضاً "قابس: أقباس" و"جاهل: أجهال". أما فى قولهم: "إذا جاء الحين، حار العين" فنلاحظ تذكير الفعل: "حار" رغم إسناده لمؤنث، وهو استعمال صحيح لأن لفظه "العين"، وإن كانت مؤنثة، فتأنيثها مجازى، أى أنها ليست كائناً حياً له عضو أنوثة كالمراة والدجاجة مثلاً، ومن ثم جاز فى لغة الضاد تذكير فعلها.

ومن التركيبات اللافتة للنظر اكتفاؤهم بالحال فقط من بين أركان الجملة جميعاً كما فى المثلىن التالىين: "أضرباً وأنت الأعلى؟"، "أضرباً آخر اليوم؟". أما فى قولهم فى المثل التالى:

"أَقْلِبْ قَلَابٍ" (أى اقلب الكلام وخذ إلى ما قلت من قبل. وهو مثل يُضْرَبُ للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها عن معناها) فعندنا صيغة "فَعَالٍ" التي تعنى "أَفْعَلٌ"، مثل "دَرَاكٍ"، "نَزَالٍ"، أى أَدْرِكُ، وَأَنْزِلُ. ومن أسماء الأعلام التي قابلتني في أمثال الجاهليين على هذه الصيغة أيضا اسم "عَرَارٍ"، وهو من أسماء الأعلام المؤنثة، وقد ورد في المثل التالي: "بَاءت عَرَارٍ بِكَحْلٍ"، أى أن عرارٍ وكحلاً بقرتان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فإذا أَخَذتَ هذه بدلا من تلك، أو تلك بدلا من هذه، لم تخسر شيئا. ولنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجيئه فاعلا، قد بُنِيَ على الكسر، وهذا إعرابه دائما في لغة الحجازيين مهما تغيرت وظيفته في الجملة. ومنه أيضا ما ورد في الأمثال التالية: "إِسْقِ رَقَاشٍ، إِنَّهَا سَقَايَةٌ" (اسم امرأة كريمة)، "الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامٌ" (اسم امرأة اشتهرت بصحة رأيها)، "أَجْرًا مِنْ خَاصِي خَصَافٍ" (اسم فرس خصاه صاحبه كى لا يأخذه منه ملك أعجبه الفرس وأراد أن يستولى عليه)، "رُوعِي جَعَارٍ، وَانظُرِي أَيْنَ الْمَفْرَرِ" (اسم علم على الضبع)، "أَزْنَى مِنْ سَجَاحٍ" (وهى الكاهنة التميمية المشهورة التي ادعت النبوة عند موت النبي عليه السلام ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لها مع مسيلمة الكذاب قصة معروفة هي التي شَهَرَتْهَا بهذا المثل)، "صَمَّى صَمَامٌ" (اسم

للداهية. وهو مثل يقال عند استفظاع الداهية تعبيراً عن الضيق بها والرغبة في انقشاعها). بيد أن هذه الصيغة لا تبلغ غرابة صيغة "فُعَيْلَى" التي نقابلها في الشاهد التالي مرتين: "الأخذ سُرَيْطَى، والقضاء ضُرَيْطَى"، أي هو في الاستدانة لطيف المعشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصاً شكساً سوى الذمة. وفي قولهم: "أخذه الله أخذ سَبْعَة" نراهم يسمون اللبوة: "سَبْعَة" (تأنيث "سَبَع")، ولا يعرف هذه التسمية إلا الأقلون، ومثلها في هذا مثلُ "رَجَلَة" (مؤنث "رَجُل") بدلا من "امرأة".

وفي بعض الأمثال نلاحظ إيراد الحرف "ما" قبل الفعل المتأخر عن شبه الجملة، وذلك لتأكيد المعنى، ومثله قولهم: "باليدين ما أوردَها زائدة" (و"زائدة" اسم رجل)، "بَعَيْنِ ما أَرَيْنَكَ"، "قبلك ما جاء الخبر"، "لك ما أبكى، ولا عَبْرَةَ بي"، "وبالأشقين ما حلَّ العِقَابُ". كما أن هناك مثلاً واحداً على الأقل تكررت فيه "بين" مع اسمين ظاهرين على خلاف ما يدعى بعض اللغويين المنتطسين من أن مثل هذا التكرار لا تجيزه العربية، ثم اتضح لي منذ سنوات غير قليلة أن ذلك غير صحيح، إذ وجدتُ في الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي عشرات الشواهد التي تدل على أنه ليس في هذا التكرار ما يعاب من جهة الأسلوب العربي الأصيل، وإن لم يرد ذلك التركيب في القرآن، إذ القرآن الكريم لا يستوعب، كما هو

معروف، كل إمكانيات اللغة، فهو كتاب سماوى لا معجم لغوى. وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: "بين المطيع وبين المُدْبِرِ العاصى"، أى أنه لا يوثق بموقفه، فهو متذبذب بين الطاعة والمعصية، فأيتهما أمكنته جرى في طريقها. ومن التراكيب التى قابلتني هنا أيضا وأرى أنه ينبغي التلبث عندها قليلا التركيب الذى عليه المثالان التاليان: "جَارِي يَيْتَ يَيْتَ"، "وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ"، ببناء الكلمتين على الفتح كما هو واضح، وهو مثل قولهم: "صباحَ مساءً"، "ليلَ هُمارَ"، "أحدَ عشرَ". وقد أجريتُ التعبير العامى: "خَبَطَ لَزَقَ" عليه واستعملته فى كتاباتى مطعِّما الفصحى به على طريقتى فى إغناء لغة الكتابة بما أرى استعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف. ويمكن أن نلحق به الكلام فى الجملة التالية: "اذهب إلى المكان الفلانى جَرَى جَرَى"... وهكذا.

ومما لفت انتباهى من التراكيب التى قابلتني فى الأمثال الجاهلية ما ورد فى قولهم: "حَبَّ شَيْئًا إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنْعَا"، الذى استُخِدِمَ فيه الفعل "حَبَّ" بدلا من "أفعل التفضيل" (هكذا: "أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنْعَا")، مع نَصْبِ "شَيْءٍ" لا جَرِّه كما يلاحظ القارئ. وهناك أيضا تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة فى الشواهد التالية من أمثال

العرب القدماء، وهى: "فَتَى ولا كَمَالِكِ"، "مَرَعَى ولا كَالسَّعْدَانِ"، "مَاءٌ ولا كَصَدَاءِ"، فالاسم الذى بعد "ولا" مفضَّل على ما قبلها. وقريب منه قولهم: "الْمَيْيَّةُ ولا الدَّيْنِيَّةُ"، "النَّارُ ولا العَارُ"، وإن كان التفضيل فى هذا التركيب الأخير للمذكور أوَّلاً، وهو "المَيْيَّةُ" و"النَّارُ" على الترتيب. أما فى المثلين التاليين اللذين يجريان فى تركيبهما على ذات المنوال فإن المعنى يختلف عما نحن إزاءه، ففى قولهم: "مَرَعَى ولا أَكُولَةُ"، و"عَشْبٌ ولا بعيرٌ" لا مجال للتفضيل، بل المقصود التحسر على توفر المرعى والعشب بغزارة، ولكن دون فائدة، إذ لا وجود للماشية التى يمكن أن تأكله. وبالنسبة لكلمة "رُؤَيْدٌ" فلا أظننا الآن نعرفها إلا فى قولنا: "رُؤَيْدًا يا فلان" أو "رُؤَيْدَكَ يا فلان"، يَبْدُ أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيها أوسع من ذلك كما فى المثلين التاليين: "رُؤَيْدَ الشَّعْرِ يَغِبُّ" (انتظر قليلا حتى ينتشر الشَّعْرُ بما فيه من مدح أو هجاء ويعمل عمله فى العقول)، "رُؤَيْدَ العَزْوِ ينمرق". ولاحظ كيف أن الاسم بعد "رُؤَيْدٌ" يكون منصوبا. وللنحاة فى هذا التركيب كلام يعللون به هذا الإعراب، وأرى أننا لا ينبغى أن نجرى مع تقديرات النحاة التى لا تسير على منطق اللغة الواضح المستقيم، بل نكتفى بالقول هنا إن الاسم الواقع بعد "رُؤَيْدٌ" ("رُؤَيْدٌ" دون تنوين) يكون منصوبا، والسلام، وذلك دون أن نعتى أنفسنا

بالبحث عن السبب في هذا النَّصْب خارج تلك الدائرة. ثم إنه قد يلي هذه الكلمة فعلٌ كما في المثل التالي: "رُوَيْدٌ يَعْلُونَ الجَدَد"، أى ارفق حتى يمكنى الأمر. وبالمثل لا أحب أن نرهق أنفسنا مع الصرفيين في توجيه صيغة الكلمة، وهل هى تصغير "رُود" طبقاً لما يقول به بعضٌ أو "إرواد" بناءً على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدم أيضاً على نطاق واسع، وهى الأسماء التى على وزن "فُعَلَى"، إذ لا يفد على ذهنى منها الآن إلا "العُقْبَى" (أى "العاقبة") و"الشُّورَى" و"التُّعْمَى" (أى "النعمة")، و"البُقْيَا: أى الإبقاء"، و"الدينيا". وفى القرآن، إلى جانب ذلك، "الرُّجَعَى" (بمعنى "الرجوع") و"السُّوَأَى" (أى "السُّوء")، و"الْيُسْرَى"، و"العُسْرَى". ومن أسماء النساء عند العرب "سُعْدَى" و"سُلْمَى"، وفى الأمثال التى بين أيدينا نجد أيضاً "رُغْبَى" و"رُهْبَى": "رُهْبَاك خَيْرٌ مِنْ رُغْبَاك"، أى رهبتك خير من رغبتك. والمعنى أنك لا تأتى ما تأتى من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف. أما الاسم "خَفَيْدَد: الظليم (أى ذَكَر النعام)" فى المثل التالى: "أشْرَه مِنْ خَفَيْدَد" فقد جاء على صيغة لا أظننى قابلت اسماً آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن

أتذكر اسما من الأسماء المصوبة فيه، وإن كان هناك "سَمِيدَع: الشريف الشجاع" مثلا، إلا أنه صفة لا اسم.

ومن التراكيب التي وجدتها في أمثال الجاهليين أيضا قولهم: "عَدُوْكَ إِذْ أَنْتَ رُبْعٌ" لتحميس الشخص ليبدل أقصى ما عنده كما كان يفعل أيام الشباب والحيوية. و"العَدُو" هو الجرى السريع، و"الرُّبْع" هو الجمل في شبابه. والشاهد في الكلام هو نصب "عَدُوْكَ" على الإغراء، والإغراء باب من أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيب مما ينتشر في الأسلوب العصري على نطاق واسع. أما المثل القائل: "عسى العُوَيْرُ أَبُوْسًا" فهو يخالف القاعدة العامة التي تقول إن خبر "كاد" وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع: مع "أن" أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنا مفرد لا جملة، فكأنهم قد أجزوا "عسى" في هذا المثل مجرى "كان" وأخواتها. وبالمناسبة فهذا المثل هو أحد الشواهد في كثير من كتب النحو على ذلك الاستعمال. وهناك استعمال آخر لـ"عسى" يسويها بـ"لعل"، فينصب اسمها ويرفع خبرها، الذي يمكن في هذه الحالة أن يكون مفردا أو شبه جملة، ومنه ما كنا نسمعه من السعوديين حين يهنئ بعضهم بعضا بالعيد فيقولون: "عساكم من عَوَّاده". وبالمثل نجد أهل اللغة المهتمين بصحة الأساليب يخطئون مجيء "لا" بين "قد" والمضارع قائلين

إنه ينبغي في هذه الحالة الاستعاضة بـ "ربما" عن "قد" فلا يقال مثلا: "قد لا أَلعب"، بل لا بد من تغييرها إلى "ربما لا أَلعب". وقد عَبَّرَ عليّ زمن كنت أخطئ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظننت أن هذا تحكّم لا معنى له، كما وجدت في كتاب محمد العدناني: "معجم الأغلط اللغوية المعاصرة" بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى هذا نَصُّه:

وقد قالت قُتَيْبَةُ إِذْ رَأَتْني وَقَدْ لَا تَعْدَمُ الحِسنَاءُ ذامًا
وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للشِئِءِ الرَّائِعِ الَّذِي لَا يَخْلُو أَن يَجِدَ مِنْ
يَعِيبِهِ رِغْمَ هَذَا، وَإِنْ كَانُوا يَحْذِفُونَ مِنْهُ "قَدْ". وهناك بيت آخر
للنمر بن تَوَلَّبِ الشاعِرِ المُخَضَّرِمِ، أوردَه العدناني أيضًا، ونصه:
وَأَحِبُّ حَبِيبَكَ حُبًّا رُوِيْدًا فَقَدْ لَا يَعْوَلُكَ أَن تَصْرِمَا
إلى جانب عبارتين لابن جنى وابن مالك صاحب الألفية،
وهما من كبار النحاة وأهل اللغة.

ثم بدا لي، وأنا أكتب هذه الدراسة، أن أراجع الشعر القديم في "الموسوعة الشعرية" الضوئية مجتهدا ما استطعت مقاومة الملل والضيق أثناء بحثي عن الشواهد المرادة، لكنني، في حدود ما تنبّهت وغالبت ملل البحث في أكوام ذلك الشعر، لم أتنبه إلى وجود شواهد أخرى تسوّغ موقفي الجديد، وهأنذا أعود فأرى أن من الأفضل لي أنا شخصيا مما لا ألزم به غيري

تَجُنَّبَ استعمال ذلك التركيب في كتاباتي بما فيها الرسائل الشخصية التي لم أكن أحرص فيها تحريزي في الكتابات الرسمية والأدبية، والعودُ أحمد كما يقولون. بيدَ أني قد عثرت رغم ذلك بالمثل التالي أثناء قراءتي لكتاب أبي هلال العسكري الحليّ: "جمهرة الأمثال"، وقائله رجل جاهلي هو سعد بن زيد مناة التميمي، قاله بعد أن شاخ وأضحى لا يستطيع أن يسوق بنفسه جملة الذي يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التي ساقها الأستاذ العدناني، بارك الله فيه، وهذا نص المثل: "قد لا يُقَادَ بي الجمل". أي أني لم أكن قبلاً أحتاج إلى من يقود بي الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شَبْتُ ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسي. فالمثلُ إذن تعبير عما يجده الرجل العجوز من حسرة بعد أن ضعفت قواه وولّى عنه الشباب.

وهناك مثلٌ لفت نظري كونه جملة اسمية خالية من أي فعل بما يعنى خلوها من التحديد الزمني، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقاً دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قصره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضي، وهو ما لا يقبله النحويون. فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: "لكنْ بشَعْفَيْنِ أَنْتِ جَدُودٌ". و"الجُدُود" هي القليلة اللبن، والمثل في امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللبن، ثم أصابت

غنى وكثرت عندها الماشية ودَرَّت ألبانها، فأخذت تتفاخر بذلك، مما دفع مبغضيه لتذكيرها بأيام فقرها حين كانت تترل الموضوع المسمّى: "شَعْفَيْن"، كى تكف عن هذا الفخر الكريه. كذلك هناك عدد من الأمثلة تتضمن "أفعل تفضيل" مباشرة مشتقاً من فعل مبنى للمجهول، وهو ما يرفضه كثير من الصرفيين حسب القواعد التى وضعوها، وإن كان لكل قاعدة شواذ كما نعرف، ومنها الأمثال التالية: "أشْعَلُ من ذات النَّحِيْنِ"، "أَقْوَدُ من مُهْرٍ"، "أَمْنَعُ من عُقَابِ الجَوِّ". ونختتم هذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد فى المثل التالى: "وَجِدَانُ الرَّقِيْنِ يَعْطِيْ عَلَى أَفْنِ الْأَفِيْنِ"، أى أن غنى الشخص وامتلاكه للرقين، وهى الفضة، يستر على كل عيوبه وحمافاته. فـ"الرقين" جمع "رقة"، وهو ما يسمى فى الصرف بالملحق بجمع المذكر السالم، لأن كلمة "الرَّقَّة" لا تتوفر فيها الشروط التى لا بد منها فى ذلك النوع من الجمع، مثلها فى هذا مثل "بُرَّة: بُرُون - بُرِين"، "كُرَّة: كُرُون - كُرِين"، "عِرَّة: عِرُون - عِرِين"، "عِزَّة: عِزُون - عِزِين"، "مِئَّة: مِئُون - مِئِين"، "رِئَّة: رِئُون - رِئِين"، "سِنَّة: سِنُون - سِنِين"... إلخ.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الموسيقى لاحظنا أن بعض الأمثال تعتمد السجع والجناس والطباق والموازنة (كلها أو بعضها) بغية توفير الإيقاع الموسيقى والذهنى لضمان المتعة والحفظ

والسيرورة. بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيت من الشعر أو شطر من شطريه. وها هي ذى الشواهد على ما نقول:

"اختلط الحابل بالنابل"، "إذا أردتَ المحاجزة فقبّل المناجزة"، "إذا عَزَّ أخوك فهُنِّ"، "إذا لم تغلبْ فاخلبْ"، "إذا جاء الحَيْن، حارَ العَيْن"، "إرقَ على ظلعك، وأقديرْ بذرعك"، "أرنيها نَمرةً أركها مطرةً"، "أعذرَ من أنذرَ"، "إن القُوع الغنى لا كثرة المال"، "إننى لن أضيره. إنما أطوى مصيره"، "استغنت الثقة عن الرُفَّة"، "بعثُ جارى، ولم أبعُ دارى"، "جاء بالطمِّ والرَّمِّ"، "جدك لا كدك"، "حال الجريض دون القريض"، "الخلاء بلاء"، "دهدرين سعد القين"، "رُبَّ قول أشد من صول"، "ضرب أحماسٍ لأسداس"، "الطريفُ خفيف، والتليدُ بليد"، "قربُ الوساد، وطولُ السواد"، "كلُّ الحذاءِ يحتذى الحافى الوقع"، "لولا اللتام لهلك الأنام"، "ليس من العدل سرعة العدل"، "من لى بالسانح بعد البارح؟"، "المنايا على البلياء"، "من العناء رياضة الهرم"، "هذا أوان الحرب، فاشتدّى زيمٌ"، "اليومَ خمّر، وغداً أمر".

ومن الجوانب الاجتماعية التي أريد أن أتناولها في هذه الدراسة الأسماء التي كان العرب القدماء يتسمون بها، وقد وُفِّتْ إلى العثور على الأسماء التالية للرجال والنساء: فأما الرجال، وليسمح لى الجنس اللطيف أن أبدأ بهم أولاً جرياً

على العرف الاجتماعي وليس رغبة في تنقصهن، فهذه هي ذى
أسمائهم التي تنبهُ إليها أثناء تصفحي للأمثال الجاهلية
(الجاهلية فعلاً أو ظناً) الموجودة في كتاب العسكري: "سعد"،
"سعيد"، "عبيدة"، "درم"، "سملقة"، "حنيف"، "مالك"، "زيد
مناة"، "عمرو"، "سالم"، "فلحس"، "مادير"، "سحبان"، "قس"،
"لقمان"، "المرفش"، "جوين"، "عمى"، "حاتم"، "هرم"،
"كعب"، "هبنقة"، "حجينة"، "ربيعة"، "عدي"، "أبو عبشان"،
"جناب"، "عجل"، "الأحنف"، "سنان"، "حنين"، "عرقوب"،
"دعيمص"، "أسعد"، "فطرة"، "إياس"، "أخزم"، "حداجة"،
"قرنق"، "شظاظ"، "سلاغ"، "عائشة"، "عشم"، "مرقمة"،
"جفينة"، "حميق"، "عوف"، "كليب"، "مروان"، "الشنفرى"،
"السليك"، "باقل"، "مزقياء"، "عتيبة"، "قيس"، "عاصم"،
"الحارث"، "حاجب"، "زرارة"، "سدوم"، "بسظام"، "كلثوم"،
"عامر"، "البراض"، "ظالم"، "الممدلق"، "الطفيّل"، "ناشرة"،
"قصير"، "حمل"، "أسلم"، "ضبارة"، "جدرة"، "ابن توضع"،
"الذئب"، "عصام"، "خرافة"، "عبود"، "جناب"، "خريم"،
"حيان"، "حوثرة"، "خوات"، "الخرشوب"، "شنن"،
"السموأل"، "جديمة"، "التطف"، "لكيز"، "أسلم"، "قوضع"،
"ضبارة" ... إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكما يرى القارئ فمعظمها
 خَشِنٌ وَعَرٌّ، والآن إلى أسماء القوارير، ولكن يؤسفني من كل
 قلبى أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقل خشونةً ووعورةً، وليس
 هذا بالشىء المستغرب، فقد كان الجاهليون بدوا خشنين،
 وكان معظم ما حولهم وَعَرًّا جافيا، فمن أين يمكنهم أن
 يستمدوا الأسماء الجميلة، والإنسان فى الغالب هو ابن بيئته
 وظروفه؟ ما علينا، فلنتابع أسماء الجنس اللطيف فى الجاهلية،
 ولنكن على ذُكْرٍ من أن صاحبات هذه الأسماء الجافية هن
 اللاتى شغلن أفئدة الشعراء وأسهرنهم الليالى يتقلبون على
 الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعملونه سوى عد النجوم
 بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقن قرائحهم
 وألستهم بالقصائد الخالدة التى أبقت على ذكرهن طوال هذه
 القرون وستبقى عليها إلى أبد الأبدين ما دامت هناك هذه اللغة
 العبقرية، لغة الضاد. وهذا بعض ما وجدته من أسماء لآنساتنا
 وسيداتنا (تيجان رؤوسنا سواء رَضِينا أو كَرِهْنَا): "رَقَاشِ"،
 "حَدَامِ"، "سَجَاحِ"، "زرقاء"، "حَوَمَلِ"، "مارِخَة"، "أم خارجة"،
 "مَنْشِمِ"، "لَمِيسِ"، "مارية"، "حليمة"، "الزَّبَاءِ"، "أم قرفة"،
 "ظَلْمَة"، "صُحْرُ"، "عاتكة"، "شَوْلَة"، "خبيشة"... وهلمَّ جرًّا.
 ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجاليّ
 منها والنسائيّ، قد اختفت من حياتنا تبعاً لتغير الأذواق

والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخي، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشيخة كالتى تربطنا بالأسماء الإسلامية التى نعتز بها أيما اعتزاز ونحرص على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التى تدور حول هذا الشخص أو ذاك لِخَلَّةٍ فيه أو لحادثةٍ وقعت له اشتهر بها بين العرب حتى ضُربَ به المثل، ومن ذلك الأمثال التالية، وكثير منها يقوم على المقارنة وأفعال التفضيل: "أَبْلُ من حُيَيْفِ الحاتم"، أى أكثر إبلاً، "أَبْجَلُ من مادِر"، "أَبْصَرُ من زرقاء"، "أَبْلَغُ من سَحْبَانَ"، "أَثْيَسُ من ثِيوسِ ثُوَيْتِ"، "أَحْزَمُ من سِنَانَ"، "أَحْكَمُ من لَقْمَانَ"، "أَحْمَقُ من أبى غبشان، أو من شَرَبْتِ"، "أَسْرَقُ من شِطَاطِ"، "أَسْعَدُ أم سَعِيدِ؟"، "أَضْبَطُ من عائشة بن عَثَمِ"، "أَطْمَعُ من فَلَاحِسِ"، "أَعْظَمُ فى نفسه من مُزَيْقِيَاءِ"، "أَفْتَكُ من الحارث بن ظالم"، "أَقْوَدُ من ظُلْمَةِ"، "أَنْكَحُ من حَوَثَرَةَ" (وهذا المثل يقال للشخص المِزْوَجِ)، "أَنْعَمُ من حِيَّانِ"، "أَيْنَمَا أَوْجَّهَ أَلْقَى سَعْدًا"، "بِيَدِي لا بِيَدِ عمرو"، "تَجَشَّأَ لَقْمَانَ من غير شِبَعِ"، "دَفَّقُوا بينهم عطر مَنَشِمِ" (أى ثارت بينهم حربٌ شَوْمٍ مُهْلِكَةٌ. ومَنَشِمِ امرأةٌ كانت تبيع العطر، وهو عطر مشؤوم)، "دم سَلَاحِ جُبَّارِ"، أى هَدَرِ، "دُهْدُرَيْنِ سَعْدِ الْقَيْنِ"، "رَدِ كَعْبُ، إِنَّكَ وَرَادِ" (يقال لمن كان على شفا الموت)، "شَبَّ عمرو عن

الطوق"، "شَشِنَّةٌ أعرِفها من أَخْزَم"، "صَحيفةُ المتلمّس" (وهى كلمةٌ تقال عند التشاؤم بشيء تُخشى من ورائه الهلكة)، "صفقةٌ لم يشهدا حاطب"، "عادت لِعِترها لَميس" (أى رجعت لعادتها القديمة)، "في بيته يُؤتَى الحَكم" (أى أن لفلان من الكرامة ما يوجب على الناس أن يذهبوا إليه ولا يذهب هو)، "القول ما قالت حَدَام"، "لا حُرٌّ بِوَادِي عَوْف" (يقال للسيد المستبد الذى لا ينهض له أحد)، "هما كَنَدَمائِي جَدِيمَة"، "ولو بَقُرطَى مارية" (يقال للشيء النفيس لا يمكن التفريط فيه ولو دُفِع فيه أغلى ثمن)، "يا ويلتا! رآنى ربيعة"، "ما يوم حليلةَ بِسَرِّ" (و"اليوم" هنا بمعنى "المعركة"، و"أيام العرب" هى معاركهم وحروبهم المشهورة، والمقصود بـ"يوم حليلة" المعركة التى ضَمَخَتْ فيها الأميرةُ حليلةُ بنتُ الحارث بن جَبَلَة رجالَ جيش أبيها بالعطر غداة انطلاقهم للحرب، وكان يوما مشهورا ضُربَ به المثل).

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضا: ومن أسماء المواضع التى وردت فى أمثال الجاهليين "أَبان" (جبل)، "شَجَعات"، "شَرْج"، "حَصْن" (اسم جبل)، "أَجَلَى"، "أَضاخ"، "مكة"، "عَرار" (اسم بقرة)، "كَحْل" (اسم بقرة أخرى)، "بَرأقش" (اسم كلبية)، "المارد" (اسم حصن)، "الأبلق" (اسم حصن آخر)، "الرَّامَتان"

(وهو الاسم الذى أطلقه طه حسين على دارته فى الجزيرة. وقد أخذه من المثل القائل: "تسألنى (أى ناقتى) برامتين سلجماً"، أى تطلب شيئاً ليس هذا موضعه)، "شَيْث"، "الأحص"، "نُهْلان" (جبل)، "خُمَيْرَة" (اسم فرس)، "ابنا شَمَام" (اسم هَضْبَتَيْن)، "صداء" (اسم ماء)، "بَرِيَّة خُسَاف"، "هَرَشَى"، "بَلَدَح"، "شَعْفَان"، "لُبْد" (اسم نسر طويل العمر)، "تَرَج" (مكان تكثر فيه الأسود)، "خَفَّان" (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، "تَبَالَة".

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية فى الجزيرة العربية فى ذلك العصر، ألا وهو أنواع الحيوان والطيور التى كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهليين. وفى كثير من هذه الأمثال نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يروون طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأى أو لا. والملاحظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفة فى مثل مختلف، كما أنهم قد يصفون عدة حيوانات أو طيور بصفة واحدة. ولسوف أذكر نص كل مثل ورد فيه ذكْرُ حيوان أو طير: فمنها "استنوقَ الجمَل"، "أَتْبَع الفرسَ لجامها"، "إذا نام ظالعُ الكلاب"، "أرغوا لها حوارها تَقِرَّ" (الحوار: ولد الناقة)، "أصيدَ القنفذُ أم لُقطة؟"، "أنكحنا

الْفَرَا، فسرى" (الْفَرَا: الحمار الوحشى)، "أخوك أم الذئب؟"،
"أخذه الله أَخَذَ سَبْعَةَ" (السَّبْعَةُ: اللبوة)، "أعط أخاك من عَقَنَقْل
الضَّبِّ"، "أَطْرِقُ كَرَا، إن النعام فى القرى" (الكَرَا: الواحد من
طيور الكِرْوَان. والمراد أنك أهون من أن أقصدك بكلامى، بل
أقصد قوما يستحقون الكلام)، "البُعَاث بأرضنا يستنسر"
(البُعَاث: طير صغير ضعيف)، "أَذْنَى حماريك ازجرى"، "آمَنُ
من حمام مكة"، "أَلْفُ من غراب عُقْدَةٌ"، "أَكَلُ من سوس، أو
من فأر، أو من حوت، أو من الفيل"، "بالت بينهم الثعالب"
(ثار بينهم الشر)، "خَرَّتْ بينهم الضبع" (نفس المعنى السابق)،
"أَبْعَدُ من بَيْض الأثوق" (الأثوق: ذَكَر الرِّخْمَةِ)، "أَبْصَرَ من
عُقَاب، أو من نَسْر، أو من فرس"، "أَبْصَرَ بالليل من
الوَطَواط"، "أَبْرَّ من الهِرَّة، أو من الذئبة"، "أبكر من الغراب"،
"أبجل من كلب"، "أبلد من السُّلْحَفَاة، أو من الثور"، "أبيض
من دجاجة"، "أبجر من صقر، أو من فهد"، "أَبْوَلُ من كلب"،
"تركته على مِثْل مِشْفَرِ الأسد" (أى عُرْضَةً للهلاك)، "تَقَلَّدَهَا
طَوَّقَ الحمامة" (لزمه عارها إلى الأبد)، "أَتْبَعَ من تَوْلَب" (ولد
الحمار، لأنه يتبع أمه لا يفارقها أبدا)، "أَتْعَب من راكب
فَصِيل" (ولد الناقة، لأنه لم تتم رياضته بعد)، "أَتخَم من فصيل"
(لأنه يشرب من اللبن فوق طاقته)، "أَتَيْسُ من تِيوس تُوَيْت"،
"الثور يُضْرَبُ لما عافت البقر" (يقال فى من يُؤْخَذُ بذنب

غيره)، "أثبت من قُرَاد"، "أثقف من سِنَّور" (وهو القَط، لأنه يعرف كيف يصطاد الفأر فلا يخطئ أبدا)، "الجحشَ لَمَّا بَدَكَ الأَعبار" (إرضَ بما هو متاح لك واستكفِ به عما لا تستطيعه. والعَيْر: الحمار الكبير)، "أجبن من صِفْرِد، أو من كَرَوَان (طائران)، أو من ثُرْمُلة (الثعلب)، أو من الهِجْرَس (القرد)، أو من الرُّبَّاح (ولد القرد)"، "أجرأ من ذباب، أو من خاصِصى الأَسد"، "أجول من قُطْرُب" (دابة لا تكف عن التجوال ليلا أو نهارا)، "أجوع من لَعوة (وهى الكلبة)، أو من الذئب، أو من قُرَاد"، "أجشع من كلب"، "أجهل من فراشة، أو من حمار، أو من عقرب، أو من نملة، أو من راعى ضأن"، "حمارٌ اسْتَأْتَنَ" (أى تحول إلى أتان، وهى أنثى الحمار)، "حتى يجتمع مِعْرَى الفِرْزُ" (الفِرْز: رجل تفرقت مِعْزَاهُ في كل مكان، وهو مثل يُضْرَب للاستحالة)، "حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوَان" (مثل لمن يحال بينه وبين مراده. والنَّزَوَان: الوثوب)، "حُمَيْرُ الحاجات" (للشخص الذليل المتهن في الأشغال الشاقة)، "أحمق من الضبع، أو من الرَّخِل (أنثى ولد الضأن)، أو من نعجة على حوض، أو من أم الهنبر (والهنبر: الجحش، وأمه هى الأتان)، أو من الجهيزة (أى الذئبة)، أو من حمامة، أو من نعامة، أو من رَحْمَة، أو من عَقَّع"، "أكيس من الرَّحْمَة"، "أحذر من قِرْلَى (طائر يغوص في الماء فيستخرج السمك)، أو من ذئب، أو من

غراب، أو من عَقَّعق، أو من ظليم (ذكر النعام)، "أحزم من القِرْلِي، أو من الحرباء"، "أَحْيَر من الضبِّ، أو من الوَرَل" (وهما حيوانان إذا خرجا من جحرهما لم يهتديا إليه ثانية)، "أحيا من الضبِّ" (أى أطول حياةً منه)، "أَحْوَل من الذئب" (لبراعته في الحيلة)، "أحول من أبى راقش" (لأن ألوانه تتحول ولا تثبت على لون واحد)، "أحرس من كلب"، "أحرص من ذئب، أو من كلب، أو من خنزير"، "أحطم من الجراد"، "أحققد من جمل"، "أحنّ من شارف" (وهى الناقة المستنة)، "أحكى من قرد"، "أَحْمَى من است النمر، أو من أنف الأسد"، "خَلَّه دَرَج الضبِّ" (دعه على عماه)، "الخيَل أعرف بفرسانها"، "الخيَل مِيَامِين"، "الخروف يتقلب على الصوف" (مَثَلٌ يُضْرَبُ للتقلب في النعمة)، "أخفّ من فراشة"، "أخفّ رأساً من الذئب، أو من الطائر" (إذ أقل شيء يوقظهما)، "أخفّ حِلْمًا من بعير، أو من العصفور" (أى أهما قليلا العقل)، "أخرق من الحمامة" (لأنها لا تحسن بناء عشها)، "أخلف من بول الجمل"، "أخلف من ثيل الحَمَل" (الثيل: كيس عضو الحَمَل، لأنه يتجه إلى غير جهة البول)، "أخلف من الصقر" (أنتن رائحةً من فم الصقر)، "أخبت من ذئب العَضَى"، "أَخْوَن، أو أَحْتَل، أو أَحَبّ من الذئب"، "أخبّ من ضبِّ، أو من تُعَالَة" (وتعالَة: الثعلب)، "أَخْيَل من ديك، أو من غراب"، "أخطأ من ذباب، أو من

فراشة"، "أخطف من عَقَاب، أو من قِرْلَى"، "أخشن من شَيْهَم" (وهو ذكر القنفذ)، "أَدَبٌ من فُرَاد، أو من عقرب، أو من ضَيُون (أى السَّنور)، أو من فَرَنْبَى (دُويِّة تشبه الحنفساء)"، "الذئب يُدعى: أبا جَعْدَة" (لا تغتر بما يظهره فلان من الكرم، فإنما هو كالذئب الغدار"، "الذَّوْدُ إلى الذَّوْدُ إبِل" (القليل إلى القليل يصبح مع الأيام كثيرا. والذَّوْدُ ثلاث نُوق أو أكثر من ذلك قليلا)، "الذئب يَأْدُو للغزال" (يخدعه)، "ذَلَّ من بالت عليه الثعالب"، "أذَلَّ من عَيْر، أو من حمار مقيّد، أو من بعير السانية" (أى الساقية)، "أرَوَى من نعامه (لأنها قليلة العطش)، أو من الضبّ (لأنه، كما يقولون، لا يشرب أبدا)، أو من حية، أو من الحوت"، "أرْسَح من ضفدع" (والرَّسَح: خفة العَجَز)، "أزَنَى من هِجْرَس، أو من هِرّ"، "أزهى من غراب، أو من وَعَل (وهو التيس الجبلى)"، "سقط العشاء به على سِرْحان" (السِرْحان: الذئب. أى أنه بدلا من أن ينال ما كان يبغيه قد أصابه مكروه)، "سواسية كأسنان الحمار" (فى الشر)، "سَمَنَّ كلبك يأكلك"، "أَسْمَع من سَمِع (ابن الذئب من الضبع)، أو من فُرَاد (لأنه، فيما يقولون، يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم)، أو من فرس (إذ كانوا يعتقدون أنه يسمع صوت الشعرة التى تسقط عن بدنه)"، "أَسْلَح من حُبَارَى، أو من دجاجة"، "أَسْبِح من نُون" (أى الحوت)، "أسهر من جُدْجُد"

(صَرَّار الحقل)، "أشمّ من النعام، أو من ذئب، أو من هقل (ذكر النعام)"، "أشره من الأسد"، "أشرد من خَقِيدَد" (وهو ذكر النعام)، "أشكر من كلب"، "أشدّ من الفيل"، "أشرب من الهيم" (الإبل العطاش)، "أصُول من جمل" (يُضْرَبُ به المثل في شدة العضّ)، "أصبر من الضبّ، أو من حمار"، "ضَلَّ ذُرَيْصٌ نَفَقَه" (يُضْرَبُ مثلاً لمن لا يهتدى في كلامه أو في فعله. والدَّرْصُ: ولد الفأر، لأنه إذا خرج من جحره لم يستطع الاهتداء إليه كرة أخرى)، "الضبع تأكل العظام ولا تعرف قَدْرَ اسْتِهَا"، "أضلّ من ضبّ، أو من وِرْل"، "أطول ذمَاء من الضبّ، أو من الحية، أو من الأفعى، أو من الخنفساء" (لأنها لا تموت سريعاً، بل تظل تتحرك فترة طويلة بعد قتلها)، "أَطِير من عُقَاب، أو من حُبَارَى" (كانوا يظنون أنها تطير عبر بلاد متناوحة في زمنٍ جدّ قصير)، "أَطِيش من فراشة، أو من ذباب"، "أطفس من العِفْرُ" (الختير)، "ما بقى منه إلا ظمء حمار" (لم يبق فيه إلا القليل)، "أظلم من حية، أو من وِرْل" (لأنهما يدخلان جحر غيرهما ويستوليان عليه)، "أعزّ من بَيْض الأثوق، أو من الغراب الأعصم"، "أعطش من النقاقة (أى الضفدع، لأنها إذا فارقت الماء ماتت)، أو من النمل (لأنه يكون في القفر فلا يرى الماء أبداً)، أو من حوت"، "أَعْيَث من جَعَار" (وهى الضبع، فهي إذا وقعت في الغنم أفسدت أيما إفساد)، "أعجل من نعجة

إلى حوض"، "أعمر من ضبّ (إذ كانوا يقولون إنه يعيش أطول كثيرا من مائة عام)، أو من قُرَاد (فقد كانوا يعتقدون أنه يعيش إلى سبعمائة سنة)، أو من نسر (لأنهم كانوا يظنون أنه يعيش خمسمائة عام)، "أغرّ من ظبي مُقْمِر"، "أغوى من غوغاء الجراد"، "أغزل من عنكبوت"، "أغلم من صَيُون" (ليس أشد شهوة من السّور فيما يقولون)، "أفسد من الجراد، أو من السوس، أو من الأرّضة، أو من الضبع"، "أفسى من ظربان، أو من خنفساء، أو من نمس"، "قف الحمار على الردهة، ولا تقل له: ساء" (الردهة: نقرة الماء التي يشرب منها. ومعنى المثل: أره الطريق، ثم اتركه يتصرف ولا تخف عليه)، "أقود من مْهَر"، "كُلّ الصيد في جوف الفَرا"، "كل شاة تُنَاط برجلها"، "الكلب أَحَبّ أهله إليه الطاعن"، "أكيس من قِشَّة" (جَرُو القرد، وهو مثل يضرب للولد الصغير العاقل)، "أكسب من نمل، أو من فأر"، "لقد كنتُ وما أُخشَى بالذئب" (للذل بعد العز)، "لو تُرك القَطَا لنام" (هذا مثل قولنا: نوم الظالم عبادة. والقَطَا: الحمام البرى)، "لبستُ له جلد النمر" (أبديتُ له العداوة الشديدة)، "ألين من خِرْنِق" (ولد الأرنب)، "أمسخ من لحم الحُوَار"، "أمنع من عُقاب الجو"، "ناب"، "وقد يقطع الدَوِيَّة النَّاب" (الناب: الناقة المسننة، والدَوِيَّة: الفلاة السحيقة. والمعنى أنه، على كبر سنه وضعفه، قد يصلح للسفر الطويل المرهق)،

"أنعس من كلب"، "أنبش من جِيَال" (الضبع مشهورة بنبش القبور)، "أنوم من فهد، أو من غزال، أو من الظَّرَبان"، "أنزى من طيى، أو من جراد" (لأنهما كثيرا القفز والحركة لا يستقران)، "وَجَدَ تَمْرَةَ الغرابِ" (حصل على أحسن شيء، لأن الغراب، فيما يقولون، ينتقى أجود ثمرة ويأكلها)، "أولغ من كلب"، "هما كركبتي البعير" (أى متساويان فى كل شيء)، "هما كَفَرَسَى رِهَان" (دائما التنافس فى الخير)، "أهون من حُنْدُج (وهى القملة)، أو من ضرطة عتر"، "لا تفتن من كلب سوء جَرَوًا"، "لا ناقتى فيها ولا جملى" (أمر لا يهمنى)، "لا ينتطح فيها عتران" (قضية محسومة لا جدال فيها).

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهليين فى عالم الحيوان والطير مما لا نعرف نحن الآن عشر معشاره رغم التقدم العلمى والثقافى الذى تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض الأخطاء فى تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعى، إذ إن العرب ليسوا بدعًا بين البشر، فهم يجمعون فى معلوماهم بين الخطأ والصواب. ولكن يكفئهم شرفا وفضلا أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا فى الأمثال التى سلفت، وفيما عرفوه من الفروق بين الذكر عن الأنثى فى الطباع والخصائص كالجمل والناقة طبقا لما جاء فى المثل القائل:

"اسْتَنَوَقَ الجمل"، أو "حِمَارٌ اسْتَأْتَنَ" (أى ظهرت على كل منهما علامات الأنوثة، فاقترب الأول أن يكون ناقية، والثاني أن يكون أتاناً)، وتخصيص اسم لكل عمر من أعمار الحيوان: فالخُوار هو ولد الناقية، والفصيل هو الشاب من الإبل، على عكس الناب، التي هي الناقية المسنة، ثم الشارف، التي تأتي بعد ذلك. وهناك الدَّرْصُ والحِيسْلُ والسَّمْعُ والفُرْعُعل والهَجْرِسُ والجحش والطبي والمهُرُ والحِرْنِقُ والجَرُوُ والحَلَمُ، وهي صغار الفأر والضبّ والذئب والضيع والقرود والحمار والغزال والحصان والأرنب والكلب والقرّاد على التوالي. كذلك هناك الجمل والناقية، والأثوق والرَّخَمَة، والأسد واللبؤة، والحصان والفرس، والحمار والأتان، والمهقل والنعامة، والذئب والجهيّزة، وهما الذكر والأنثى من كل حيوان من هؤلاء... وهلم جرا.

وقد رأينا كيف استطاعوا التمييز بين طباع كل حيوان وغيره حتى في مسائل التبول، ورائحة الفم، والعطش أو الرّي، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنه، والعزة أو الذلة مثلاً، وإن اشتركت بعض الحيوانات في هذه السمة أو تلك من تصرفاتها... مما مر بيانه من الأمثال التي أوردناها آنفاً. ويمكن أن يلحق بذلك ما تحدثت عنه الأمثال من شجر ونبات: "تري الفتيان كالنخل، ولا يُنبئك ما الدّخل" (أى أن المهم هو مخبر الإنسان لا مظهره)، "أشبه شَرْجٌ شَرْجاً لو أن أسَيُوراً"

(والأسيير: تصغير "أسمر"، وهى جمع "سَمْرَة"، نوع من الشجر ينبت في بلاد العرب)، "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "عَصَبْتَهُ عَصَبَ السَّلْمَةِ" (والسَّلْم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره في الدباغ، ويسمى ورقه: "القَرَط")، "أرْخُ يديك واسْتَرِخْ، إن الزناد من مَرْخ"، "في كل شجرة نار، واسْتَمَجَد المَرْخُ والعَفَار" (والمَرْخُ والعَفَار: شجرتان تُقَدح أغصانها لاستخراج النار منها)، "أشعث من قَتادة" (وهو شجر كثير الشوك)، "مَرَعَى ولا كالسعدان" (شوك تأكله الإبل فيغزر لبنها)، "أخبث من ذئب الغصى" (والغصى: شجر جيد للوقود).

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التي تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكية: فمن ذلك قولهم: "أبعد من العيوق"، "أثلى من الشعرى" (لأنهما تتلو الجوزاء)، "أريها السُّها، وتربى القمر"، "أرق من رقراق السراب"، "أطول صحبة من الفرقدين" (لأنهما نجمان لا يفترقان)، و"بنات نعش" (كواكب معروفة)، "برق حُلب" (وهو البرق الكاذب الذى لا يعقبه مطر)، "أرنيها نَمرة، أُرْكَها مَطْرة" (ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر. وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين الماطر منها وغير الماطر. وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلادهم كانت

تعتمد على المطر في المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال في مصر، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون في خيام منصوبة في العراء لا في بيوت تعوق أعينهم عن النظر الحر المرتاح إلى الفضاء والأفق والسماء).

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنا مثلاً نراهم يقولون: "أن تَرِدَ الماءَ بَما أَكيسَ" لمعرفتهم أنهم متى انقطعوا عن الماء في باديتهم المتناوحة التي كثيراً ما يعزّ فيها عنصر الحياة الأول فقد يهلكون. وبالمثل نقرأ في المثل التالي أن "آخرها (أى آخر الإبل الواردة على الماء للسقى) أقلها شرباً"، إذ تَرِدُ وقد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تَرِدُ ولم يُعد الماء صافياً كما كان للإبل التي شربت مبكرة، فضلاً عن أن تأخير السقى هو دليل على العجز والمذلة. وإذا كانت هناك عين ماء طيبة فسرعان ما تشتهر بينهم: "ماءٌ ولا كصداء"، "إن أضاحاً منهلاً" مورود، "أعذب من ماء البارق، أو من ماء الحشرح". وثمة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء من البئر بالحبال والدلاء: "بئس مقام الشيخ: أمرس! أمرس!"، أى أنه لا يليق بك أن تزاول عمالا لا يناسب مكانتك، مثل وقوفك على شفا بئر وسُقْيَاك بالحبل، الذى قد ينقطع في يدك فيصيح الناس بك أن

"أَمْرِسُ! أَمْرِسُ!"، أى أعد الحبل إلى مكانه من البكرة. ومن أمثال الاستقاء أيضا قولهم: "أَلْقِ دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ". كذلك استطاع العرب القدماء أن يفرقوا بين الحيوانات والطيور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى الماء، وسرعة أو بطء هذه الحاجة مثلما مضى بيانه في الأمثال التي قرأناها معا، وهو ما يبين لنا كيف كان الماء يحتل من أذهانهم واهتمامهم مكانا مكيئا.

ومن الجوانب التي تتعلق أيضا بالبيئة العربية القديمة ما كان الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حِرَف تقوم على ما هو متوفر في هذه البيئة من ثروات أو إمكانات طبيعية: خذ عندك مثلا الدبغ، الذى جاء في أمثالهم عنه قولهم: "إِنَّمَا يُعَاتَبُ الأَدِيمُ ذُو البَشْرَةِ"، بمعنى أن العتاب لا يصلح إلا مع من لا يزال فيه خير، كالجلد الذى يراد دبغه، فإن كانت له بَشْرَةٌ، وهى ظاهر الجلد (على عكس الأَدَمَةِ، التى هى باطنه)، صلح دبغه، وإلا لم يحتمل الدبَّاغ وتمزق. كذلك لا بد، فى عمية الدبَّاغ، أن بُكْشِطَ اللحم تماما من أديم الجلد ولا يترك عليه أى بقايا منه، وإلا فسد الجلد سريعا: "أَحْمَقُ مِنَ الدَّبَّاغِ عَلَى التَّحْلِىءِ". والتحلىء: ترك بقايا اللحم على الجلد، وفى هذه الحالة لا يصل إليه الدبَّاغ. وهناك مثل آخر يرد فيه ذكر "القارظ" على النحو التالى: "إِذَا مَا القَارِظُ العَنْزِيُّ أبَا"، وهو جامع القَرَطِ، أى ورق

شجر السَّلْم المستعمل في عملية الدباغ. وهذا المثل يُضْرَب للوعد الذى لا يمكن أن يتحقق لأنه معلق على شرط مستحيل، فالقارظ العَنْزِيّ لم يعد من جولته في جمع القَرَط حتى الآن، بل لن يعود أبد الدهر لأنه مات في الطريق. وهناك أيضا المثل التالى: "أَرْتَعَنَ أَجَلِيَّ أَنِّي شِئْتُ"، أى أن الموضوع المسمّى: "أَجَلِيَّ" هو من المواضع الصالحة للرعى في أى وقت وفي أى موضع منه. ومنها كذلك: "مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ". وكان للرعى أصوله التى لا بد للرعى من مراعاتها، وإلا فسد عمله: "أَسَاءَ رَعِيًّا فَسَقَى مُقْصِبًا"، أى أنه لم يُشِيعِ إبله من الكلال كما ينبغي واضطرَّ أن يملأ بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فأضُرَّ بها ذلك ضررا شديدا. والإقصاب: أن تمتنع إبل الرعى عن الشرب. كذلك كانوا يجلبون ماشيتهم بأنفسهم: "حَلَبْتُهَا بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ"، "أُحَلِّبُ حَلْبًا لَكَ شَطْرَهُ" (و"الحَلْب" هو ما يُحَلَّب من اللبن)، "حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطْرَهُ".

ومن المهن التى كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأبير النخل: "جَبَابٌ، فَلَا تُعَنَّ أَبْرًا"، والآبر هو ملقح النخل، والمقصود أن النحلة لا طَلَع فيها، بل الموجود جَبَابٌ فحسب، أى جُمَّار، ومن ثم فلا فائدة في التأبير أصلا. ومن هذه المهن أيضا الحُدَاء: "كالحادى، وليس له بعير"، والحادى هو سائق الإبل الذى يحدوها، أى يغنى لها حتى تنشط للسير ولا يعتربها

الضعف والكلال. أما المثل الذى وجدته عن "الحذاء" فيجرب عكس هذا، إذ يقول: "من يكن الحذاء أباه يجد نعلا". والحدادة مهنة أخرى من المهن التى عرفها العرب: "إذا سمعتَ بِسْرِى الْقَيْنِ فَإِنَّهُ مُصْبِحٌ"، أى لا تصدق كل ما تسمع، فكثيرا ما يقول الناس كلاما ويقصدون عكسه، كفعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليلته كى يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوى البقاء حيث هو. وهناك مثل مشهور يذكر "الحابل" و"النابل"، أى الصائد بالشبكة والصائد بالتبيل: "اختلط الحابل بالنابل". ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن "القوس" وصانعه: "أعطِ القوسَ باريها"، وهو كما نقول فى مثلنا العامى: "أعط العيش خبازه". ومثل ثالث يذكر "السهام": "قبل الرمى يُرَاش السهم". ورابع يتحدث عن "الكنانة": "قبل الرمى تُملأ الكنائن".

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طبا بدائيا بطبيعة الحال: "يا طبيب، طبّ لنفسك". وكذلك البيطرة: "أشهر من راية البيطار"، "أهون من ذئب الحمار على البيطار". وكان من طبهم الكيّ: "آخر الدواء الكيّ"، "قد يضطرب العير، والمكواة فى النار". كما كانوا يعالجون جرب الماشية بما يسمونه "العنية": "عنيته تشفى الجرب"، وهى قَطْران وأخلاق تُجمَع ويُهَنَأ بها البعير الأجرى. ولعملية الهناء أصولٌ منها ألا يقتصر الهانئ

على ذهن موضع الجرب فقط، بل يعم سائر بدن البعير: "ليس الهناء بالدس" (والدس: الاقتصار في الهناء على المكان المصاب بالجرب). وقد ورد في مثل من أمثالهم إشارة لمرض كان يصيب البعير، وهو "الغدة": "أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلوية؟". أما المثل التالي فيشير إلى مرض آخر هو "القلاب"، وهو داء يصيب الإبل في رؤوسها فيقلبها إلى فوق: "ما به قلبه"، أى أنه سليم لا يشكو من أى داء. وقريب منه داء الصعر، وهو داء يأخذ في رقاب الإبل فيميلها: "الأقيمَن صَعْرَك". وكان الجاهليون يجنون الوشم، الذى كثيرا ما شبه الشعراء به ما يروونه في أطلال حبايبهم من الخطوط وآثار الريح: "أثبتت من الوشم". ومن أعمالهم التى كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: "اتسع الخرق على الراقع"، وجمع الخطب للنار: "أخبط من حاطب ليل"، والطحن بالرّح: "أسمع جمعجة ولا أرى طحنا"، و"الطحن" هو الدقيق، والمعنى أن هناك ضجة، لكن ليس هناك دقيق، أى أنها ضجة على الفاضى.

ويتصل بهذه الأمثال تلك التى ورد فيها ذكر لما كانوا يتخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: "أبغى من إبرة"، والفأس: "أبغى من فأس"، والقِدْح: "أبغض من القِدْح الأول"، والعصا: "أبقى من تفاريق العصا"، والخيط:

"أدق من خيط"، والحبل: "إن الشقي بكل جبل يُخنق"،
والحذاء: "أدنى من الحذاء"، ورباط النعل: "أدنى من الشسع"،
والمجمر (المبخرة): "استلمت لم تُعوّد المجر"، والخذروف (وهو
لعبة للأطفال تشبه ما نسميه في مصر بـ "التخلّة"):
"أسرع من الخذروف"، والأثفية (الحجر الذى كانوا ينصبون
منه ثلاثة تحت القدر): "أصبر من الأثافي على النار"، والجلّم
(المقص): "أقطع من جلّم"، والعصا: "أكثر من تفاريق العصا"،
والشفرة: "إن وجدت لشفرة محرّاً"، والمرآة: "أنقى من مرآة
الغريبة"، والجلجل: "أنم من جلجل"، والسيف: "تركته على
مثل حرف السيف"، والصحيفة: "صحيفة المتلمس"، والكنانة
(جعبة السهام): "قبل الرماء ثملاً الكنائن"، والدلو: "قد علقته
دلوك دلو أخرى"، والمجن: "قلبت له ظهر المجن"، والمكواة:
"قد يضرب العير والمكواة في النار".

أما أطعمتهم فهذه بعض الأمثال التي تتحدث عنها مما
وضعت يدي عليه أثناء تجوالى في كتاب العسكرى: "إن
وجدت إليه فاكرش"، أى إن وجدت إليه سبيلاً فسوف أطبخ
الشاة في كرشها. ومن أسماء أطعمتهم "اللّبأ"، وهو أول الألبان
عند ولادة الحيوان: "أبى أبى اللّبأ". ومن أطعمتهم أيضاً
"الرّببكة"، وهى أقط بسمن وتمر يُعمل رخواً: "غرثان، فاربكوا
له"، أى أنه جائع فلا تكلموه فى أى شىء لأن ذهنه مشغول

بالجوع والطعام، بل أعَدُّوا له الرِّبِيكَةَ أَوَّلًا، فإذا أكل رجع إليه عقله. وهذا مثل قولنا: "ساعة البطون تتوه العقول". وأصل المثل، حسبما يروون، أن رجلا عاد من سفر فأخبروه أن امرأته قد ولدت له غلاما، فلم يهتم بالخبر لأنه كان يعاني من بُرْحاء الجوع وقال: وما أصنع به؟ آكله أم أشربه؟ فطلبت منهم زوجته أن يطعموه أولا. وقد كان، إذ بعد أن أطعموه ارتد إليه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهو سعيد محبور. ولدينا كذلك طعام "السَّوِيق": "جَدَحَ جُوَيْنٍ مِنْ سَوِيقٍ غَيْرِهِ"، وهو طعام سائل يُصنَع من القمح والشعير على عجل للمسافر والجائع الذى لا يصبر. والمراد أن جُوَيْنًا هذا، لأنه لا ينفق من ماله ولا يأكل من سَوِيقه بل من سَوِيق غيره، فإنه يسرف ولا يبالي بالاقتصاد. والجَدَح: الشُّرْب. كذلك كانوا يصطادون الضَّبَّ ويأكلونه: "ما أبالى أناءَ ضَبِّكَ أم نَصِجٍ"، "أعط أخاك من عَقَنَقَل الضَّبِّ"، ويسمون صيده: "حَرَشًا": "هو أعلم بضبِّ حَرَشِهِ"، وما فتى الضَّبُّ يُؤَكَّل في الخليج حتى يومنا هذا. وبالمثل كان العرب في الجاهلية يصطادون حمار الوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكره في قولهم: "كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا"، "أَخْلَى من جوف حمار"، لأنهم كانوا يلقون بما في جوفه ولا ينتفعون به. كما كانوا يأكلون "الكَمَّاءة"، التى لا يزال الناس هناك يتلذذون بطعمها حتى الآن. وهى، كما تقول

المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفُطْر. وهناك نوع منها يسمّى: "الفَقْع": "أذلّ من فَقَعِ بقرْقَرَةٍ"، لأنه يظهر على سطح الأرض فتطوّه الأقدام، وإن كان هناك نوع آخر يحتاج إلى أن ينيش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التي وردت بها الأمثال "العسل": "أحلى من العسل، أو من الشهد". كما كانوا يصنعون "الزُّبَاد" من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالي: "اختلط الخاثر بالزُّبَاد". ومن طعامهم في الجاهلية أيضا "الدم"، وذلك بعد أن يَفْصِدوه من عِرْقِ الناقة أو الفرس ثم يملأوا المِصْران به، ثم يشووه ويأكلوه. وهذا الطعام يسمّى: "الفَصِيد": "لم يُحْرَمَ مَنْ فُصِدَ له"، أى أن الفَصِيد طعامٌ كافٍ لمن يُقَدِّم إليه. وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والمكروبات، التي تضر الجسم والتي تسرى إليه عند أكل الإنسان إياه. وكانوا يحفظون الدُهْن المذاب في سِقَاء، وهذا الدهن يسمّى: "الإِهَالَة": "كحاقن الإِهَالَة"، أى أنا خير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإِهَالَة في السِقَاء، إذ كان الأمر يتطلب تأكيد الحاقن تماما، عن طريق إيلاج إصبعه في الإِهَالَة، ألما قد بردت بحيث لا تفسد السِقَاء بسخونتها. كما وردت أمثالهم بـ "الزيت": "أَوْفَى من كَيْل الزيت". كذلك كان "الشعير" من طعامهم، وإن لم يكن من

أشهاه إلى نفوسهم: "كالشعير: يُؤكَل ويُدَمَّ". ومن الفاكهة التي ذكرتها الأمثال "التمر": "كُمُسْتَبَّضِ التمر إلى هَجَر" (وهو كقولنا: "بيع الماء في حارة السقائين")، "وَجَد تَمْرَةَ الغراب". وقد جاء ذكر "الحَشَف" وهو أَرْدَأُ أصنافه، في مثل آخر: "أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟"، و"العنب": "إنك لا تجنى من الشوك العنب"، "أَعْجَزُ من مُسْتَطْعِمِ العنب من الدَّفْلَى"، إذ الدَّفْلَى نبات ورقه أشعر شائك، وطعمه مُرٌّ. وكان كثير من أهل الجاهلية يَغْرَمُونَ بـ "الخمر"، ويُكْثِرُونَ شعراؤهم من التمدح بشرها ويَعْدُونَهُ من علامات الكرم والسيادة، حتى جاء الإسلام وحرّمها تحريما تاما. ومن أمثالهم في أم الخبائث قولهم: "الذّ من مذاق الخمر".

وللأمثال، فضلا عن الجوانب التي مرت، جانب آخر يمكن أن يُنظَر إليها منه هو الجانب النفسى والخلقى والاجتماعى: فالمثل التالى على سبيل المثال يشير إلى وجه من وجوه الطبيعة الإنسانية، ألا وهو أهمية الإيحاء الذاتى في علاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكن أن تنحل أو يسهل حلها إذا وضع الشخص في اعتباره أن هناك أملا كبيرا في التغلب عليها: "اكذب نفسك إذا حَدَّثْتَهَا"، وإلا فليس له مَعْدَى عن الصبر، وهو الدواء الذى لا بد من تجرعه على مرارته: "حيلة من لا حيلة له الصبر". كما أن طبيعة الاجتماع البشرى

تقتضى من الإنسان أن يتغاضى عن بعض حقوقه وأن يكون مرنا مع الآخرين وألا يؤاخذهم بكل صغيرة وكبيرة حتى تسير عجلة الحياة: "إذا عَزَّ أخوك فهُنَّ"، "إذا رأيتَ الريحَ عاصفًا فطَاطَمَنَّ"، "أى الرجال المهذب؟"، "طَوَيْتُهُ عَلَى بُلَاتِهِ"، مع معرفة أن "رضا الناس غاية لا تُدْرَك"، وأن الطوائع الشخصية عصبية على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنسان على ما شَبَّ عليه: "أَعْيَيْتَنِي بِأُشْرٍ، فَكَيْفَ بَدْرُدُرُ؟"، "مِنَ العناءِ رياضةُ الهَرَمِ". ثم هناك العصبية القبلية التي لا يمكن الفكك منها، ولذلك قيل في أمثال الجاهلية: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، وهو ما صححه الرسول الكريم عندما حوَّره بعض التحوير فقال إن نُصِرْتَكَ أخاك ظالما إنما تكون بمنعه من الظلم، معطيًا عليه السلام هذا المثل بعدا أخلاقيا عظيما. كذلك هناك المثل التالى الذى يتعامل مع الطبيعة البشرية تعاملًا مغرقًا فى الواقعية بل فى اللإنسانية دون مراعاة المثل الأعلى فى قليل أو كثير، وهو: "أَجْعُ كلبك يتبعك". وفى قولهم: "جَلَّى محبُّ نظره" تعبير عن حقيقة نفسية تشاهد فى الخبين، إذ مهما حاول الواحد منهم إخفاء مشاعره تجاه معشوقه عن الناس فإن عينيه تفضحانه. وقد قال الشاعر: "الصَّبُّ تفضحه عيونُه". كذلك يحسن بالإنسان، إذا أراد أن يظل عزيزا محبوبا مكرما، ألا يكثُر الزيارة للآخرين مهما كانوا يحبونه ويريدونه ألا يقطع

رجله عنهم: "زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا"، وألا يُكْثِرَ كَذَلِكَ مِنَ الْمَزَاحِ، فإنه سبيل إلى نشوء البغضاء حتى بين المتحايين: "المزاح لقاح الضغائن".

وفي دنيا الزواج والأسرة تطالعا الأمثال التالية، وهى مأخوذة من واقع الحياة الذى لا سبيل إلى تغييره ولا نكرانه: "زَوْجٌ مِنْ عَوْدٍ خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ"، وهو ما يقال عنه فى أمثالنا العامية: "ظِلٌّ رَجُلٍ وَلَا ظِلٌّ حَائِطٍ"، "العَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الخِمْرَةَ"، "بينهم داء الضرائر"، "إن الحماة أولعت بالكِنَّة * وأولعت كَنَّتْهَا بِالظَّنَّةِ"، "أَصَلَّ مِنْ مَوْؤُودَةٍ"، وهى البنت الصغيرة التى تُدْفَنُ حية، وكان بعض الجاهليين يَبْدُونَ بناهم خوفا من الفقر أو العار. على أن هناك مثلا يبدو أنه يعكس اعتقادا راسخا عند العرب منذ قديم الزمان، ألا وهو أن الحظ عليه معوّل كبير فى حياة الإنسان. ولقد كنت أضيق أشد الضيق بمثل هذا الكلام وأؤكد دائما أن السعى والتخطيط واليقظة هى عمود كل نجاح، ثم تبين لى أن للحظ دورا لا يُنكَرُ فى حياتنا، وأنه قد يرفع أقواما حقهم الاتضاع، ويخفض أقواما يستحقون كل خير ورفعة. ذلك أن أمورنا نحن العرب لم تزل تجرى على غير تخطيط، كما أن القيم الإسلامية العظيمة لا يؤخذ بها فى كثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا يحصل على حقه، على حين يروون من لا يستحقون قد سبقوهم سبقا فاحشا دون أدنى

مسوّغ. ومن هنا صحَّ المثل العربي القديم القائل: "جَدَّكَ لا كَدَّكَ"، أى أن حظك هو الذى ستكون له الغلبة فى نهاية المطاف، وكذلك قولهم: "اسعَ بِجَدِّ أو دَعْ"، وأن "من غاب غاب نصيبه".

أما قولهم: "لو لك عَوَيْتُ لم أَعُو" فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلى فى الصحراء حين يكون مسافرا ويأتى عليه الليل فيجد نفسه وحيدا، فيعوى كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوبه كلابهم فيأتس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعا أو عطشا. كما أن المسافر فى الصحراء كان يمسك دائما بعضا يحمل عليها ملابسه وصرّة طعامه: "لو كان فى العصا سير". ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم فى الجاهلية كانوا يَخَوِّفون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يَخَوِّفون أبناءهم العَصاة بالعفريت والغول وأبى رجل مسلوخة وما أشبه: "لقد كنتُ وما أَخَشَى بالذئب".

ونختم بما ورد فى الأمثال الجاهلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم فى السانح والبارح: فالسانح ما مرَّ بك من طير أو حيوان من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مرَّ من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون

بالثاني: "من لى بالسائح بعد البارح؟". كما كانوا يتشاءمون
 بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهم التي خلّفوها،
 إذ يلتقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهم، فانعقدت الصلة
 في أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يتشاءمون به: "أشأم من
 غراب البين". ولم يقتصر تشاؤمهم على الحيوان والطير، بل
 كانوا يستنحسون بعض النجوم أيضا: "أنكد من تالى النجم"،
 وهو "الدبران"، الذى يتلو نجم "الثريا". كما كانوا يعتقدون فى
 "البلايا"، جمع "بليّة"، وهى الناقة التى كانوا يربطونها عند قبر
 صاحبها بعد أن يُعمّوا عينيها، ثم يتركونها هكذا دون طعام أو
 شراب حتى تموت، إذ كانت عقيدتهم أنّها بهذه الطريقة تكون
 جاهزة تحت تصرف صاحبها ليركبها يوم القيامة: "النايا على
 البلايا"، وهو مثل يُضرب للقوم الواقعين فى كرب لا مخلص
 منه، فهم يُشبهون "البليّة"، التى لا مفر لها من الموت. ومن
 خرافاتهم ما كانوا يقولونه عن السُّلَيْك بن السُّلَكَة، الشاعر
 الجاهلى الصعلوك المشهور، إذ كانوا يروون أنه ظل يعدو يوما
 وليلة كاملين سابقًا فارسين من فرسان الأعداء لم يستطيعا
 إدراكه قط حتى بلغ منازل قومه وحذرهم هجومًا وشيكا من
 أعدائهم، فأخذوا حذرهم ولم يقدر العدو أن يصيب منهم غرّة:
 "أعدى من السُّلَيْك". ومن مبالغاتهم التى تدخل فى باب
 الخرافات قولهم: "أَبَصَرَ من الزرقاء" (وهى زرقاء اليمامة

المشهورة، وكانوا يزعمون أنها من قوة البصر وحدته بحيث ترى على بعد ثلاثة أيام). وهناك مثل يقول: "أشأم من الزَّمَاح" (إشارة إلى طير كان يقع على بيوت ناس من أهل يثرب ويأكل من تمرهم ثم يطير فلا يعود إلى العام التالي، فرماه رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق ممن أكل من لحمه أحدًا حيًّا)، "أَعْمَرُ من حَيَّة" (لأنهم كانوا يظنون أنها لا تموت أبدا إلا إذا قتلها إنسان، وإلا فإنها إذا كبرت عادت فصغرت حتى تكبر ثم تعود فتصغر... وهكذا دواليك!)، "أَعْمَرُ من نَسْر، أو من قُرَاد" (إذ كانوا يؤمنون أن الأول يُعَمَّر خمسمائة عام، والثاني سبعمائة).

هذا، وهناك كتب خاصة بالأمثال ألفها بعض من كبار الكتاب العرب القدماء، ومنهم صُحَار العبدى وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى وثلعب والمفضل الضبيّ وأبو هلال العسكري والزمخشري والميداني. وهي كتب تُعنى بإيراد أكبر عدد ممكن من الأمثال العربية القديمة وشرحها وتفسير ما يحتاج من ألفاظها وتراكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضلا عن إيراد قصة المثل إن كانت وصلتهم، وقد تكون هذه القصة حقيقية أو خيالية، وإن كانوا في بعض الأحيان يعلنون عن عجزهم عن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكري مرارا، إذ قال مثلا عند تعرضه لقولهم: "أَبْدَحَ ودُبَّيْحَ": "يقولون: جاء بأبدح ودبيح،

إذا جاء بالباطل. ولم يُعَرَف أصله"، أى أن قصته لم تصله. أما في شرحه للمثل القائل: "بعين ما أَرَيْنَكَ" فقد علق قائلاً: "معناه: اغجَلْ. وهو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه. وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكماها، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء". وفي تعليقه على المثل التالى: "أحق من راعى ضأن ثمانين" نراه يقول: "ولا أدرى لم خُصَّت بالثمانين هنا"... إلخ. ومن هنا نرانا لا نوافق بروكلمان على ما قاله فى الأمثال من أن "من عُنُوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة فى حيرة من تفسيرها وإيضاحها" وما فيه من سخرية مبطنة (كارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ 1/ 129)، بل نؤكد أن هذا الكلام غير صحيح لعدة أسباب: الأول أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يوردون هذه القصص دائماً كما قلنا آنفاً. والثانى أنهم ليسوا هم الذين أَلَّفوا هذه القصص، بل كانوا مجرد نقلة لها حسبما وصلت إليهم. والثالث أن العسكرى مثلاً، حسبما رأينا معاً، قد أعلن عن عجزه فى عدة مناسبات مختلفة عن معرفة قصة المثل، بل حتى عن مجرد معرفة معناه فى بعض الأحيان. بل إنهم كثيراً ما يكتفون بإيراد المثل دون إضافة أية كلمة أخرى من لدنهم. وهو نفسه ما نقوله رداً على ما كتبه نيكلسون فى ذات الموضوع، إذ جاء فى كتابه: "A Literary History of the Arabs" أثناء

كلامه في هذه المسألة إن هذه الأمثال "نادرا ما تستغنى عن
الشرح، على حين أن ما كُتِبَ من تعليقات عليها إنما هي من
عمل علماء وضعوا نُصَبَ أعينهم أن يشرحوها مهما كلفهم
ذلك، رغم أن الظروف التي قيلت فيها قد نُسيَتْ تماما" (A

.(Literary History of the Arabs, P. 31

سَجَاءُ الْكُهَّانِ

الْكُهَّانُ الْعَرَبُ هُمْ طَائِفَةٌ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ كَانُوا يَقُومُونَ عَلَى سِدَانَةِ مَعَابِدِ الْأَوْثَانِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ الْعَرَبُ الْوَثْنِيُونَ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِمْ فِي حَسْمِ مَا يَنْشَأُ بَيْنَهُمْ مِنْ مَنَافِرَاتٍ أَوْ خِلَافَاتٍ قَبَلِيَّةٍ أَوْ أُسْرِيَّةٍ أَوْ فَرْدِيَّةٍ، أَوْ تَأْوِيلِ مَا يَقَعُ لَهُمْ فِي نَوْمِهِمْ مِنْ رُؤْيَى تَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ، أَوْ مَسَاعِدَتِهِمْ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَخْبِيهِ الْغَيْبُ مِنْ أَحْدَاثٍ أَوْ أَشْيَاءٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يَحْصِلُونَ عَلَى جُعَلٍ فِي مَقَابِلِهِ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْكُهَّانِ يَجِيبُونَ عَلَى مَا يُوجَّهُ إِلَيْهِمْ مِنْ اسْتَفْسَارَاتٍ بِكَلَامٍ مَسْجُوعٍ يُرَاعَى فِيهِ عَادَةً أَنْ يَكُونَ مَوْجِزًا غَامِضًا يَحْتَمِلُ وَجُوهًا مُتَعَدِّدَةً مِنَ التَّفْسِيرِ، فَضَلَا عَنْ احْتَوَائِهِ عَلَى بَعْضِ الْغَرِيبِ مِنَ اللَّفْظِ، بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ الْكَاهِنُ عِنْدَ اللَّزُومِ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ هَذَا الْمَعْنَى مِثْلًا بَلْ ذَاكَ، وَمَنْ ثَمَّ لَا يَظْهَرُ لِقُصَادِهِ وَطَالِبِي عَوْنِهِ أَنَّهُ يَخْطِئُ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَالَمِ الْغَيْبِ أَى اتِّصَالٍ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَقَاوِيلُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكُهَّانِ فِي مَنَاسِبَاتٍ وَقَضَايَا مُخْتَلِفَةٍ كَمَا فِي الْخَبْرِ الْمَرْوِيِّ عَنِ الْكَاهِنِ الْخُرَاعِيِّ، الَّذِي نَفَّرَ بَيْنَ هَاشِمِ جَدِّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَأُمِّيَّةِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَجَاءَ فِيهِ: "وَلَيْ هَاشِمٌ بَعْدَ أَبِيهِ عَبْدٍ مَنَافٍ مَا كَانَ إِلَيْهِ مِنَ السَّقَايَةِ وَالرَّفَادَةِ فَحَسَدَهُ أَمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بَنَ عَبْدَ مَنَافٍ عَلَى رِيَاسَتِهِ وَإِطْعَامِهِ، وَكَانَ ذَا مَالٍ.

فتكَلَّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشَمِت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة. فكره هاشم ذلك لسنّه وقَدْره، فلم تَدَعُه قريش حتى نافرهُ على خمسين ناقة سُودِ الحَدَقِ ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين. فرَضِيَ بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جدُّ عمرو بن الحَمِيق (الصحابي المعروف)، ومترله بَعْسُفان (بين مكة ويشرب). وكان مع أمية همهمة بن عبد العُزَيّ الفِهْرِيّ، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من مُنْجِدٍ وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةً إلى المآثر، أوّلٌ منه وآخِرٌ، وأبو همهمة بذلك خابر. فقضى هاشم بالغلبة وأخذ هاشمُ الإبلَ فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين. فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية".

ومنه كذلك ما قيل عن تكهّن عوف بن ربيعة الأَسدي بمقتل حُجْر بن الحارث، حيث تجرّى القصة على النحو التالي: "كان حُجْر بن الحارث أبو امرئ القيس ملك بني أسد، وكان له عليهم إتاوة كل سنة لما يحتاج إليه. فبقي كذلك دهرا، ثم بعث إليهم من يَجْبِي ذلك منهم، وحُجْرٌ يومئذ بتهمامة، فطردوا رسله وضربوهم. فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم فأخذ سَرَوَاتِهِمْ وخيَارَهُمْ وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا: "عبيد العصا"، وأباح

الأموال وصيّرهم إلى تَهَامَة وحبس جماعة من أشرافهم منهم
عبيد بن الأبرص الشاعر، فقال شعرا يستعطفه فيه، ومنه قوله:

أنت المَلِيك عليهمو وهم العبيد إلى القيامة

فرقَّ لهم وعفا عنهم وردَّهم إلى بلادهم. فلما صاروا
على مسيرة يوم من تَهَامَة تكهَّن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة
بن عامر الأسدي، فقال لهم: يا عبادي. قالوا: لبيك ربَّنَا.
فقال: مَنْ الملك الصَّلْهَب (الشديد)، الغلاب غير المغلَّب، في
الإبل كأنها الربرب (أى قطيع بقر الوحش)، لا يقلق رأسه
الصخب، هذا دمه ينثعب (يسيل)، وهو غداً أول من يُسْتَلَب؟
قالوا: ومن هو ربَّنَا؟ قال: لولا تَجِيْشُ نفس جاشية، لأخبرتكم
أنه حُجْرٌ ضاحية (أى علانية). فركبوا كل صَعْبٍ وذُلُولٍ حتى
بلغوا عسكر حُجْرٍ فهجموا عليه في قُبْتِه فقتلوه".

ثم هذا الخبر الذى يتحدث عن تعرُّض هند بنت عتبة
للشك فى شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لريبة ظنَّها فيها،
فحاكمه أبوها إلى كاهن من كهان اليمن قضى ببراءتها فعادت
مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعد الذى كان
منه فى حقها: "كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحدَ فتيان
قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكان له بيت للضيافة
يغشاه الناس فيه بلا إذن. فقال يوماً فى ذلك البيت وهند معه،
ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كان يغشى البيت،

فلما وجد المرأة نائمة ولى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة فدخل على هند وأنبأها وقال: مَنْ هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبأتهني، وما رأيت أحدا قط. قال: الحقني بأبيك. وخاض الناس في أمرهم، فقال لها أبوها: يا بُنيّة، العار وإن كان كذبا. بُشني شأنك، فإن كان الرجل صادقا دسست عليه من يقتله فيقطع عنك العار، وإن كان كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن. قالت: والله يا أبت إنه لكاذب. فخرج عتبة فقال: إنك رميت ابنتي بشيء عظيم، فإما أن تبين ما قلت، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قال: ذلك لك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ونسوة من بني مخزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف. فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند وكسف بألها، فقال لها أبوها: أي بُنيّة، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا؟ قالت: يا أبت، والله ما ذلك لمكروه قبلي، ولكنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب، ولعله أن يسمي بسمة تبقى على ألسنة العرب. فقال لها أبوها: صدقت، ولكني سأخبره لك. فصفر بفرسه، فلما أدلى عمد إلى حبة بُرٍ (قمح) فأدخلها في إحليله ثم أوكى (ربط) عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال له عتبة: إنا أتيناك في أمر، وقد خباننا لك خبيثة، فما هي؟ قال: بُرة في كمرة. قال: أريد أبين من هذا. قال: حبة بُرٍ في

إحليل مُهْر. قال صدقتَ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة. فجعل
 يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول: قومي لشأنك. حتى إذا
 بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال: انهضي غير رفحاء
 (فاجرة) ولا زانية، وستلدين ملكاً يسمّى: معاوية. فلما
 خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنترت يده من يدها وقالت: إليك
 عني. والله لأحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها
 أبو سفيان، فولدت له معاوية".

ومن ذلك أيضا ما رُوِيَ عن سَطِيحِ الذَّبِي العَسَّانِي من
 أنه "لما كان ليلة وُلِدَ النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه
 أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل مملكته، فما كان
 أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة
 غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن
 وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية
 أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب
 فارس يخبره أن بيوت النيران حمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل
 ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل
 مملكته فأخبرهم الخبر، فقال الموبذان: أيها الملك، إني رأيت
 تلك الليلة رؤيا هالتي. قال له: وما رأيت؟ قال: رأيتُ إبلاً
 صِعَاباً، تقود خيلاً عَرَاباً، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في
 بلادنا. قال: رأيتَ عظيماً، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما

عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أُرْسِلَ إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان. فبعث إليه عبد المسيح بن بَقِيلَةَ الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهّزني إلى خال لي بالشام يقال له: سَطِيح. قال: جهّزه. فلما قدم إلى سَطِيح وجدته قد احتضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصمُّ أم يسمع غَطْرِيفُ اليمين؟ يا فاضل الخطة أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ
 أتاك شيخ الحي من آل سَنَنْ أبيض فضفاض الرداء والبدن
 رسول قَيْل العجم يَهْوِي للوَتَنْ لا يرهب الرَعْد ولا رَبِّب الزمن
 فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جمل مُشِيح

(أى سريع)، إلى سَطِيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وهمود النيران، ورؤيا الموبذان. رأى إبلا صعبا، تقود خيلا عرابا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب المراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخذت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقاما، ولا الشام لسَطِيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آتٍ آتٍ... إلخ".

أما في القصة التالية فنرى الكاهن يحدّر بنى الحارث بن كعب من الإغارة على بنى تميم، وإلا تعرضوا للهزيمة المُرّة على أيديهم: "كان بنو تميم قد أغاروا على لَطِيْمَةَ (قافلة) لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فأوقع كسرى بهم وقتل المقاتلة، وبقيت أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها. وبلغ ذلك بنى الحارث بن كعب من مَذْحِج، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اغتتموا بنى تميم. فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زيد وحزم بن ريان في عسكر عظيم وساروا يريدون بنى تميم، فحدّروهم كاهن كان مع الحارث، واسمه سلمة بن المغفل، وقال: إنكم تسرون أعقابا (أى بعضكم في إثر بعض)، وتغزون أحبابا، سعدا وربابا، وتردون مياه جبابا (جمع "جَبّ"، وهو البئر)، فتلقون عليها ضربا، وتكون غنيمتكم ترابا، فأطيعوا أمري ولا تغزوا تميما. ولكنهم خالفوه وقاتلوا بنى تميم فهزموها هزيمة نكراء".

ولا شك أن أى عاقل سيُنكر ما جاء في مثل تلك الأخبار من أن هذا الكاهن أو ذاك كان يستطيع أن يعلم الغيب، إذ الغيب شأن من شأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أحدا من عباده أن ينفذ من خلال حُجُبِهِ إلا إذا أوحى الله بشيء من ذلك لنبى من أنبيائه. ونبينا عليه السلام مأمور في القرآن بأن يقول: "وعنده (أى عند الله) مفاتيح الغيب، لا

يعلمها إلا هو"، "قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله"، "قل: ما كنتُ بدعاً من الرسل، وما أدري ما يُفَعَلُ بي ولا بكم"، "ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِيَ السوء"، "عالم الغيب (أى الله سبحانه) فلا يُظهِر على غيبه أحداً* إلا من ارتضى من رسول، فإنه يَسْأَلُك من بين ومن خلفه رَصَداً* لِيَعْلَمَ أنْ قد أبلغوا رسالات ربهم... إلخ. فماذا يكون الكاهن بالنسبة للنبي، وبخاصة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أنهم إنما يستعينون في مهمتهم الكهنوتية بالشياطين، ولم يكن يتزل عليهم الوحي من السماء من لدن الله سبحانه وتعالى؟ وعلى هذا فنحن مضطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضاً في تلك الأخبار ذاتها من كلام منسوب للكهنة في هذه الظروف من مثل: "عبد المسيح، على جمل مُشِيح (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وحمود النيران، ورؤيا الموبدان. رأى إبلا صعباً، تقود خيلاً عراباً، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخذت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقاماً، ولا الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت"، أو "انفضي غير رَقَحَاء ولا

زانية، وستلدين مَلِكًا يسمَّى: معاوية"، لأنه إذا كانت الواقعة لم تحدث أصلاً فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكلام المتصل بما قد قيل! أما قول الكاهن الذي نَفَّرَ بين هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس فهو لا يزيد عن أن يكون حُكْمًا في قضية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل في باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الذين ينكرون صحة هذه الأسجاع وَيَرَوْنَ أنها من صنع المتأخرين ليسوا على خطأ مطلق، وإن قام رَفْضُ الدكتور شوقي ضيف لها مثلاً على أساس طول الزمن المنصرم ما بين صدور الأقاويل المنسوبة إلى أولئك الكهّان والوقت الذي سُجِّلَتْ فيه (العصر الجاهلي/ 224)، وهو سبب غير كاف كما قلنا عند حديثنا عن الأمثال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ من كثرة ما كان أصحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لانتشار الأمية بينهم، مما من شأنه أن يجعلها أَحَدَ وأنشط من الذاكرة التي لا يستخدمها أهلها على هذا النطاق الواسع. كما أن هذه الأقاويل، حسبما بينّا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد من الحفظ، فضلاً عن أنها ليست من الطول ولا ما احتفظت به الكتب من نصوصها من الكثرة بحيث تسبب للذاكرة عَنَتًا في الاحتفاظ بها، إلى جانب اعتقاد الجاهليين أنها حق لا ريب فيه.

وقد يُفهم من كلام بعض الدارسين أن هذه الأقاويل هي أساس السجع أو أنها على الأقل كانت النصوص المسجوعة الوحيدة في النثر الجاهلي، فقد كتب مثلاً المستشرق الألماني كارل بروكلمان أن "السجع هو القالب الذى كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم" (تاريخ الأدب العربي/ 51 / 1)، وهو ما يتابعه عليه عبد الستار فوزى ود. عز الدين إسماعيل، إلا أنهما لم يكتفيا بذلك، إذ ذكر الأول أن "تلك الأسجاع حتى البقية التى استُعملت فى عصر الإسلام الأول قد نبتت جميعاً من سجع الكهان الجاهليين يوم كانت تلك الأنغام المتوازنة ضرورية لتمثيل الكاهن، ولا غنى عنها لتصوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصدره من أقضية وأحكام، وما يشيع عنه من وحى وإلهام" (عبد الستار فوزى/ السجع وأطوار استعماله فى أدب العرب/ الشركة المركزية للطباعة والإعلان/ بغداد/ 1966م/ 32)، كما ورد فى حديث الثانى عن السجع وسيطرته على النثر الفنى فى العصور الإسلامية أن هذا الاتجاه هو "امتداد لما عُرف فى الجاهلية قديماً باسم سجع الكهان" (د. عز الدين إسماعيل/ المكونات الأولى للثقافة العربية- دراسة فى نشأة الآداب والمعارف العربية وتطورها/ ط5/ أبوللو للنشر والتوزيع/ 1414هـ- 1993م/ 42)، وإن كان فى موضع آخر قد أضاف "الأمثال" أيضاً إلى "سجع

الكهان"، وذلك في النص التالي الذي يَعْرِضُ فيه لأوَّلِيَّةِ الشعر العربي وكيفية نشوئه، إذ قال: "هناك فرض راجح حتى الآن يذهب فيه أصحابه من علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربي قد نشأ في جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التي كان يستخدمها الكهنة في رُقَاهم وتنبؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة في بعض الأحيان التي كان تجرى على الألسنة مجرى المثل" (المرجع السابق / 9). وعلى كل حال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السجع في النشر العربي، وهل يرجع فعلا إلى "سجع الكهان" وحده أو إليه هو و"الأمثال" كما في النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلك، فضلا عن أن خُطَبَ الجاهليين ومنافراتهم وخصوماتهم كانت (كما هو معروف) مسجوعة في غير قليل من الأحيان. وعلى هذا فالتفكير العلمي الحذر يقتضينا أن نكون على ذكر من هذه الحقيقة قبل أن نصدر حكما كهذا فنضلّ في بيِّداء الوهم. كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفا للجاهليين وأنه كان مستعملا لا في كلام الكهان والكاهنات وحده، ولا في كلامهم والأمثال فقط، بل في الخُطَبِ والمنافرات والخصومات أيضا، إذ هو يلبي حاجة فطرية في النفس، "فالكلام الموسيقي المتوازن على اختلاف ألوانه هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاء والغضب، والبسط

والقبض، تبعثه في يسرٍ من أعماقها سيّلاً متداركا كأنما تجد في تناغم ألفاظه ورنين أجراسه وتعاطف حروفه متنفساً لهذا الجَيْشَان العنيف وتطبيقاً لهذه الثورة الصاخبة" (على الجندي/ صور البديع - فن الأسجاع/ دار الفكر العربي/ 1/ 9)، وليس ثمة ما يلجئنا إلى القول بأن السجع نشأ في أحضان السّحر والكهانة والمعابد وما إلى ذلك كما يردد بعض الدارسين العرب تأثراً بما يقوله المستشرقون في هذا المجال، لأن ما كان مرتبطاً بالفطرة لا يحتاج إلى سحر أو كهانة أو معابد، وبخاصة أننا نعلم ما تتميز به اللغة العربية من الموسيقية والرنين والتوازن مما يجعلها في ذاتها بيئةً جدّ مناسبةً لازدهار السجع والشعر.

السجع إذن لم يكن مقصوراً على الكهان، بل استخدمه الخطباء والمتنافرون والمتفاخرون وضاربو الأمثال أيضاً، ذلك أنه مجرد أداة، مثله في هذا مثلُ الجمل والسيف والقلم وغيرها من الوسائل والأدوات التي يصطنعها البشر في حياتهم، لا يحمل أية دلالة عقيدية أو أخلاقية في حد ذاته، على عكس ما يقول اللمازون الذين يحاولون الإيهام بأنه ليس هناك فرق بين دعوة الرسول عليه السلام ووظيفة الكهان. ومن هنا نجد السجع مستعملاً في القرآن كما كان مستعملاً لدى الكهنة، رغم أنهم إنما كانوا يستخدمونه في الكذب والإيهام بالتنبؤ بالغيب وفي التنفير بين المتنافسين على السمعة وما أشبه، على حين أنه في

القرآن مستَعْمَلٌ في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والحث على البر والعدل والصدق والعلم والأخوة والتراحم والتعاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر... إلى آخر ما نعرف من القيم الكريمة النبيلة التي رفع لواءها القرآن الكريم والتي تتعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاتهما. ولقد نزل القرآن بنفس اللغة التي كان الكهان يتخذونها، وهي اللغة العربية، كما أن الرسول كان يمارس حياته، فيما عدا كهانتهم ووثنتيهم، مثلما كانوا يمارسون حياتهم، فكان يأكل ويشرب ويتزوج مثلما كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون، وكان يركب الناقة والحصان مثلما كانوا يفعلون. وفي القرآن نقراً أن كتاب الله قد "نزل بلسان عربي مبين"، وهذا أمر طبيعي كى يفهمه العرب الذين اتجه إليهم القرآن أول ما اتجه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم"، والسجع جزء من هذا اللسان الذي نزل به القرآن، وهو عنصر جذاب لأولئك القوم، فأين وجه الحرج في أن يستعين به كتاب الدعوة الجديدة حتى تنصت إليه الأسماع وتَصْغُو له القلوب والعقول؟ وبقریب من هذا قال د. جواد على، الذي علّق على أسلوب المفسرين في توجيه قَسَم القرآن بالتين والزيتون وما إلى ذلك قائلًا: "وفي القرآن قَسَمٌ بالسما وبالعاديات والتين والزيتون وبغير ذلك ذهب المفسرون في سبب القسم بما مذاهب، ففسروا وتأولوا.

ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الإسلام، وأن القرآن إنما نزل بلسان العرب، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم، عرفوا السبب. ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء، يُقسَمون بها كما يُقسَم المتحضر بأعز شيء عنده" (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ 4/ الفصل الخاص بالنشر).

كما أن المسلمين الأوائل قد أدوا العُمرة في السنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تزال تعجّ بالأوثان، فهل يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يمارسون طقوسا وثنية؟ بل إن الحجاج المسلمين كانوا وما فتئوا يأتون من الطقوس ما كان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقى من حج الخليل عليه السلام، لكن العبرة بالنية، إذ ينبغي ألا ننسى أن الجاهليين الوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم ببعض شعائر الحج الصحيحة التي ورثوها عن أبيهم إبراهيم عليه السلام، وهو ما احتفظ به الإسلام أيضا في هذه العبادة. ومثله السجود، الذي كان بعض الوثنيين يؤدونه للشمس والقمر، ويؤديه المسلمون أيضا، لكن الله تعالى لا لهذين الجرُمَيْن السَّمَاوِيَّيْن... وهكذا. إن السجوع مجرد أداة أو وسيلة، والأداة لا تعاب في حد ذاتها، بل للغرض السيئ الذي تستعمل فيه.

لقد كان سجع الكهان يدور في فلك الوثنية ويتم في بيوت الأوثان، بخلاف السجع في القرآن، الذى حارب الوثنية وقام الرسول الذى نزل عليه ذلك الكتاب الكريم بهدم أوثانها وبيوتها. كما كان الكهان يتقاضون أجرا على ما يقولون، أما النبى فلم يكن يمد يده إلى مال أحد، وآيات القرآن الكريم واضحة تمام الوضوح في هذا: "قل: لا أسألكم عليه أجرا. إن هو إلا ذكرى للعالمين"، "وما أسألكم عليه من أجر. إن أجرى إلا على رب العالمين"، "قل: ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا"، "قل: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى". ليس هذا فحسب، بل لقد حرم الإسلام أيضا عليه وعلى أهل بيته جميعا أن يأخذوا شيئا أى شىء من أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتشدد في هذا أيما تشدد! ولقد حارب الإسلام والرسول الكهانة والمتكهنين حربا شعواء، وأبدى عليه السلام امتعاضه ونفوره الشديد من طريقتهم المتكلفة الغامضة في التسجيع، فكيف يقال إنه صلى الله عليه وسلم قد جرى في ركبهم ونهَجَ نَهَجَهُم كما يردد بعض الرُّقَعَاء؟ ومصدقا لهذا نلفت النظر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقف الرسول الأكرم من "سجع الكهان" أيضا لا من "الكهان" أنفسهم فقط، فقد "اقتتلت امرأتان من هُذَيْل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر

فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاضى رسول الله أن دية جنينها غُرّة: عبد أو وليدة. وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورثها ولدها ومن معهم. فقال حمل بن النابغة الهذليّ: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا استهلّ؟ فمثل ذلك يُطَلَّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما هذا من إخوان الكهان"، من أجل سجعه الذي سجع"، إذ كان كهان الوثنية، كما سبق بيانه، يخدعون الناس ويشيعون الوهم في العقول ويصطنعون أسلوبا متكلفا لا يبغي كشف الحق بل يمكّن للباطل تمكيناً، فأراد عليه السلام من المسلمين أن ينبذوا هذا الأسلوب العفن الضار. إنهما إذن طريقان مختلفان، وأسلوبان في استعمال السجع لا يلتقيان!

ثم لو كان صلى الله عليه وسلم يجرى على سُنّة الكهانة والمتكهنين كما يزعم الزاعمون، فكيف يفسر المتطعمون الذين يتهمونه هذا الاتهام الأرعن أنه قد حورب من قومه، على حين أن الكهان كانوا محطّ رهبة ورجاء من هؤلاء القوم، ولم يكن أحد من العرب ليفكر في مس شعرة من شعرهم؟ بل كيف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو أنه كان واحدا منهم، وهم الذين لم نسمع قط أنهم عادوا أى واحد من أبناء مهنتهم؟ بل إننا لم نسمع أيضا أن أحدا منهم اتهم الرسول عليه

السلام رغم هذا بأنه قد أخذ منهم أسلوبه، فكيف نفسر ذلك أيضاً؟ صحيح أن قومه قد اتهموه بأنه كاهن، لكنهم اتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيّاً منها لا ينطبق على حالته صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مجرد دَعَاوَى ومزاعم كاذبة متخبطةٍ مبعثها الحقد والغیظ. وأكبر دليل على بطلان هذه الأقاويل أنهم هم أنفسهم قد انتهوا إلى الإيمان به لاجئين كل تلك الاتهامات ومكذّبين أنفسهم بأنفسهم! بل لقد عرضوا عليه أنه إن كان الذي يأتيه رُئيّاً من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون في تطييبه حتى يشفوه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعو إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التفاني في دعوتهم إلى نبذ الأوثان وسبيل الكهّان. وقد انتهى هذا كله، كما هو معروف، بأن دخل الجميع في دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهّان أنفسهم وأهلوه، فعلم يدل هذا أيضاً لو كان عند من يتهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكر وتبصر؟ إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبالله كيف يسوغ في منطق العقل أن يقال إنه عليه السلام كان يستعين بالشياطين؟

ولقد أكثر أعداء الإسلام في العصر الحديث من المستشرقين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من

الكلام في أقسام القرآن التي استُهلَّتْ بها بعض السور المكية مثل: "والنجم إذا هَوَى* ما ضلَّ صاحبكم وما غَوَى* وما ينطق عن الهوى* إنَّ هو إلا وحيُّ يُوحَى"، "والسَّماء والطارق*" وما أدراك ما الطارق؟* النَّجْم الثَّاقِب* إنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حافظ"، "ق والقرآنِ الجيد* بل عجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شيءٌ عَجِيب"، "حم والكتاب المبين* إنا أنزلناه في ليلة مباركة. إنا كنا مُنذِرِينَ* فيها يُفْرَق كل أمرٍ حكيم* أمرا من عندنا"... إلخ، قائلين إنه عليه السلام إنما يقلد الكهان في طريقتهم بالقسم بمظاهر الطبيعة كالذي رُوِيَ عن الكاهن الخزاعي من قوله: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من مُنجدٍ وغائر"، والذي رُوِيَ عن سواد بن قارب الدَّوسِيّ وقوله: "والسَّماء والأرض، والعَمْر والبَرَض، والقَرَض والفرَض، إنكم لأهل الهضاب الشَّمِّ، والنخيل العُمِّ، والصخور الصَّمِّ، من أجَا العِطاء، وسلَمَى ذات الرقبة السطعاء... أقسم بالضياء والحلك، والنجوم والفلك، والشروق والدلك، لقد خبأت بُرُتْن فرخ، في إعليط مَرخ، تحت أسرة الشَّرْخ... والسحاب والتراب، والأصباب والأحداب، والنَّعم الكُثاب، لقد خبأت قُطامة فسيط، وقُذَّة مَرِيط، في مَدْرَة من مَدِيّ مَطِيط... أقسم بالسَّوام العازب، والوقير الكارب، والمجد

الراكب، والمُشيح الحارب، لقد خَبَاتَ نُفَاثَةٌ فَانَنَ، في قَطِيعٍ قَدِ
مَرَنَ، أو أَدِيمٍ قَدِ جَرَنَ... أَقْسِمُ بِنَفْنَفِ اللُّوْحِ، والماءِ المَسْفُوحِ،
والفضاءِ المندوحِ، لقد خَبَاتَ زَمَعَةٌ طَلًّا أَعْفَرِ، في زِعْنَفَةِ أَدِيمٍ
أَحْمَرِ، تحتِ حِلْسِ نِضْوِ أَدْبِر... والناظِرِ من حيث لا يُرَى،
والسامعِ قبل أن يَنَاجِي، والعالمِ بما لا يُدْرِي، لقد عَنَّتْ لَكُمْ
عُقَابٌ عَجْزَاءُ، في شِغَانِيْبِ دَوْحَةِ جَرْدَاءِ، تَحْمَلُ جَدْلًا،
فَتَمَارِيْتُمْ: إما يَدًا وإما رِجْلًا، وكالذِي رَوَاهُ الجَاحِظُ لِعُزَى
سَلَمَةَ من أَنَّهُ قَال: "والأَرْضُ والسَّمَاءُ، والعُقَابُ والصَّقَعَاءُ،
واقِعَةٌ بِبِقَعَاءِ، لَقَدْ نَفَرَ الجَدُّ بَنِي العُشْرَاءِ، لِلْمَجْدِ والسَّنَاءِ"،
وكالذِي جَاءَ في حَدِيثِ زِبْرَاءِ الكَاهِنَةِ مَعَ بَنِي رِئَامِ من قِضَاعَةَ،
إِذْ قَالَتْ: "واللُّوْحُ الخَافِقُ، واللَّيْلُ الغَاسِقُ، وَالصَّبَاحُ النُّشَارِقُ،
وَالنَّجْمُ الطَّارِقُ، وَالْمُزْنُ الوَادِقُ، إِنْ شَجَرَ الوَادِي لِيَأْذُو خَثَلًا،
وَيَخْرُقُ أَنبَابًا عُصَلًا، وَإِنْ صَخَرَ الطَّوْدُ لِيُنْذِرَ ثُكْلًا، لَا تَجْدُونَ
عِنْدَهُ مَعْلًا"، وَأَخِيرًا كَالذِي نُسِبَ إِلى سَلْمَى الهَمْدَانِيَّةِ وَمَا أَبَدْتَهُ
مَنْ رَأَى فِي حَرِيمِ المُرَادِي: "والْحَفْوُ وَالوَمِيضُ، وَالشَّفَقُ
كَالإِحْرِيضِ، وَالقُلَّةُ وَالْحَضِيضُ، إِنْ حَرِيْمًا لَمَنِيْعِ الحِيْزِ، سَيِّدُ
مَرْيَزِ، ذُو مَعْقَلِ حَرِيْزِ، غَيْرِ أُنِي أَرى الحُمَّةَ سَتَظْفَرُ مِنْهُ بَعَثَرَةٌ،
بَطِيئَةُ الجَبْرَةِ". وَيَجِدُ القَارِي هَذِهِ النُّصُوصَ تحتِ عَنوَانِ: "خُطْبُ
الْكُهَّانِ" و"خُطْبُ الكَوَاهِنِ" من كِتَابِ "جَهْرَةَ خُطْبِ العَرَبِ"
لِلْمَرْحُومِ الأَسْتَاذِ أَحْمَدِ زَكِي صَفُوتِ.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تبيننا أنها في التنبؤ بالغيب أو في التنفير بين المتنافسين على الافتخار بحسن الأحداث بين الناس، على حين أن أقسام القرآن تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحي القرآني أو ضلال الشرك والمشركين وأشباه ذلك. وهذا لو أغضينا البصر عن سخف التنفير ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التي ينبغي أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجرد في القيام به بحيث يضع فاعله مصلحة المجتمع والبشرية نُصَبَ عينيه وينتظر الأجر والثوبة من الله ولا تشغل نفسه الرغبة في الاشتهار بين الناس كي يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جارينا الاعتقاد الجاهلي الأخرق وصدّقنا أن الكهان يستطيعون أن يتنبأوا فعلا بالغيب، وهو ما سبق أن قلنا إنه أمر مستحيل، إلا أننا نجرى هنا مع المتهمين إلى أقصى حد حتى نبين لهم ولمن يقرأون ما يكتبون أن كلامهم لا يقوم على أى أساس. كما أن الأقسام الخاصة بـ"التراب والأصباب والأحداق والنعم والسحاب والغمام الماطر والمُزَن الوادق والصقعاء والعُقَاب والذئب والعمر والقرض والقرض والبرض واللوح الخافق وتفنن اللوح والماء المسفوح والفضاء المندوح والخفوف والوميض والشفق الذى يشبه الإحريض والقلة والحضيض والحلك والفلك والدلك والسوأم العازب والوقير الكارب

والمجد الراكب والمشيح الحارب والناظر من حيث لا يُرى
والسامع قبل أن ينجى والعالم بما لا يُدرى" هي أقسام لم ترد في
القرآن الكريم، وفي المقابل فإن القسم بـ "القرآن المجيد
والقرآن ذى الذِّكْر والكتاب المبين والكتاب المسطور في رَقٍّ
منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور
والصافات صفًا والذاريات ذرًا والمرسلات عُرفًا والنازعات
عُرفًا والليلي العشر والشَّفَع والوثر وما خَلَقَ الذِّكْرَ والأنثى
والضُّحَى والتين والزيتون وطُورِ سِينِينَ وهذا البلد الأمين
والعاديات ضَبْحًا" هو أيضا قَسَم لا تعرفه النصوص المنسوبة
إلى أولئك الكهان، مثلما لا تعرف التركيبَ القرآني التالي: "لا
أُقَسِمُ بكذا"، ولا مجيء عبارة "هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجر؟"
أو "وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم" أو "بل الأمر كذا وكذا" بعد
القَسَم، أو مجيء حرف هجائي أو أكثر قبله، كما في قوله
تعالى: "والفجر* وليالٍ عشر* والشَّفَع* والوثر* والليل إذا
يَسُر* هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجر؟"، "فلا أُقَسِمُ بمواقع
النجوم* وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* في
كتاب مكنون* لا يَمَسُّه إلا المطهَّرون"، "ص والقرآن ذى
الذِّكر* بل الذي كفروا في عِزَّةٍ وشِقاق"، "ق والقرآن المجيد*
بل عجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شيء
عجيب"، "يس والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسلين* على

صراط مستقيم". ثم إن النصوص المتضمنة لأقسام الكهان تتميز بأنها قصيرة النفس، إذ سرعان ما ينتهي النص الذى وردت فيه هذه الأقسام عقب الفراغ من نبأ الغيب المزعوم أو التنفير بين المتخاصمين مما لا يستغرق إلا بضع جهل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضى بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طويلا كبيرا لا تناسب بينه وبين نصوص الكهانة المدعاة.

وهذا كله إذا لم نقل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم: إما ممن صنعوها في العصر العباسى ونسبها زورا للجاهليين، وإما من كهانٍ صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أمامهم واحتذوه، أو إن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلدون، فيما صحت نسبته لهم، أسلوبا من أساليب القسَم كان مستعملا فيما نزل من وحى على الأنبياء العرب السابقين كهودٍ وصالحٍ وشُعَيْبٍ. والعجيب أن كاتب مادة "سَجْع" في الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" ("دائرة المعارف الإسلامية" الاستشراقية) لا يختلف مع الباحثين الآخرين في وسم كل ما نُسبَ للكهان من أقوالٍ بأنها لا تبعث على الاطمئنان، ومع هذا يتهم الرسول بأنه يقلد في قرآنه

سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قد عمل في ذات الوقت على أن يصبَّ في هذا القالب الكهنوتي القديم المبادئ الجديدة التي أتى بها! أي كما يقال في المثل: "عَنْزَة ولو طارت!"

وإني لأستعجب أن يقرأ بعض الناس القرآن الكريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كلام الكهان، أو إنه تقليد لكلام الكهان! إن هذا الادعاء هو دليل على أن صاحبه كاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البصيرة. ولسوف أورد هنا نص ثلاث سور صغيرة هي "البلد" و"الليل" و"الضحى" وأترك القارئ (أيًا كان دينه ومذهبه) وجهًا لوجه أمامها ليسأل ضميره بصدق وأمانة: أمثل هذا الكلام هو من وحى الشياطين أو يجرى من جاء به على سُنَّة الشياطين؟ يقول جل جلاله: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُ رَقَبَةً (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا

بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ (20)"،
 "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا
 تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)
 فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنِيسِرُّهُ
 لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى
 (9) فَسَنِيسِرُّهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى
 (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13)
 فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي
 كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ
 يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ
 وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)"، "بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا
 وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (4)
 وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6)
 وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ
 فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
 فَحَدِّثْ (11)". والله إن كان هذا الكلام النبيل الكريم هو من
 كلام الكهان، ومن وحى الشيطان، فليس هناك شيء يستحق
 الثقة إذن في دنيا الإنسان!

في ضوء ما مر نستطيع أن نضع الكلام التالي لعبد الله إبراهيم (المدلس الذي خدع جامعة قطر لسنوات موهما إياها أنه "أستاذ مساعد"، على حين أنه لم يكن سوى "مدرس" أتى من إحدى الجامعات الليبية حيث يسمون "المدرس" الجامعي: "أستاذًا مساعدًا"، و"الأستاذ المساعد": "أسناذا مشاركا"، ثم لم ترض له بجاحته وعراقته في التدليس إلا أن يمضى شوطا آخر في الخداع اللثيم الأثيم فتقدم بأوراقه للترقية إلى "أستاذ" مرة واحدة، لكن القدر كان له بالمرصاد، إذ اكتشفت اللجنة التي كانت مكلفة بالنظر في أوراق التقديم للدرجة الجديدة، بالمصادفة الحضة، أنه مدلس كبير، ولما تحققت الجامعة القطرية من حقيقة الأمر أنهت عقده، وإن كانت اكتفت لسوء الحظ بهذا فلم تحوله لمجلس تأديب، فاستمر يزعم المزاعم ويفتري على الجامعة وإدارتها وأساتذتها الأكاذيب، وكل ذلك لأن من البشر بشرا تخيني جلد الوجه لا ينجلون. وهذا نص ما قاله ذلك المدلس عن الإسلام والرسول (والكهان)، وأرجو من القارئ أن يرهف أذنيه ليلتقط ما بين السطور، وقبل ذلك ما في السطور نفسها، من افتراءات ضالة مضلة عن تشابه القرآن وأسجاع الكهان: "استأثر ضرب آخر من النشر باهتمام طائفة من الكهّان والمنتبّين والمتعبّدين في العصر الجاهلي، ونُسب إليهم لأنه كان الوسيلة المعبرة عن مقاصدهم وأفكارهم. ويبدو أن جملة الظروف الثقافية القائمة آنذاك قد دفعت هذا النوع من النشر إلى مقدمة أنواع النشر الجاهلي لأنه ارتبط بالنظم الدينية التي كانت قائمة آنذاك. ومن

ناحية منطقية فإن الإسلام جبّ مضمون نشر الكهان وأساليبه السجعية، ولكن إذا نظر للأمر من ناحية واقعية فإن واقع الحال يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نشر الكهان. ذلك أن الموضوعات التى كانت تتواتر فيه هى إجمالاً أخلاقية وعظيمة تتخللها ضروب من التأويلات الغامضة، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التى تماثل إلى حد ما الصيغ السجعية التى نجدتها فى الخطب والنصوص الدينية. ومن المحتمل أنّ أصل التعارض كان قائماً فى الوظائف التى يقوم بها كلّ من النبي والمنتبى، أى الخلاف فى وظيفة الرسول ووظيفة الكاهن. ذلك أنه لو نظر إلى ماهية النصوص بعيداً عن سلطة المقدس لوجدنا أنّ التماثل فى المضامين والأساليب لا يفضي إلى نوع من التعارض الحقيقي، ويرجح أنّ ظروفًا واقعية وتاريخية أوجدت ذلك التعارض، وفرضت نوعاً من التناقض بينهما" (عبد الله إبراهيم/ سيرة المرويات النثرية السردية الجاهلية/ شبكة الذاكرة الثقافية). هذا ما قاله عبد الله إبراهيم، وتعليقنا هو: هل صحيح أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع نشر الكهان كما زعم هذا المدلس؟ هل كان الكهان يدعون إلى الصدق والعفة وإعطاء الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل حقوقهم فى أموال القادرين؟ هل كانوا يحثون على النظام والنظافة وإمطة الأذى عن الطريق وتنظيف الأسنان وتمشيط الشعر؟ هل كانوا يحضون على العلم ويروّنه أفضل

ألوان العبادة؟ هل كانوا يحمّسون الناس إلى تشغيل عقولهم والحرص على استقلال آرائهم فلا يكونوا إمّعات؟ هل كانوا حرصاء على نشر الوعي بالسنن الكونية في السماوات والأرض ودنيا البشر؟ هل كانوا يقولون إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا العمل؟ هل كانوا يجاريون الوثنية والثنوية والتثليث وتأليه البشر والجماد ويقفون حياتهم على دعوة التوحيد؟ هل كانوا يقولون إن لكل داء دواء، وعلى البشر أن يبحثوا عن الدواء لكل مرض يصيبهم؟ هل كانوا يصلون ويزكون ويصومون؟ هل كانوا يعملون بكل جهدهم على الوقوف بكل قواهم ضد الاستغلال والظلم والجروت والتأله؟ هل كانوا يقولون باليوم الآخر والحساب الإلهي والجنة والنار؟ هل كانوا يتفكرون في عظمة الله وما ينبغي له من التمجيد والتحميد والطاعة والإخبات؟ هل كانوا يؤمنون بالرسول والنبیین السابقين؟ وأخيرا وليس آخرا: هل كانوا يكرهون مهنتهم القائمة على الكذب والتدليس والتضليل ويتوعدون من يقصدهم بسخط الله عليهم؟ ثم هل كان الرسول يدعى المقدره على التنبؤ بالغيب؟ أم هل كان يأخذ أجرا على دعوته؟ أم هل كان يفتخر بأنه على صلة بالشياطين؟ أم هل كان يلوذ ببيوت الأوثان؟ أم هل كان يؤرث نيران المفاخرة بين الناس ثم يلتف ليفصل بينهم؟ لقد كان الكهنة يفعلون هذا كله وأشنع منه، أما الرسول فقد كانت سبيله هي سبيل الطهر والأمانة والسمو والعقل والعلم والتحضر. ألا إن المدلسين لفي ضلال مبین!

الخطب

يتناول الجاحظ في كتابه: "البيان والتبيين"، ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي مبيِّناً أنهم كانوا بارعين في هذا الميدان براعة منقطعة النظر حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التي يتطلبها هذا الفن، بل كان الكلام في مثل تلك المواقف ينشال عليهم انشياً، إذ كانت قرائحهم خصبة ممتازة وتفوقهم في ميدان الأحاديث العامة معروفاً لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدربون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر. بيد أن من الباحثين العرب المحدثين من يرى أنهم كانوا يُعدّون خطبهم ويهيئون أنفسهم لإلقائها مسبقاً، فهذه طبيعة الإبداع الأدبي كما يقول (د. إحسان النص/ الخطابة العربية في عصرها الذهبي/ دار المعارف/ 1963م/ 16-17)، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أن من خطبهم التي تبعث على الثقة بصحتها ما كان يحليه السجع، مما يصعب تصور انشiale على لسان الخطيب ارتجالاً، وهو من الأسباب التي دفعتني للشك في بعض الخطب الجاهلية المثقلة بالتسجيع واخسنات البديعية كما سيأتي لاحقاً. كما كانت لهم تقاليد مشهورة في إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لبس العمائم واتخاذ المخصرة، أى العصا. وفي كتاب الجاحظ المذكور آنفاً نماذج من الخطب التي تركها

لنا الجاهليون، ومعها أسماء عدد ممن اشتهروا بالتفوق في ذلك الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب في ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تضيع رغم أنهم كانوا أمة أمّية في غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعتزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجي زيدان أن العرب في ذلك العصر كانوا خطباء مصّاقع بتأثير طبيعتهم النفسية وأوضاع حياتهم السياسية والاجتماعية، إذ كانوا ذوى نفوس حساسة أيّبة تعشق الاستقلال وتبغض العبودية أشد البغض، كما كثر فيهم الفرسان آنذاك. والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسية حيث تغلب الحماسة على النفوس وتكون للكلمة البليغة المتلهّبة مكانة عظيمة عالية، فضلا عن أنهم كثيرا ما كانوا يتنافرون ويتفاخرون بالأحساب والأنساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم في المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث في تلك الظروف، وهم في العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس. كما ذكر أيضا أنهم كانوا يدرّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون

خطبهم وبتوارثونها جيلا بعد جيل، ومن هنا كانت عنايتهم الشديدة بها وبصياغتها (جرجى زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف/ 1/ 167-169).
 و"كان مفروضا في الخطيب الجاهلي أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يجرض قومه على قتال أو يدافع عن أحساب قومه" (محمد عبد الغنى حسن/ الخطب والمواعظ/ دار المعارف/ 1955م/ 21).

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخي الأدب العربي قديما وحديثا، بيد أن للدكتور طه حسين رأيا مختلفا تماما عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتة لا خُطبا ولا غير خُطب: فالنثر من جهةٍ يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شيء من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلفوه لنا من خطب وحكم ووصايا وأسجاع كهنوتية؟ لكننا نراه، بعد أن أكد هذا في أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبه القهقري مستشيا من شكه هذا بعضا من النثر، وهو الأمثال، التي يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبي منها إلى النثر الفني الذى يقصده، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل

الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط ديني عملي، بل كانت قائمة على التجارة، وهي لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى الحوار والجدل لا إلى الخطب (طه حسين/ في الأدب الجاهلي/ دار المعارف/ 1964م/ 329- 332). ولعله لهذا السبب نبحت عبثاً، في كتاب "التوجيه الأدبي" الذي ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أى حديث يتعرض للخطابة في العصر الجاهلي، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقفز مباشرة إلى الحديث عنها بدءاً من العصر الإسلامي فهابطاً إلى العصر الحديث متجاهلاً تمام التجاهل أى كلام عنها فيما قبل الإسلام! (التوجيه الأدبي/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ 1359هـ— 1940م/ 41 وما بعدها، وكذلك 73 وما بعدها)، رغم تأكيد الكاتب أيضاً أن "تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارناً للتاريخ الإنساني: نشأ بنشأته، وارتقى برقيه"، وأنه "لهذا رُوِيَتْ لنا الخُطْب منذ عُرف التاريخ"، وأنه متى توفر عاملاً الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل انتعش هذا الفن انتعاشاً كبيراً (المرجع السابق/ 38- 40)، وهو ما تحقق للعرب في ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطاتها

عليهم ويتزلون لها عن حَظٍّ من حريرتهم واستقلالهم، كما أن السخط على الأوضاع كان منتشرًا بين كثير منهم آنذاك، هذا السخط الذي كان إحدى عُدد الإسلام في مواجهة الجاهلية وأوضاعها الباطلة التي جاء ليغيرها إلى ما هو أفضل. ثم إنه من غير المنطقي أن يخترع العرب في عصور التدوين كل تلك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقوم من بينهم من يفصح هذا التزييف، وكأن الأمة قد صارت كلها أمة من الكذابين أو من الكذابين والسدج المغفلين الذين يجوز عليهم مثل هذا الخداع دون أن يشير فيهم إنكارًا أو حتى دهشة واستغرابًا!

على كل حال فطه حسين إنما يسير في إنكاره للنشر الجاهلي على ذات الدرب المتخبط الأهوج الذي سار عليه في نفيه للشعر الجاهلي كله تقريبًا مشايخًا محترق مرجليوث في خُرْقِه وضلاله وعمى منطقته وبصيرته! وفوق ذلك فمن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحق عبد الله عبد الجبار ود. محمد عبد المنعم خفاجي، أن يرتقوا فجأة في ميدان الخطابة هذا الارتقاء الذي يقرّ هو به بعد الإسلام لو كانوا لا يعرفون الخطابة في الجاهلية أو كانت خطابتهم على الأقل من التفاهة وعدم الغناء بالموضع الذي يزعم طه حسين (انظر كتابهما: "قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي"/ مكتبة الكليات

الأزهرية/ 1400هـ — 1980م/ 202-203). كذلك قد قَفَّشه د. محمد عبد العزيز الموافي قفشةً بارعةً بحقِّ حين لفت الانتباه إلى أن طه حسين عندما أنكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده في ذلك الإنكار على خُلُوِّ العصر الجاهلي من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلي على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين (د. محمد عبد العزيز الموافي/ قراءة في الأدب الجاهلي/ ط7/ دار الثقافة العربية/ 1424هـ — 2003م/ 286-287). ونضيف نحن أنه، رغم نفيه هنا أن يكون للجاهليين أى نشاط ديني عملي، كان قد أقام إنكاره للشعر الجاهلي على عدة أسس من بينها أن هذا الشعر لا يعكس حياتهم الدينية. فأى حياة دينية يعكسها إذا لم تكن لهم حياة دينية عملية أصلاً كما يقول هو بعظمة لسانه؟ أى أنه يقول بالشىء ونقيضه لتقرير ما يريد تقريره دون مبالاة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الاستعانة بالسفسطة السخيفة التي لا تُحَقِّقُ حَقًّا ولا تُبْطِلُ باطلاً! ولقد فات د. طه أن هناك نصوصاً شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء في ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء أوائلنا. ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن مقروم الضبي:

ومتى تَقُمُّ عند اجتماعِ عشيرةٍ خطبائنا بين العشيرة يُفْصَلُ

وقول أبي زيد الطائي:

وخطيب إذا تمعرت الأوجه يوما في ماقط مشهود

وقول النجاشي الحارثي:

وخطيبٌ إذا تمعرت الأوجهُ يشجى به الألدُّ الحَصِيمُ

وقول بلعاء بن قيس الكناني:

ألا أبلغ سُرَاقَةَ يا ابن مالٍ فبئس مقالة الرجل الخطيبِ

وقول ملاطم الفزاري:

ذكرت برؤيتي حمل بن بدرٍ وصاحبه الألدُّ على الخطيبِ

وقول أوس بن حجر:

أم من يكون خطيب القوم إذ حَفَلوا لدى الملوك ذوى أيدٍ وأفضالٍ؟

وقول عامر بن فضالة:

وهم يدعُمون القول في كل محفلٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظْمًا

وقول عامر الخاربي:

يَقُومُ فَلَا يَعْنِي الكَلَامَ خَطِيبُنَا إِذَا الكَرْبُ أَنْسَى الجِبْسَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وقول عمرو بن الإطنابة:

والقائلين فلا يعابُ خطيبُهُم يومَ المقالةِ بالكلامِ الفاصلِ

وقول عمرو بن كلثوم:

وَأبي الَّذِي حَمَلَ المِثِينَ وَنَاطِقُ الـمَعْرُوفِ إِذْ عَيَّ الخَطِيبُ المِفْصَالَ

وقول أميمة بنت أمية:

وَكَم مِّن نَّاطِقٍ فِيهِم خَطِيبٍ مِصْقَعٍ مُّعْرَبٍ

وقول زبان بن سيار الفزاري:

كُلُّ خَطِيبٍ مِنْهُم مَّؤُوفٌ

ومعروف أن كل وفد من الوفود القبلية التي قَدِمَتْ على النبي في المدينة في العام التاسع للهجرة كان يضم بين أفرادها خطباء يتكلمون باسم الوفد ويتبادلون الخطابة مع الرسول عليه السلام وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وهذا أيضا من الأدلة التي لا يمكن نقضها مهما سفسط الدكتور طه. وقد تعرض لذلك د. جواد علي في المجلد الرابع من كتابه: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" (في الفصل الخاص بـ "النشر"، تحت عنوان "الخطابة")، إذ قال: "والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء. ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء هي دليل أيضا على وجود الخطابة بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين"، وإن كان من رأيه أن هناك خطبا جاهلية منحولة وأن نصوص الخطب الصحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغيير بفعل الزمن وضعف الذاكرة البشرية، وبخاصة أن الخطب ليست كالشعر، أي ليس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها.

وعلى عكس ما يَهْرَفُ به طه حسين هنا على النحو الذي كان معروفاً عنه عند عودته من أوروبا متصورا أنه قد حاز

العلم كله وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككون منهم في تاريخ العرب وأمجادهم بعجره وبجره دون أن يترث لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف المتور منكم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزوعهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتسمون به من غيرة ومسارعة للنجدة وبلاغة في القول وذلاقة في اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيين للتفوق في ميدان الخطابة، مبينا أن خطبهم كانت تتسم بالقصر والسجع حتى تعلّق بالذهن غلوفاً سهلاً (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربي/ 19). وبالمثل يقرر د. علي الجندي بحق أنه قد ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون في مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يجرّضون على القتال استشارةً للهمم وشحذاً للعزائم، وبها كانوا يحثون على شن الغارات حُباً للغنيمة أو بئساً للحمية رغبةً في الأخذ بالثأر، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقناً للدماء ومحافظاً على أوامر القربى أو المودة والصلة، ويحبّبون في الخير والتصافي والتآخي، ويبغضون في الشر والتباغض والتنابد، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المتنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهامّ السفارات جلباً لمنفعة أو درءاً لبلاء أو هنةً بنعمة أو تعزيةً أو مواساةً في مصيبة، فوق ما كانت

الخطابة تؤديه في المصاهرات، فتلقَى الخطب ربطاً لأواصر الصلة بين العشائر وتحيب المتصاهرين بعضهم في بعض" (د. على الجندى/ في تاريخ الأدب الجاهلي/ 264-265). وعلى هذا الرأى أيضا نجد د. أحمد الحوفى، الذى يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يُعدّون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبديهة، ومن هنا جاءت خُطبهم لَمَعًا بارقةً دون تفصيل أو تخطيط (أحمد محمد الحوفى/ فن الخطابة/ مكتبة فمضة مصر/ 150-151). أما السباعى فيومى فيرى أن خطباء العرب كانوا يجفلون بخطبهم أيما حُفُول، "فيتخبرون لها من المعانى أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها، لتكون أشدّ وقعًا على النفوس وأبعد تأثيرا فى القلوب وأيقظ للهمم وأحثّ على العمل" (تاريخ الأدب العربى- ج 1 فى العصر الجاهلى/ مكتبة الأنجلو المصرية/ 97). ومن قَبْلُ سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التى كانت تدور عليها الخطب آنذاك قائلاً إن "الخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب (أى نارها وشرها) وجمالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفى عقد الإملاك (أى الزواج) وفى الدعاء إلى الله عز وجل وفى الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة) ولكل ما أُريدَ

ذكره ونشره وشهرته بين الناس" (ابن وهب/ البرهان في وجوه البيان/ تحقيق حفي شرف/ مطبعة الرسالة/ 1969م/ 150).

أما د. شوقي ضيف فيسلك سبيلا مخالفة للفريقين جميعا، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء في الجاهلية وتوفر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التي تكفل لها الازدهار، إذ به يشك في كل ما وصلنا تقريبا عن ذلك العصر من خُطَب. والسبب في هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلي وعصر التدوين أيام العباسيين. ومع ذلك نجد يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذوها. وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيرا من الخطب والمفاخرات والمنافرات التي تُنسب إليهم مجودة مسجوعة مثلا فمعنى هذا أنهم في الجاهلية كانوا يجودون ويسجعون في خطبهم ومفاخراتهم ومنافراتهم فعلا (د. شوقي ضيف/ العصر الجاهلي/ 410-419، والفن ومذاهبه في النثر العربي/ ط7/ دار المعارف/ 1974م/ 33-38).

إلا أننا، مع احترامنا للأستاذ الدكتور وتقديرنا للفصلين اللذين كسرها لهذا الموضوع في كتابيه المشار إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلّم بما يقول على علّاته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت فعلا إلى مخترعى الخطب

الجاهلية نصوصٌ صحيحةٌ منها قاسُوا عليها ما صنعوه ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رَمَوْها خلف ظهورهم واكتَفَوْا بما اخترعوه رغم تَبِيحِ الأَصْلِ لهم؟ وإذا كانوا لأمر ما غَيْرِ مفهوم قد أقدموا على هذا الصنيع الأخرق فكيف لم يُتَحَ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع؟ وقبل ذلك مَنْ قال إن بُعِدَ الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربي تراث آبائه وأجداده؟ لقد عُرف العربي بذاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التي ينتجها نثرا كانت أو شعرا، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثيل المستمر بنتاج قرائح الشعراء والمتكلمين بحيث كان من الصعب أشد الصعوبة انتساح تراثه القولى. فإذا أضفنا أن كثيرا من خطبهم فى الجاهلية كان مسجَعًا مجنَّسًا مُراعَى فيه الموازنة وقِصرَ الجمل، فضلا عن قِصر الخُطْبِ نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النتاج الأدبى لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بله المستحيلة، كما يتخيل البعض منا قياسا على ما يَحْبُرُونه من الذاكرة العربية الحالية، وهى ذاكرة لا تتمتع بما كانت تتمتع به سليفها الجاهلية من حِدَّة ودِقَّة، مثلما لا يتمتع أصحابها بما كان يتمتع به نظراؤهم أو انذاك من اهتمام فائق بالكلمة المشعورة والمنشورة رغم تصورنا العكس اعتمادا على ظواهر الحال المضلَّة. ولا ننس

أيضاً أن العقل الجاهلي لم يكن ينوء بما ننوء به الآن مشاغل ومتاعب يصرفنا صرفاً عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطب على النحو الذى كان عليه الوضع فى العصر الجاهلي. وفوق هذا فإن الأُمِّيَّة التى كانت تسم مجتمَعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعا إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطا لا نعرفه الآن. وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضاً، كما رأينا، إن الذين اخترعوا الخطب ونسبوا للجاهليين قد قاسوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقية، أى أن بُعد الزمن لم يكن له ذلك التأثير الذى عزاه إليه وعلل به شكه فى صحة خطب الجاهلية التى بلغتنا. الواقع أن آخر كلامه ينقض أوله بكل أسف! بيد أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية المحفوظ من نصوص الخطابة الجاهلية شىء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تخرم منه شيئاً، فلم تضاف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض ألفاظه وعباراته أو معانيه ومضامينه، هو شىء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شىء فى عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والالتباس. ودعنا من النصوص التى زُيِّفتَ تزييفاً واختُرِعَتْ اختراعاً مما سنتناوله بشىء من التفصيل فيما يلى حينما نقف عند طائفة من النصوص الخطابية التى ليست قَمِينَةً فى نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخُطَب المنسوبة للجاهلية التي يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطب التي يُفْتَرَضُ أن أصحابها يتنبأون فيها بمجيء "محمد" عليه الصلاة والسلام، إذ السؤال هو: من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب؟ إن الغيب هو من شأن الله سبحانه وتعالى وحده لا يعلمه أحد سواه. يقول بهذا القرآن والحديث وينطق به العقل والمنطق. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهودا أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه في كتبهم. لكنهم لم يكونوا هُودًا ولا نصارى، فأئى لهم ذلك؟ وحتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذى فى القرآن أن عيسى قد بشر برسول يأتى من بعده اسمه "أحمد" (الصف/ 6)، على حين أن اسم النبى فى هذه الخُطَب هو "محمد"! ليس ذلك فحسب، بل هناك أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخُطَب، وهى: لو أن ما جاء فى تلك الأحاديث صحيح تاريخيا، فكيف لم يحاجج النبى به قومه فيقول لهم مثلا: لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبيا من قريش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بى بعد أن قال كهّانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتي؟ لكننا ننظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم فلا نجد أثرا لمثل هذه الحجة التي كان من شأنها أن تعضد موقفه عليه السلام أيما تعضيد! كذلك فبعض هذه الخُطَب قد نُسِبَ لكعب بن لُؤَيِّ جد النبى البعيد، ولو كان

هذا صحيحا فكيف لم يذكر عليه السلام أهل بيته الذين كفروا به كعمه أبي لهب مثلا أو عمه أبي طالب بما قاله جدهم، ونحن نعرف أن الجاهليين كانوا يتمسكون أشد التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد كما تبدى في ردّ الأخير فيما يروون عنه عند موته، إذ اعتذر عن الدخول في دعوة محمد على أساس أنه لا يجب المخالفة عن دين آباءه؟ وعلى هذا فإننا نقف مرتابين أشد الريبة إزاء الخطبة التالية التي ينسبونها لجد النبي ذاك، والتي يقول فيها: "اسمعوا وُعُوا، وتعلّموا تعلّموا، وتفهمّوا تفهمّوا. ليلٌ ساجٍ، ونهارٌ صاجٍ، والأرض مهّاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين، كل ذلك إلى بلاء. فصلّوا أرحامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلك رجع، أو ميّتاً نُشِر؟ الدار أمامكم، والظن خلاف ما تقولون. زيّنوا حرّمكم وعظّموه، وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم.

سواءً علينا حلّوها وميرؤها
وبالتّعم الضافي علينا ستورها
لها عقّد ما يستحيل مريرها
فيخبر أخباراً صدوقاً خيرها

نهارٌ وليلٌ واختلاف حوادثٍ
يؤويان بالأحداث حتى تأوياً
يؤويان بالأحداث حتى تأوياً
على غفلة يأتي النبي محمدٌ

حين العشرة تبغي الحقّ خذلانا"

يا ليتني شاهد فحواء دعوته

وهذه الخطبة، فوق ذلك، تحتوى على أشياء أخرى تدفعنا إلى مزيد من التشكك فيها، منها أن العبارة التي يتمنى فيها كعب أن يكون حيًّا عند ظهور محمد تذكّرنا بما قاله في نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذي كان هناك سبب وجيه لكلامه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبي عليه السلام، فمن الطبيعي أن يتمنى مثل هذه الأمنية، إذ ها هو ذا النبي الموعود واقفا أمامه يجاذبه أطراف الحديث حول ما رآه في الغار عند ظهور جبريل له، فيجد من واجبه الإنساني على الأقل أن يبصره بما ينتظره من متاعب عند بدء الدعوة الفعلية ويُظهر له تعضيدته ويرفع من روحه المعنوية. أما كعب فكانت بينه وبين النبي الذي يتحدث عنه من الزمن ما لا معنى معه لما قال. وفضلا عن ذلك فميسم القرآن الكريم واضح وضوحا كبيرا في خطبته أسلوبًا ومعنى كما في قوله: "والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين... فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبيّ كريم"، وهو ما يذكّرنا بقوله تعالى: "ألم نجعل الأرض مهادا* والجبال أوتادا*...؟" (النبا/ 7)، "قل: إن الأولين والآخرين* لجموعون إلى ميقات يوم معلوم" (الواقعة/ 49-50)، "قل: هو نبأ عظيم" (ص/ 67)، "ولقد فتّنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسولٌ كريمٌ" (الدخان/ 17). ولو كان كعب قال ذلك فعلاً لكان حُجَّةً للمشركين يشهرونها بكل بساطة وشماتة

في وجهه صلى الله عليه وسلم قائلين له: ما بالك تأخذ كلام جدك وتدعى أنه من وحى السماء؟ ثم ما معنى نصحه إياهم أن يتمسكوا بالبيت الحرام ولا يفارقوه؟ هل سمع أحد أن قريشا فكرت يوما في شيء من هذا القبيل، وهى التى لم يكن لها شرف في العرب إلا شرف القيام على أمر البيت الحرام؟ وبالنسبة لماذا لم يعرّج كعباً على الأوثان التى كانت في بيت الله فيزجر قومه عن عبادتها وتقديسها ما دام يتحدث بهذا السرور والإيمان عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ والطريف أن أحدا من سامعيه لم يخطر له أن يستفسر منه عمّن يكون محمد هذا، أو يستغرب ظهور نبى من العرب أصلا. بل إنه لمن الواضح أن كعبا، حسب الخطبة التى طالعناها لتونا، لم يكن يدور في باله أن محمدا هذا لن يكون أحدا آخر غير حفيد من أحفاده سيولد بعد عدة أجيال!

وعلى نفس الشاكلة تجرى الأحاديث التالية المنسوبة إلى خنافر بن التوأم الحميري وشافع بن كليب الصدي وسطيح الذئبي وشقّ أنمار وعفّيراء الكاهنة على التوالى:

1- حديث خنافر بن التوأم الحميري مع ربيّه شصار: "كان خنافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قد أوتي بسطة في الجسم وسعة في المال، وكان عاتيا. فلما وفدت وفود اليمن على النبي وظهر الإسلام أغار على إبل لمُرَاد فاكسحها،

وخرج بأهله وماله ولحق بالشَّحْر، فخالف جَوْدَانَ بن يحيى
 الفِرْضَمِي، وكان سيِّداً منيعاً، ونزل بوادٍ من أودية الشَّحْر
 مُخَصِّباً كثير الشجر من الأيك والعَرِين. قال خنافر: وكان
 رَيِّبِي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام فقدَّته
 مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينما أنا ليلةً بذلك الوادي نائمًا إذ
 هَوَى (انحدر في الجَوِّ) هَوَى العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت:
 شصار؟ فقال: اسمعَ أَقْلُ. قلت: قُلْ أَسْمَعُ. فقال: عِهُ تَعْنَمُ.
 لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذي أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل
 دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حَوْل. انشِخِ النَّحْل، ورجعت إلى
 حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك
 مبذول، وإني آنستُ بأرض الشام نَفَرًا من آل العُدَّام (يقصد
 قبيلة من الجن)، حكَّاما على الحكَّام، يَذْبُرُونَ (يقرأون) ذا
 رونق من الكلام، ليس بالشَّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلَّف،
 فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعادتُ فظَلَفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم
 تُهَيِّنُمُونَ؟ وإلام تَعْتَرُونَ؟ قالوا: حِطَّابٌ كُبَّار، جاء من عند
 الملك الجبار، فاسمع يا شصار، عن أصدق الأخبار، واسلك
 أوضح الآثار، تنجُ من أوار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟
 فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل
 المَدَر، ابتعثَ فظهر، فجاء بقولٍ قد بهر، وأوضحَ نهجًا قد
 دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّفَ بالآيِ

الكُبر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُصْرَ؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنت أُعْطِيتَ الشَّيْرَ (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقْرَ. فآمنتُ يا خُنَافِر، وأقبلت إليك أبادر، فجانبُ كل كافر، وشايِعُ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإحْرَيْن، والثَّقَرِ اليمانيين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِحْ. قال: الإْحَقُّ يشرب ذات النخل، والحرّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم اَمَلَسَ عني، فبِتُّ مدعورا أراعي الصباح. فلما برق لي النور امتطيتُ راحلتي وآذنتُ أعْبِدِي واحتملتُ بأهلي حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْهَا وَسِقَابِهَا (أى بِجَمَاهَا وَتَوْقِهَا. جَمَع: "حائل" و"سَقَب") وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبتُ بها معاذ بن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام، وعَلَّمَنِي سورا من القرآن، فمنَّ الله علي بالهدى بعد الضلالة والعلم بعد الجهالة".

2- شافع بن كُليب الصَّدْفِيّ يتكهن بظهور النبي: "قَدِمَ على تُبَّعِ الآخِرِ ملكِ اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافع بن كُليب الصَّدْفِيّ، وكان كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقوم مُلْكًا يوازي مُلْكِي؟ قال: لا، إلا مُلْكُ غسان. قال: فهل تجد مُلْكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائدٍ بالقُهُور، ووُصِفَ في الزُّبُور، فَصَلَّتْ أمته في السفور، يفرِّج الظُّلم بالنور، أحمد

النبي، طوبى لأمته حين يجي، أحد بني لُؤَيٍّ، ثم أحد بني قُصَيٍّ.
فنظر تَبَّع في الزبور، فإذا هو يجد صفة النبي".

3- سَطِيحُ الذَّبِي يَعْبُرُ رُؤْيَا رِبِيعَةَ بِنِ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ:
"رأى ربيعة بن نصر اللخمي ملك اليمن، وقد ملك بعد تَبَّع
الآخر، رؤيا هالته فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عانفا ولا
منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت
رؤيا هالتي وفطعتُ بها، فأخبروني بها وتأويلها. قالوا له:
اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إني إن أخبرتكم بما لم
أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من
عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك
يريد هذا فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقٍّ، فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما
فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقدم عليه سَطِيحٌ قبل
شِقٍّ، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتي وفطعتُ بها فأخبرني بها،
فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. قال: أفعل. رأيت حُمَّة،
خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تَهْمَة، فأكلت منها كل ذات
جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئا يا سَطِيح، فما
عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحرتين من حنش،
ليهبطن أرضكم الحيش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش. فقال
له الملك: وأبيك يا سَطِيح إن هذا لنا لغائظٌ موجه، فمتى هو
كائن؟ أفي زماني هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحين، أكثر من

ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفيَدُوم ذلك من مُلكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يُقتلون بما أجمعين، ويخرجون منها هارين. قال: ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبيُّ زكيّ، يأتيه الوحي من قِبَل العَلِيِّ. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النصر، يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم. يومٌ يُجمَع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه الحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقُّ ما نخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا انشقَّ، إن ما أنباتك به لَحَقَّ".

4- شِقَّ أثمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا: "ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم رأيت حُمَّمة، خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلت منها كل ذات نَسْمَة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأت يا شِقُّ منها شيئا، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرّتين من إنسان، لَيترلنَّ أرضكم السودان، فليغلبنَّ على كل طَفلة البنان، وليملكنَّ ما

بين أبيين إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغاظ موجه، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بدني ولا مُدَنَّ، يخرج عليهم من بيت ذي يزن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْكُ في قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم تُجَزَى فيه الولاية، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجَمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحقُّ ما تقول؟ قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأئك به لَحَقُّ ما فيه أَمْض. فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالوا، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلِحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمن بقيه ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر".

5- وفود عبد المسيح بن بُقَيْلَةَ على سَطِيح: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما كان ليلة وُلِدَ النبي ارتجَّ إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظُمَ ذلك على أهل

مملكته، فما كان أَوْشَكَ أَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْيَمَنِ يَخْبِرُهُ أَنْ
 بِحِيرَةَ سَاوَةَ غَاضَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ السَّمَاوَةِ
 يَخْبِرُهُ أَنْ وَادِي السَّمَاوَةِ انْقَطَعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ
 طَبْرِيَّةَ أَنْ الْمَاءُ لَمْ يَجْرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي بَحِيرَةِ طَبْرِيَّةَ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ
 صَاحِبُ فَارِسَ يَخْبِرُهُ أَنْ بِيوتِ السَّنِيرَانِ حَمَدَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَلَمْ
 تَحْمَدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ سَنَةٍ. فَلَمَّا تَوَاتَرَتْ الْكُتُبُ أَبْرَزَ سُرِيرَهُ
 (أَيَ عَرْشِهِ) وَظَهَرَ لِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبْرَ، فَقَالَ الْمُوَبَّدَانِ:
 أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنِّي رَأَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا هَالْتَنِي. قَالَ لَهُ: وَمَا
 رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ إِبِلًا صِعَابًا، تَقُودُ خَيْلًا عَرَابًا، قَدْ اقْتَحَمَتْ
 دَجْلَةَ وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِنَا. قَالَ: رَأَيْتَ عَظِيمًا، فَمَا عِنْدَكَ فِي
 تَأْوِيلِهَا؟ قَالَ: مَا عِنْدِي فِيهَا وَلَا فِي تَأْوِيلِهَا شَيْءٌ، وَلَكِنْ أُرْسِلُ
 إِلَى عَامِلِكِ بِالْحِيرَةِ يُوَجِّهُ إِلَيْكَ رَجُلًا مِنْ عِلْمَائِهِمْ، فَإِنَّهُمْ
 أَصْحَابُ عِلْمٍ بِالْحَدِيثَانِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدَ الْمَسِيحِ بْنِ بُقْيَالَةَ
 الْغَسَّانِيَّ، فَلَمَّا قَدَّمَ عَلَيْهِ أَخْبَرَهُ كَسْرَى الْخَبْرَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا
 الْمَلِكُ، وَاللَّهِ مَا عِنْدِي فِيهَا وَلَا فِي تَأْوِيلِهَا شَيْءٌ، وَلَكِنْ جَهَّزْنِي
 إِلَى خَالِ لِي بِالشَّامِ يَقَالَ لِي: سَطِيحٌ. قَالَ: جَهَّزُوهُ. فَلَمَّا قَدَّمَ إِلَى
 سَطِيحٍ وَجَدَهُ قَدْ احْتَضِرَ، فَنَادَاهُ فَلَمْ يَجِبْهُ، وَكَلِمَهُ فَلَمْ يَرُدْ
 عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ:

أَصُمُّ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيْفُ الْيَمَنِ؟	يَا فَاضِلُ الْخَطَّةَ أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ؟
أَتَاكَ شَيْخٌ الْحِي مِنْ آلِ سَنَنْ	أَبْيَضُ فَضْفَاضُ الرِّدَاءِ وَالْبَدَنِ
رَسُولٌ قِيلَ الْعَجْمُ يَهْوَى لِلوِثْنِ	لَا يَرْهَبُ الرَّعْدُ وَلَا رَبِّبَ الزَّمَنِ

فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشِيحٍ (أى سريع)، إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وحمود النيران، ورؤيا الموبدان. رأى إبلاً صِعَابًا، تقود خيلاً عِرَابًا، قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخذت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقَامًا، ولا الشام لسطيحٍ شامًا. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم	فإن ذا الدهر أطواراً دهاريرُ
منهم بنو الصرح بهرامٍ وإخوته	والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
فربما أصبحوا يوماً بمتزلةٍ	تهاب صَوْلَهُم الأُسْدُ المِهاصيرُ
حَنَّوا المَطِيَّ وجَدَّوا في رحالهمو	فما يقوم لهم سرجٌ ولا كُورُ
والناس أولاد غلاتٍ، فمن علموا	أنَّ قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشر مقرونان في قرنٍ	فالخير متبَعٌ، والشر محذورُ

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح، فغممه ذلك ثم تَعَزَّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة، وكان آخر من هلك منهم في أول خلافة عثمان رضي الله عنه".

6- عُفَيْرَاءُ الكَاهِنَةِ تَعْبُرُ رُؤْيَا مَرْتَدِ بْنِ عَبْدِ كَلَّالٍ:
 "رُؤِيَ أَنَّ مَرْتَدَ بْنَ عَبْدِ كَلَّالٍ قَفَلَ مِنْ غَزَاةٍ غَزَاهَا بِغَنَائِمٍ
 عَظِيمَةٍ، فَوَفِدَ عَلَيْهِ زَعَمَاءُ الْعَرَبِ وَشِعْرَاؤُهَا وَخَطَابَاؤُهَا
 يَهْتِنُونَهُ، فَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنِ الْوَافِدِينَ وَأَوْسَعَهُمْ عَطَاءً وَاشْتَدَّ
 سُرُورُهُ بِهِمْ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نَامَ يَوْمًا فَرَأَى رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ
 أَخْفَيْتُهُ وَأَذَعَرْتُهُ وَهَالَتْهُ فِي حَالِ مَنَامِهِ، فَلَمَّا انْتَبَهَ أُتِسِبَهَا حَتَّى لَمْ
 يَذْكَرْ مِنْهَا شَيْئًا وَثَبَّتَ ارْتِيَاعُهُ فِي نَفْسِهِ بِهَا، فَانْقَلَبَ سُرُورُهُ
 حُزْنًا وَاحْتَجَبَ عَنِ الْوَفُودِ حَتَّى أَسَاءُوا بِهِ الظَّنَّ. ثُمَّ إِنَّهُ حَشَرَ
 الْكُهَانَ فَجَعَلَ يَخْلُو بِكَاهِنِ كَاهِنٍ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَمَّا أُرِيدُ
 أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، فَيُجِيبُهُ الْكَاهِنُ بِأَنْ لَا عِلْمَ عِنْدِي، حَتَّى لَمْ يَدْعُ
 كَاهِنًا عِلْمَهُ إِلَّا كَانَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، فَتَضَاعَفَ قَلْقَهُ، وَطَالَ أَرْقُهُ.
 وَكَانَتْ أُمُّهُ قَدْ تَكْهَنَتْ، فَقَالَتْ لَهُ: أَيْبَتَ اللَّعْنِ أَيُّهَا الْمَلِكُ! إِنْ
 الْكُوهَانَ أَهْدَى إِلَى مَا تَسْأَلُ عَنْهُ لِأَنَّ أَتْبَاعَ الْكُوهَانِ مِنَ الْجَانِّ،
 أَلْطَفَ وَأَظْرَفَ مِنْ أَتْبَاعِ الْكُهَانِ. فَأَمَرَ بِحُشْرِ الْكُوهَانِ إِلَيْهِ
 وَسَأَلَهُنَّ كَمَا سَأَلَ الْكُهَانَ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عِلْمًا مِمَّا
 أَرَادَ عِلْمَهُ. وَلَمَّا يَتَسَّسَ مِنْ طَلِبَتِهِ سَلَا عَنْهَا. ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ
 ذَهَبَ يَتَّصِدُ فَأَوْغَلَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ وَانْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ
 فَرُفِعَتْ لَهُ أَبْيَاتٌ مِنْ ذَرَاةِ جَبَلٍ (أَيُّ فِي ظِلِّ جَبَلٍ). وَكَانَ قَدْ
 لَفَحَهُ الْمَهْجِيرُ فَعَدَلَ إِلَى الْأَبْيَاتِ وَقَصَدَ بَيْتًا مِنْهَا كَانَ مَنْفَرْدًا
 عَنْهَا، فَبَرَزَتْ إِلَيْهِ مِنْهُ عَجُوزٌ فَقَالَتْ لَهُ: انْزِلْ بِالرُّحْبِ وَالسَّعَّةِ،

والأمن والدعة، والجفنة المدَّعَدَّة (المتلئة عن آخرها)، والعُلبَة
المُتْرَعَة. فترل عن جواده ودخل البيت. فلما احتجب عن
الشمس وخَفَقَتْ عليه الأرواح (أى النسائم) نام فلم يستيقظ
حتى تصرَّم المهجير، فجلس يمسح عينيه، فإذا هو بين يديه فتاة لم
ير مثلها قَوَّاما ولا جمالا، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك الهمام،
هل لك في الطعام؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لَمَّا رأى
أنها عرفته، وتصامَّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَرَ، فذاك
البشر، فجدُّك (حظُّك) الأكبر، وحظنا بك الأوفر. ثم قَرَّبَتْ
إليه ثَرِيداً وقَدِيداً وحَيِّساً، وقامت تذبُّب عنه حتى انتهى أكله،
ثم سقته لبنا صَرِيْفاً وضَرِيْباً، فشرب ما شاء وجعل يتأملها
مقبلةً ومدبرةً، فملأت عينيه حُسْناً، وَقَلْبَهُ هَوًى، فقال لها: ما
اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيْرَاء. فقال لها: يا عفراء، من
الذي دَعَوْتَهُ بالملك الهمام؟ قالت: مرَّئِدُ العَظِيمِ الشان، حاشر
الكواهن والكهَّان، لمعضلةٍ بَعْدَ عنها الجان. فقال: يا عفراء،
أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك. إنها رؤيا منام،
ليست بأضغاث أحلام. قال الملك: أصَبَّتِ يا عفراء، فما تلك
الرؤيا؟ قالت: رأيت أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها
هَب لَامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعت فيما
أنت سامع، دعاء ذي جَرَسٍ صادع: هلموا إلى المشارع،
فرَوِي جَارِع، وغَرِقَ كارِع. فقال الملك: أَجَلٌ، هذه رؤياي،

فما تأويلها يا عفراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوكٌ تَبَّاع،
والنهر عِلْمٌ واسع، والداعي نبيٌّ شافع، والجارع وليٌّ تابع،
والكارع عدوٌّ منازع. فقال الملك: يا عفراء، أَسَلِمَ هذا النبي
أم حَرَبٌ؟ فقالت: أُقَسِمُ برافع السماء، ومُنزِلِ الماء، من
العَمَاء، إنه لَمُطَلِّ الدماء، ومُنَطِّقِ العقائل نُطُقَ الإماء. فقال
الملك: إلامَ يدعو يا عفراء؟ قالت: إلى صلاةٍ وصيام، وصلة
أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام. فقال
الملك: يا عفراء، إذا ذبح قومه فَمَنْ أعضاده؟ قالت: أعضاده
غطاريفُ يمانون، طائرهم به ميمون، يُغزِيهم فيغزون، ويدمُّت
بهم الحزُون، وإلى نصره يعتزُون. فأطرق الملك يؤامر نفسه في
خِطْبَتِها، فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غيور،
ولأمرى صبور، وناكحي مشبور، والكَلْفُ بي تُبور. فنهض
الملك وجال في سهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقةٍ
كَوْماء".

ونبدأ بحديث خنافر، وفي هذا الحديث نلاحظ ما يلي:
أن رَبِّيَّ خنافر قد تركه في عمالته فلم يعلمه بأن نبيا جديدا
ظهر بدعوته في بلاد العرب، إلى أن أصبح الناس في تلك البلاد
كلهم يعلمون ذلك، اللهم إلا خنافرا. فعندئذ، وعندئذ فقط،
تذكر شَصَارُ صاحبه الكاهن المسكين النائم على أذنه لا يدري
خبر الإسلام رغم أن نوره كان قد دخل اليمن وأضحى لدولته

فيها رسولٌ من لدن النبي الكريم هو معاذ بن جبل رضى الله عنه. ترى ما دور شصار إذن إذا لم يكن ما أنبأ به خنافراً إلا خبراً يعرفه القاصي والداني؟ إن معنى هذا أن شيطان خنافر قد هجره هجراً غير جميل طَوَّال ما يقرب من عشرين سنة، أى منذ بدء النبوة إلى وقت دخول الإسلام اليمين في أواخر حياته صلى الله عليه وسلم، فكيف كان خنافر يمارس كهانته إذن دون رَئىٍّ من الجن؟ أم تراه توقف عن ممارستها كل تلك الفترة؟ لكن هل يمكن أن يكون ذلك؟ وهل يمكن أن يستعيض كاهن عن كهانته بالسرقة والإغارة على إبل الآخرين، وبخاصة أن خنافراً لم يكن، كما هو بيّن من القصة، ذا عزوة تمنعه من طلب القبائل المعتدى عليها وعملها على الشار منه؟ كذلك ليس هناك سبب مفهوم لهجر شصار لصاحبه كل تلك المدة، وهذه تُعْرَة في القصة تحتاج إلى ما يملؤها. كما أن تهديده له بأنه إذا لم يعتنق الإسلام مثله فلن يراه مرة أخرى هو تهديد لا معنى له، لأن معنى هذا التهديد أن شصار لن يساعد خُنافراً في كهانته، مع أننا نعرف جيداً أن الإسلام يكفّر الكهان ويجارهم دون هوادة، وهو ما يعنى بكل وضوح أن اللقاء بينهما من الآن فصاعداً سيكون لقاء مجرماً ومحرمّاً أشد التجريم والتحريم، وهذا إن قبلَ الجنى أن يقوم بدوره القديم المناقض لعقيدته الجديدة التى يدعو إليها خنافراً! فكما ترى هذه تُعْرَة أخرى فى

القصة يصعب بل يستحيل سَدّها. ثم أليست القصة تريد أن تقول إن شصار قد أتاه بخبر الغيب، فأى غيب هذا الذى كان يعرفه الجميع فى أرجاء الجزيرة الأربعة؟ بل لماذا لم يعرف شصار بدوره بنبي الإسلام إلا من إخوان له من الجن كانوا قد آمنوا قبله؟ ولماذا يا ترى كانوا يزجرونه عن سماع القرآن الذى كانوا يتلونونه؟ ألم يأت القرآن لهداية الجن والإنس؟ فهل مما يتناسب مع هذه الغاية أن يُزَجَّر عنه من يريد سماعه؟ فكيف يعرف إذن ما جاء فيه من هدى ونور؟ إن سورة "الجن" والآيات 29-32 من سورة "الأحقاف" تحدثنا عن سماع نفر من الجن للقرآن من الرسول عليه السلام دون أن يزجرهم زاجر، فلماذا جرى الأمر فى قصتنا هذه على خلاف ذلك؟ ولماذا كان هؤلاء النفر من الجن من أهل الشام لا من أهل اليمن؟ أترى القصة تريد أن تقول إن "الشيخ البعيد سره باتع"؟ أم تريد أن تجرى على سُنَّة المثل القائل: "من أين أذنك يا جحا؟" كذلك ألم ينصح شَصَارُ لخنافر بأن يأتى النبى فى المدينة؟ فلماذا اكتفى خُنَافِرُنَا بقاء مُعَاذِ بْنِ جَبَلِ بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْكَلَامِ الْمَشُوقِ لِرُؤْيَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ؟ يَا لَهُ مِنْ كَاهِنِ كَسُولٍ! بل لماذا أراد صنعاء من الأصل، ولم يأت لها ذكر فى الحوار بينه وبين رَبِّيهِ؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر
 خنافر ليغيب عن كُتُب الحديث؟ كذلك لو كان ما قرأناه هنا
 صحيحا لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمنى سلاحا بتارا في
 الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون؟ صحيح أنه إنما
 أسلم، كما رأينا، بأخرة، لكن لا شك أن خبره كان يمكن أن
 يكون ذا نفع جزيل في معركة الدعاية بحيث يسهّل إنجاز المهمة
 الباقية، وهى القضاء على فلول الوثنية في بلاد العرب، تلك
 الوثنية التى لم تكن قد سحمت تماما حتى بعد وفاة الرسول عليه
 الصلاة والسلام وانفجرت متخذةً شكل رِدَّةٍ مستطيرة. ثم
 مصطلح "السجع المتكلف"، هذا المصطلح البلاغى الذى لم
 يعرفه العرب قبل عصر الازدهار الثقافى فى العصر العباسى، من
 أين يا ترى للعرب الجاهليين بمعرفته؟ بل إن فى الخطبة سجعاً
 متكلفاً لا قبِل للجاهليين به كما هو واضح فى المثال التالى:
 "خِطَابٌ كُبَّارٌ، جَاءَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، فَاسْمَعُ يَا شَصَّارَ، عَنِ
 أَصْدَقِ الْأَخْبَارِ، وَاسْلُكْ أَوْضِحَ الْآثَارِ، تَنْجُ مِنْ أَوَارِ النَّارِ"،
 علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الفنية الجميلة المتمثلة فى
 هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجنى: "قال: اسْمَعْ أَقْلُ.
 قلت: قُلْ اسْمَعْ" والتي يصعب على أن أتصورها من شيم
 الأدب الجاهلى. ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب
 للجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عالم خفى لا نعرف نحن

البشر عنه شيئاً سوى ما جاء في الوحي كما هو الحال فيما
 أنبأنا به رب العزة من كلامهم عندما استمعت طائفة منهم إلى
 القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأنا لا أستطيع أن
 أهضم شيئاً منه كما هو الحال هنا، وبخاصة أنه كلام عربي،
 فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطنعون السَّجْعَ والجِنَّاسَ
 وسائر المحسنات البديعية أيضاً؟ وبطبيعة الحال لا يمكن القول
 بأنهم في سُورَتِي "الأحقاف" و"الجن" قد استخدموا كذلك
 لسان بني يعرب، إذ الواقع أن ما نقرؤه هناك من كلامهم إنما
 هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التي لا ندرى نحن البشر عنها شيئاً.

على أن القضية لما تنته عند هذا الحد، إذ نقرأ قوله:
 "كان رَبِّي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني، فلما شاع الإسلام
 فقدته مدة طويلة، وساءني ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي
 نائماً إذ هَوَى هَوَى الْعُقَابِ، فقال: خفاير؟ فقلت: شصار؟
 فقال: اسْمَعْ أَقْلُ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَعْنَمْ. لكل مدة
 نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى
 أَجَلٍ، ثم يتاح لها حَوْلٌ. انْتَسَخَتِ النَّحْلُ، ورجعت إلى حقائقها
 المَلَلِ. إنك سَجِيرٌ (أى صديقٌ) موصول، والنصح لك مبذول،
 وإني آنستُ بأرض الشام نَفَرًا من آل العُدَّامِ (يقصد أنه قابل
 قبيلة من الجن)، حُكَّامًا على الحُكَّامِ، يَذْبُرُونَ ذا رونقٍ من
 الكلام، ليس بالشَّعرِ المؤلَّفِ، ولا السَّجْعِ المتكلَّفِ، فأصغيتُ

فُرْجِرْتُ، فعاودتُ فظَلِمْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بم تُهَيِّنُمون؟ وإلام تَعْتَرُون؟ قالوا: خِطَابُ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شِصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنجُ من أوار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانُ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتعث فظهر، فجاء بقولٍ قد بهر، وأوضح هجاً قد دثر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومعاذ لمن ازدجر، أُلِّفَ بالآي الكُبر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنت أُعْطِيتَ الشَّبر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فأمنتُ يا خُنَافِر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعِ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذات الإحْرَيْن (أى الحجارة السُّود)، والتَّنْفَرِ اليمانيين، أهل الماء والطين". ومعنى هذا الكلام أن خنافرا، كما هو واضح من مفتاح حديثه، كان يعرف بمجىء الإسلام منذ البداية، لكننا نفاجأ، من خلال أسئلته عن الدين الجديد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نزل عليه، بأنه لم يكن يعرف شيئا من ذلك بالمرّة. فكيف يسوغ فى العقل هذا؟

ولقد تصادف، بعد كتابة هذه الملاحظات بأيام، أن كنت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد على عن سجع الكهان فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، فوجدته يقول

عن هذه القصة إنما "خبر يرجع سنده إلى ابن الكلبي. وقد ذكر في "الأخبار المشورة" لابن دُرَيْد أنه (أى خُتَافِرًا) أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن. لا أدري كيف حفظه ابن الكلبي ورواه عن والده، الذي صنعه ووضع، إلا أن يكون والده قد حضر الخاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعَدُّ من المستحيلات". أى أن في العلماء العرب من لا يطمئنون مثلى إلى هذه القصة، وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال في حد ذاته بالقول بأن والد ابن الكلبي، وإن لم يحضر واقعة إسلام خنافر والحوار الذى دار بينه وبين شَصَار قبلها، قد سمعها مع هذا ممن سمعها بدوره من فم ذلك الكاهن. وعلى هذا فالأفضل هنا اللصوق بالأدلة التى اعتمدت أنا عليها بدلا من الالتجاء إلى التشكيك فى ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شافعِ الصَّدَفِيِّ فغريبٌ أن يقول ذلك الكاهن إن مُلْك بنى غَسَّان أعظم من مُلْك التبابعة على الرغم من أن الغساسنة لم يكونوا سوى مملكة صغيرة على حدود الروم لا قيمة لها حقيقية، على حين أن التبابعة كانوا يحكمون دولة كبيرة كاليمن ذات اتساع وتاريخ وحضارة معروفة لم يكن لدُوَيْلَةَ غَسَّان منها شىء! ثم غريب أيضا أن تترك القصة التوراة والإنجيل وتذهب إلى الزَّبُور لتقول إنه قد وردت فيه البشارة بنبينا الكريم، مع أنه لم يأت فى القرآن ولا

في الحديث أن بشاراً مثل هذه موجودة في الزبور! وبالنسبة لسطيح ونبوءته لربيعه اللّخمي هل يجوز في العقول أن يجرؤ كاهن كسطيح على أن يجبه الملك ويدخل الغمّ عليه بقول الحقيقة له كاملة ودون توشية، مع أنه كان في مندوحة عن هذا، إذ لم تكن النبوءة المزعجة لتقع قبل بضعة وسبعين عاما يكون هو نفسه خلالها أو الملك قد مات، وكان الله يجب الحسين؟ وهذا إن جاز لنا أن نصدق أن سطيحاً يمكن أن يعرف شيئا من أمور الغيب المحجوب عن البشر والجن والملائكة جميعا؟ ثم أليس غريبا ألا يجد كسرى من بين كهانه في مملكته الطويلة العريضة من يستطيع أن يعبر له رؤياه حتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب؟ كذلك من غير المعقول أن يجرؤ كاهن على أن يجبه رسول كسرى بهذا التفسير المزعج للرؤيا، ثم يجبه هذا به عاهله دون محاولة من جانبه لتلطيف وقع الأمر. ودعنا الآن من التحوير في تعبير الرؤيا كما قلنا من قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التي قام سطيح هو أيضا بتفسيرها! ومن الغريب في الأمر أن أيا من كبار رجال فارس، حين بدأ الفتح الإسلامي لبلادهم، لم يتذكر رؤيا عاهلهم هذه، مع أنها ليست من الأشياء التي يمكن أن تُنسى بسهولة نظرا لخطورة موضوعها والظروف التي رُئيت وفسرت فيها كما لاحظنا، وإلا فكيف وصلتنا هذه الرؤيا وتفسيرها إذا كانت

قد اَمَّحَتْ من الذاكرة الفارسية؟ ثم لا ينبغي أن يفوت انتباهنا ما جاء في تعبير شقّ أثمار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: "يوم الفصل" (الذي ورد في سورة "المرسلات")، وقوله أيضا: "وربّ السماء والأرض... إن ما أنبأتك به لَحَقّ؟" (المأخوذ من سورة "الذاريات")، وقوله: "يوم الميقات" (وهو مقلوب العبارة القرآنية: "ميقات يوم معلوم" الموجودة في سورة "الواقعة")، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعقل أن ترفض عُفَيْراء خِطْبَةَ الملك لها؟ إن ما قالته في تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعاً بحال! ثم متى ذبح النبي قومه؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصره؟ فأين ذهب الصّدّيق إذن والفراروق وذو النورين وأبو الحسين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وبلال الحبشي وصُهَيْب الرومي وسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام وخالد وعمرو وأبو سفيان والمغيرة وأبو دُجَانة والنابغة الجعدي وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة وخنافر وعمرو بن مَعْدِيكِرَب وآلاف بعد آلافٍ مثلهم من غير الأنصار، من قريش ومن خارج قريش، من العرب ومن وراء العرب رضى الله عنهم جميعاً؟ أما ارتجاج الديوان الكِسْرَوِيّ وانطفاء النيران في معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة وما إلى ذلك فَنُعَدِّي عنها لأنّها لا

حقيقة لها في واقع التاريخ، ولذلك لم تتعرض لها كتب المسلمين الأوائل بشيء، وهو ما يذكرنا بأسطورة انشقاق الهيكل عند وقوع الصلْب طبقاً لرواية مؤلّفي (أو بالأحرى: ملفّقى) الأناجيل! ثم لا ينبغي أن نتجاهل الوتيرة الواحدة التي تجرى عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منها على السؤال من جانب تُبَعِّع، والجواب من جانب الكاهن أو الكاهنة بلا أى تغيير، حَذْوِكَ النعل بالنعل!

ومما لا يطمئن له قلب الباحث في خُطْب الجاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صدرت عنهم، كما في الشاهد التالي، وهو من خُطْبَة عامر بن الظَّرْب العدواني حين خُطِبَتْ ابنته عمّرة، إذ جاء فيها قوله لقومه: "فهل لكم في العِلْم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلت فأصبت، وأخبرت فصدقت. فقال: أمورا شتى وشيئا شياً، حتى يرجع الميت حياً، ويعود لاشيء شياً"، إذ من المستبعد تماماً أن يعرف الجاهليون مصطلح الـ"لاشيء" هذا، فهو لفظ منحوت لا أظنه أبداً قد سُكَّ ونزل إلى ساحة الكلام قبل العصر العباسي! بيد أن هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون النص كله مشكوكاً فيه، فإني لا أجد في نفسى شيئاً ذا بال من أن تكون هذه الخطبة، فيما عدا الكلمة المذكورة، قد قالها ذلك الرجل الجاهلي، إما كما هي أمامنا الآن أو بعد أن تكون الذاكرة أو الأقلام قد مسَّتها

بعض المسّ خلال رحلتها من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر التدوين، وبخاصة أن قد رواها لنا أمثال الميداني والجاحظ وابن عبد ربه حسيما ذكر أحمد زكي صفوت في ذيلها، فضلا عن أن السجع فيها ليس متكلفًا ولا مطرّدًا كما في بعض الخطب الأخرى.

كما أن في بعض تلك الخطب ترفا ثقافيا وأديبا لا يقدر عليه الجاهليون، ومن ثم كنا لا نطمئن إليها. لنأخذ مثلا النص التالي: "كان قيس بن رفاعة يفتد سنةً إلى النعمان اللخميّ بالعراق، وسنةً إلى الحارث بن أبي شمير العسائي بالشام، فقال له يوما وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضل النعمان عليّ. قال: وكيف أفضله عليك أبيت اللعن؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه، ولأملك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولجرمانك أنفع من نداءه، ولقليلك أكثر من كثيره، ولشمالك (أى قليل مائك) أغزر من غديره، ولكرسيك أرفع من سريره، ولجذوك أغمر من بحوره، وليومك أفضل من شهوره، ولشهرك أمدّ من حوله، ولحوالك خير من حقبه (الحقب: القرن)، ولزئدك أورى (أسرع إلى الاشتعال) من زنده، ولجندك أعزّ من جنده، وإنك لمن غسان أرباب الملوك، وإنه لمن لحم الكثير الثوك (الكثير الحمقى)، فكيف أفضله عليك؟"، فمما لا يطمئن له القلب في

قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِرِ العبارة التالية:
 "وَلْيَوْمُكَ أَفْضَلُ مِنْ شَهْرِهِ، وَلَشَهْرُكَ أَمَدٌ مِنْ حَوْلِهِ، وَلِحَوْلِكَ
 خَيْرٌ مِنْ حُقْبِهِ"، إذ إن صياغة مثل تلك العبارة تحتاج إلى ما لا
 يحسنه الجاهليون من تنوُّقٍ وترقُّفٍ فكريٍّ وأسلوبٍ يتمثل في
 التصاعد بالمعنى من اليوم إلى الشهر إلى الحَوْل إلى الحُقْب
 في تسلسلٍ جذابٍ تأخذ كل حلقة فيه بيد جارتها في شكلٍ فَنِّيٍّ
 لا نظير له لدى الجاهليين. أما سائر الخطبة فلا أجد فيه شيئاً
 يبعث على الريبة.

وإذا كان هناك من الخطب والأحاديث ما يرهقه السجع
 والجناس والموازنة وغير ذلك من زخارف البديع مما لا نعرفه
 في كلام الجاهليين ولا الإسلاميين، فإن هناك على العكس من
 ذلك خطباً وأحاديثاً تخلو تماماً من مثل ذلك التكلف أو
 تكتفى من تزويق البديع بالقليل الذي يسبغ على الكلام شيئاً
 من الرونق دون إسراف كما في المثال التالي من الحوار الذي
 دار بين قيس بن خُفَافِ البُرْجُمِيِّ وحاتمِ الطائي: "أتى أبو جليل
 قيسُ بن خُفَافِ البُرْجُمِيِّ حاتمَ طيِّبٍ في دماءٍ حَمَلَهَا عَنْ قَوْمِهِ
 فَأَسْلَمُوهُ فِيهَا وَعَجَزَ عَنْهَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَيْنٌ مَنْ يَحْمِلُهَا عَنِّي.
 وَكَانَ شَرِيفًا شَاعِرًا، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ: إِنَّهُ وَقَعَتْ بَيْنَ قَوْمِي
 دَمَاءٌ فَتَوَاكَلُوهَا، وَإِنِّي حَمَلْتُهَا فِي مَالِي وَأَمَلِي، فَقَدَّمْتُ مَالِي،
 وَكُنْتُ أَمَلِي. فَإِنْ تَحْمِلُهَا فَرُبَّ حَقٍّ قَدْ قَضَيْتَهُ، وَهَمٌّ قَدْ كَفَيْتَهُ،

وإن حال دون ذلك حائل لم أذمُّ يومك، ولم أيأس من غدك.
ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبراجمِ جَمَّةً	فجنتك لما أسلمتني البراجمُ
وقالوا سفاها: لِمَ حملتَ دماءنا؟	فقلت لهم: يكفي الحِمالةَ حاتمُ
متى آتته فيها يقل لي: مرحباً	وأهلاً وسهلاً، أخطأتك الأشائمُ
فيحملها عني، وإن شئتُ زادني	زيادةً من حنَّتٍ إليه المكارمُ
يعيش الندى ما عاش حاتمُ طَيِّ	فإن مات قامت للسخاء مآتمُ
ينادين: مات الجود مَعَكَ فلا نرى	مجيئاً له ما حام في الجوّ حاتمُ
وقال رجال: أذهب العام ماله	فقلت لهم: إني بذلك عالمُ
ولكنه يعطي من أموال طَيِّ	إذا جَلَّفَ المالَ الحقوقَ اللوازِمُ
فيعطي التي فيها العنى، وكأنه	لتصغيره تلك العطية جارمُ
بذلك أوصاه عديٌّ وحشَرَجَّ	وسعدٌ وعبدُ الله، تلك القماقمُ

فقال له حاتم: إن كنت لأحب أن يأتيني مثلك من قومك. هذا مرباعي من الغارة على بني تميم، فخذها وافراً، فإن وفي بالحِمالة، وإلا أكملتها لك. وهو مائتا بعيرٍ سوى بنيتها وفصاها، مع أبي لا أحب أن تُويسَ قومك بأموالهم. فضحك أبو جبييل وقال: لكم ما أخذتم منا، ولنا ما أخذنا منكم. وأي بعير دفعته إلي ليس ذنبه في يد صاحبه فأنت منه برىء. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعاً إلى قومه، فقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرجميُّ أبو جبييلٍ لهم في حِمالته طويل

فقلت له: خذ المِرباع رهواً فأني لست أرضى بالقليل
على حالٍ ولا عودتُ نفسي على علائكما عللَ البخيل
فخذها، إنها مائتا بعيرٍ سوى النابِ الرذِيَّةِ والفَصِيلِ
فلا مَنْ عليك بها، فأني رأيتُ المَنَّ يُزْرِي بالجزيلِ
فآب البرجميِّ، وما عليه منَ أعباءِ الحِمالةِ من فتيلِ
يجرّ الذيلَ يَنْفُضُ مِذْرَوِيَه خفيفَ الظهرِ من حملٍ ثقيلِ

وهذا فضلا عن النكهة الواقعية التي تفعم النص كله مما يعضد اقتناعي بأن تلك الحكاية بما فيها من حوار وشعر صحيحة غير مفتعلة، ومن ثم أقبلها وأنا مطمئن إلى حد كبير.

ومثلهما في ذلك النص التالي، وهو من حوار دار بين قُبَيْصَةَ بن نعيم وامرئ القيس الشاعر والملك المشهور في مقتل والده الأخير: "قدم على امرئ القيس بن حجر الكندي بعد مقتل أبيه رجالاً من قبائل بني أسد، وفيهم قُبَيْصَةَ بن نعيم، يسألونه العفو عن دم أبيه، فخرج عليهم في قَبَاءٍ وخُفٍّ وعمامةٍ سوداء، وكانت العرب لا تعتم إلا في التَّرات (أى عند الشار). فلما نظروا إليه قاموا له وبدَرَ إليه قبيصة فقال: إنك في الخلل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تُحدثه أيامه وتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكيرٍ من واعظٍ ولا تبصيرٍ من مجرّب. ولك من سُودَدَ منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب مَحْتَدٌ يحتمل ما حُمِلَ عليه من إقالة العثرة ورجوع

عن الهفوة. ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصبح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها. وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمّت رزيتته نزاراً واليمن، ولم تُخصّص بذلك كِنْدَةَ دوننا، للشرف البارع كان الحُجر: التاج والعِمّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد وطيب الشيم. ولو كان يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه. فأحمدُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلالِ ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا وأعلاها في بناء المكرمات صوتا، ففقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات حُسامك بباقي قَصرته، فنقول: رجلٌ امتحنَ بهالكِ عزيزٍ فلم يستلَّ سخيمته إلا تمكينه من الانتقام. أو فداءً بما يروح على بني أسد من نَعْمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القُصْب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحن على البراء. وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل فتسُدُّ الأزر، وتُعقد الحُمُر فوق الرايات. فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد عَلِمَتِ العرب أنه لا كَفءَ لحُجرٍ في دمٍ وأني لن أعتاض به جملاً ولا ناقةً فأكتسب به سُبّة الأبد، وفَتَّ العُصْد. وأما النَّظِرة فقد أوجبتُها الأجنّة في

بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببا. وستعرفون طلائع كندة
من بعد ذلك تحمل في القلوب حَقًّا، وفوق الأسنّة عَلْقًا
إذا جالت الحرب في مآزقٍ تصافح فيه المنايا النفوسا
أتقيّمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوا
الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروهٍ وأذية، وحربٍ وبيّة. ثم
هَمْضوا عنه، وقيصة يتمثل:

لعلك أن تستَوْحِمَ الوِرْدَ إنْ عَدَّتْ كَتَائِبُنَا فِي مَازِقِ الحَرْبِ تُمَطِّرُ
فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه. فرؤيبدأ
ينفرج لك دُجَاهَا عن فرسان كندة وكتائب حمير. ولقد كان
ذِكْرٌ غير هذا بي أَوْلَى إذ كنتَ نازلا برُبْعِي، ولكنك قلتَ
فأوجبت. فقال قيصة: ما يُتَوَقَّعُ فوق قدر المعاتبة والإعتاب.
فقال امرؤ القيس: هو ذاك".

وكذلك هذه الخطبة التي قالها عبد المطلب بن هاشم جد
النبي عليه السلام في حضرة سيف بن ذى يزن حين ذهب إليه
وفد العرب يهنئونه بانتصاره على الأحباش وإخراجه إياهم من
بلادهم: "لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة أتته وفود العرب
وأشرافها وشعراؤها تهنئته وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم
عبد المطلب بن هاشم. فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال: إن
الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامخاً،
وأنتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله،

وَبَسَقَ فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن. فأنت، أبيتَ
اللعن، رأسُ العرب وربيعُها الذي به تُخَصَّب، ومَلِكُها الذي به
تنقاد، وعمودها الذي عليه العِمَاد، ومَعْقِلُها الذي إليه يلجأ
العباد. سَلَفُك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، ولن
يَهْلِكَ من أنت خَلْفُهُ، ولن يَحْمُلُ من أنت سَلَفُهُ. نحن، أيها
الملك، أهل حَرَمِ الله وذِمَّتِهِ وسدنة بيته. أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الذي
أهْجَكَ بكشف الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة لا وفد
الْمَرْزَنَةِ".

ومثلها في ذلك خطبة أبي طالب عم النبي عندما ذهب
معه لِحِطْبَةِ خديجة بنت خُوَيْلِد له، وهذا نصها: "خَطَبَ أَبُو
طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال: الحمد لله الذي
جعلنا من زَرْعِ إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما
وبيتا محجوجا، وجعلنا الحَكَّام على الناس. ثم إن محمد بن عبد
الله ابن أخي من لا يُوَارِثُ به فِتْنَى من قريش إلا رَجَحَ عليه بَرًّا
وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً وُثْبلاً. وإن كان في المال قُلٌّ فَإِنَّمَا
المال ظِلٌّ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعةٌ، وله في خديجة بنت خويلد
رغبةٌ، ولها فيه مثل ذلك. وما أحببتُم من الصَّدَاقِ فَعَلَى".

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلي
تثير نوعاً آخر من التساؤلات، وهي الخطب التي يقال إن بعضاً
من وجوه العرب ورؤسائهم قد ألقوها في قصر العاهل

الكِسْرَوِيّ بالمدائن وبمحضرٍ منه ودار الجدل بينه وبينهم حول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل من المعقول أن يجروا أولئك العرب، الذين لم تكن لهم في ذلك الحين دولة تحميهم من بطش كسرى إذا فكر في البطش بهم، على أن يتفاخروا في وجهه ذلك الفخر المجلجل الذي يرفع العرب فوق كل الأمم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفودا من الصين والهند والروم كانت موجودة في ذلك الاجتماع تتبادل النفاخر والتباهى بأصولها وأعراقها، فهل كان هناك في تلك الأزمان ما يمكن ببساطة، ودون افتئات على حقائق الحوادث لو صح ما تقوله لنا الروايات، أن نسميه: "حوار القوميات" أو "حوار الحضارات"؟ ولكن فلنقرأ أولا شيئا من هذه الخطب وقصتها حتى يكون الكلام عن بينة. تقول الرواية:

"قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها. فقال كسرى، وأخذته عزة الملك: يا نعمان، لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حالة من يقدم على من وفود الأمم فوجدت للروم حظا في اجتماع ألفتها وعظم سلطاتها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها دينًا يبين حلالها

وحرامها ويرد سفيها ويقيم جاهلها. ورأيتُ الهند نحو من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها. والترک والخزر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيمهم وتُدبّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة. ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة. يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها. وإن قرى أحدهم ضيفا (أى أطعمه) عدّها مكرمة، وإن أطعم أكله عدّها غنيمة. تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التتويحية التي أسس جدّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوّها فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثارا ولبوسا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس، يعنى

اليمن. ثم لا أراكم تستكثرون على ما بكم من الذلة والقلّة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تترلوا فوق مراتب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حقّ لأمة المَلِكُ منها أن يَسْمُوَ فضلها وَيَعْظُمَ خَطْبُها وتعلو درجاتها، إلا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له. فإنّ أَمْنِي من غضبه نطقتُ به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمتك أيها الملك فليست تُنَازِعَ في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلّها وبُحْيُوحَة عِزِّها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرتَ فأَيّ أمة تفرّنها بالعرب إلا فَضَلْتَهَا؟ قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزّها ومنَعَتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنْفَتِها ووفائها: فأما عزّها ومنعتهَا فإنّها لم تنزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطّدوا الملك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنّتهم السيوف، وعُدَّتْهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عِزَّها من الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حُسْنُ وجوهها وألوانها فقد يُعْرَفُ فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنحرفة والروم والترك المشوّهة المقشّرة. وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من

الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عن من وراء أبيه دُنْيَا (أى بعده مباشرة) فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبًا فأبًا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يُدعى إلى غير أبيه. وأما سخاؤها فإن أدنانهم رَجُلًا الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغُهُ في حُمُوله وشِبعه وريِّه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكسبه حسن الأحدثة وطيب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجزع، ومطاياهم التي لا يُبلغ على مثلها سفراً، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قفر. وأما دينها وشريعته فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نُسكته بدينه أن لهم أشهرًا حُرْمًا وبلدًا محرّمًا وبيتًا محجوجًا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَعْمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله

بأذى. وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة، فهي ولتٌ (أى عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدئنه فلا يغلّق رهنه ولا تُخفّر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يُفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفّر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: "يئدّون أولادهم" فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيره من الأزواج. وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها إلا احتقارا لها فعمدوا إلى أجلّها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنّها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقّها ألبانا وأقلّها غائلة وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللّحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه. وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخوّفت هموض عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يُعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمّتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير

فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطث (أى الوطاء) بالعسف. وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجيش له على مُلكٍ متّسقٍ وأمرٍ مجتمعٍ فأتاه مسلوباً طريداً مُستصرّحاً. ولولا ما وتَرَ به من يليه من العرب لَمال إلى مجالٍ ولَوَجَد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كساه من كُسوته وسرّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلما قدم النعمان الحيرة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقُص العرب وتمجّين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زُرارة التميميين وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلائة وعامر بن الطَّفيل العامريين وإلى عمرو بن الشريد السلميِّ وعمرو بن معديكرب الزبيدي والحارث بن ظالم المرّي. فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرب جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفتُ أن يكون لها غورٌ أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً (أى خُدّاماً) كبعض طماطمته (الطماطمة: الذين لا يحسنون الكلام) في تأديتهم الخراج

إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فاقْتَصَّ عليهم مقالات كسرى وما ردَّ عليه، فقالوا: أيها الملك، وفقك الله! ما أَحْسَنَ ما رددت، وَأَبْلَغَ ما حَجَّجْتَهُ به! فمُرْنَا بأمرك وادْعُنَا إلى ما شئت. قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما مَلَكَتُ وَعَزَزْتُ بِمَكَانِكُمْ وما يَتَخَوَّفُ من ناحيتكم. وليس شيءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مما سَدَّدَ اللهُ به أَمْرَكُمْ وَأَصْلَحَ به شَأْنَكُمْ وأدام به عِزَّكُمْ. والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدَّثته نفسه. ولا ينطقُ رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا له الخِزَال الخاضع الذليل. وليكن أمرٌ بين ذلك تظهريه وثاقه حُلُومكم وفضْلُ مترلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكوننَّ ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا، فإنه ملكٌ مترفٌ وقادرٌ مسلطٌ. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلل الملوك، كلَّ رجل منهم حُلَّةً، وعمَّه عمامة، وختمه بياقوتةً، وأمر لكل رجل منهم بنجبيةٍ مَهْرِيَّةٍ وفرسٍ نَجِيَّةٍ، وكتب معهم كتابا: أما بعد، فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد عَلِم، وأجبتُه بما قد

فَهُمْ مِمَّا أَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ وَلَا يَتَلَجَّجُ فِي نَفْسِهِ أَنْ
 أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي احْتَجَزَتْ دُونَهُ بِمَمْلَكَتِهَا وَحَمَّتْ مَا يَلِيهَا
 بِفَضْلِ قُوَّتِهَا تَبْلُغُهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَعَزَّزُ بِهَا ذُوو الْحِزْمِ
 وَالْقُوَّةَ وَالتَّدْبِيرَ وَالمَكِيدَةَ. وَقَدْ أَوْفَدْتُ، أَيُّهَا الْمَلِكُ، رَهْطًا مِنْ
 الْعَرَبِ لَهُمْ فَضْلٌ فِي أَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَأَدَابِهِمْ،
 فَلْيَسْمَعْ الْمَلِكُ وَلْيُعْمِضْ عَنِ جَفَاءِ إِنْ ظَهَرَ مِنْ مَنْطِقِهِمْ،
 وَلْيُكْرِمْنِي بِإِكْرَامِهِمْ وَتَعْجِيلِ سَرَاحِهِمْ. وَقَدْ نَسَبْتُهُمْ فِي أَسْفَلِ
 كِتَابِي هَذَا إِلَى عَشَائِرِهِمْ. فَخَرَجَ الْقَوْمُ فِي أُهْبَتِهِمْ حَتَّى وَقَفُوا
 بِيَابِ كَسْرَى بِالْمَدَائِنِ، فَدَفَعُوا إِلَيْهِ كِتَابَ النِّعْمَانِ فَقَرَأَهُ وَأَمَرَ
 بِإِنْزَالِهِمْ إِلَى أَنْ يَجْلِسَ لَهُمْ مَجْلِسًا يَسْمَعُ مِنْهُمْ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ بَعْدَ
 ذَلِكَ بِأَيَّامٍ أَمَرَ مَرَازِبَتَهُ وَوَجُوهَ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ فَحَضَرُوا وَجَلَسُوا
 عَلَى كِرَاسِيٍّ عَنِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ دَعَا بِهِمْ عَلَى الْوَلَاءِ وَالمَرَاتِبِ
 الَّتِي وَصَفَهُمُ النِّعْمَانُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَأَقَامَ التَّرْجِمَانَ لِيُؤَدِيَ إِلَيْهِ
 كَلَامَهُمْ ثُمَّ أَذَّنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ.

فَقَامَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ أَعَالِيهَا،
 وَأَعْلَى الرِّجَالِ مَلُوكُهَا، وَأَفْضَلَ الْمُلُوكِ أَعْمَهَا نَفْعًا، وَخَيْرُ
 الْأَزْمِنَةِ أَحْصَبُهَا، وَأَفْضَلَ الْخُطْبَاءِ أَصْدَقُهَا. الصَّدَقُ مَنْجَاةٌ،
 وَالكَذِبُ مَهْوَاةٌ، وَالشَّرُّ لِحَاجَةٍ، وَالحِزْمُ مَرْكَبٌ صَعْبٌ، وَالعَجْزُ
 مَرْكَبٌ وَطِيءٌ. آفَةُ الرَّأْيِ الهَوَى، وَالعَجْزُ مِفْتَاحُ الْفَقْرِ، وَخَيْرُ
 الْأُمُورِ الصَّبْرُ. حَسَنُ الظَّنِّ وَرَطَّةٌ، وَسَوْءُ الظَّنِّ عَصْمَةٌ. إِصْلَاحُ

فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء. شر البلاد بلاد لا أميرَ بها. شر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سيرته. يكفيك من الزاد ما بلغك الخلّ. حَسْبُكَ من شرّ سماعه. الصمت حُكْمٌ، وقليلُ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدّد نَفْرًا، ومن تراخى تَأَلَّفَ. فتعجب كسرى من أكتهم ثم قال: ويحك يا أكتهم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وَضَعُكَ كلامك في غير موضعه. قال أكتهم: الصدق ينبي عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكتهم: رَبِّ قَوْلٍ أَنْفَعُ من صَوْلٍ.

ثم قام حاجب بن زُرارة التيمي فقال: وَرَى زَنْدَكَ، وَعَلَتْ يَدَكَ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ. إن العرب أمة قد غَلْظَتْ أَكْبَادَهَا واستحصدت مِرَّتَهَا ومنعت دِرَّتَهَا، وهي لك وامقة ما تَأَلَّفَتْهَا، مسترسلة ما لا يَنْتَهَى، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارة، والصابُ غَضاضَةٌ، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرننا فينا سامعة مطيعة. إن نَوْبُ لَكَ حامدين خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدَتْنَا، وإن نَدْمٌ لَمْ نُخَصِّصْ بِالذَّمِّ دَوْلَهَا. قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال

بألوان صخرها! قال حاجب: بل زئير الأسد بصَوَلَّتْهَا. قال كسرى: وذلك.

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رشاؤه كثرَ منحه، ومن ذهب ماله قلَّ منحه. تناقل الأفاويل يعرف اللب، وهذا مقام سيوجف بما ينطق به الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب. ونحن جيرانك الأذنون، وأعوانك المعينون. خيولنا جمّة، وجيوشنا فحمة. إن استجدتنا فغير رُبُض، وإن استطرتنا فغير جُهْض، وإن طلبتنا فغير غُمُض. لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر. رماحنا طوال، وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفُسٌ عزيزة، وأمةٌ ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك، وأنسى يكون لضعيف عِزّة، أو لصغير مِرّة؟ قال كسرى: لو قصرَ عمرك لم تستول على لسانك نفسك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرّاً بنفسه على الموت فهي منيةٌ استقبلها، وجنانٌ استدبرها. والعرب تعلم أني أبعث الحرب قُدماً، وأحبسها وهي تصرّف بها، حتى إذا جاشت نارها وسعرت لظاها وكشفت عن ساقها جعلت مقادها رمحي، وبرقها سيفي، ورعداها زئيري، ولم أقصر عن خوض خصّخاضها حتى أنغمس في غمرات لججها، وأكون فُلُكًا لفرسانى إلى بحبوحة كبشها فأستمطرها دما، وأترك حماتها

جَزَرَ السَّبَاعَ وَكَلَّ نَسْرٍ قَشَعَمَ (أى أقتلهم وأتركهم للسباع والنسور تنهش جثثهم). ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكَذَلِكَ هُوَ؟ قَالُوا: فَعَالَهُ أَنْطَقُ مِنْ لِسَانِهِ. قَالَ كَسْرَى: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَفَدَا أَحْشَدُ، وَلَا شَهُودًا أَوْفَدَ.

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلَمِيُّ فقال: أيها الملك، نَعِمَ بِأَلْكَ، وَدَامَ فِي السَّرُورِ حَالُكَ. إِنْ عَاقِبَةَ الْكَلَامِ مَتَدَبِّرَةً، وَأَشْكَالَ الْأُمُورِ مَعْتَبِرَةً، وَفِي كَثِيرٍ ثِقَلَةً، وَفِي قَلِيلٍ بُلْغَةً، وَفِي الْمُلُوكِ سَوْرَةَ الْعِزِّ. وَهَذَا مَنْطِقٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ، شَرُفٌ فِيهِ مَنْ شَرُفَ، وَخَمَلٌ فِيهِ مَنْ خَمَلَ. لَمْ نَأْتِ لَضَيْمِكَ، وَلَمْ نَفِدْ لِسَخَطِكَ، وَلَمْ نَتَعَرَّضْ لِرَفْدِكَ (أى عطائك). إِنْ فِي أَمْوَالِنَا مَنْتَقِدًا، وَعَلَى عِزِّنَا مَعْتَمِدًا. إِنْ أَوْرَيْنَا نَارًا أَتَقْبِنَا، وَإِنْ أَوَدَ دَهْرٌ بَنَا اعْتَدَلْنَا، إِلَّا أَنَا مَعَ هَذَا لِجَوَارِكِ حَافِظُونَ، وَلِمَنْ رَامَكَ كَافِحُونَ، حَتَّى يُحْمَدَ الصَّدْرُ، وَيَسْتَطَابَ الْخَبْرُ. قَالَ كَسْرَى: مَا يَقُومُ قَصْدُ مَنْطِقِكَ يَا فِرَاطُكَ، وَلَا مَدْحُكَ بِذِمَّتِكَ. قَالَ عَمْرُو: كَفَى بِقَلِيلِ قَصْدِي هَادِيًا، وَبِأَيْسَرِ إِفْرَاطِي مُنْجِبِيًّا. وَلَمْ يُلْمَ مَنْ غَرَبَتْ نَفْسُهُ عَمَّا يَعْلَمُ، وَرَضِيَ مِنَ الْقَصْدِ بِمَا بَلَغَ. قَالَ كَسْرَى: مَا كُلُّ مَا يَعْرِفُ الْمَرْءُ يَنْطِقُ بِهِ. اجْلِسْ.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشدته إرشادا. إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصَّة، وَعَيُّْ الْمَنْطِقِ أَشَدُّ مِنْ عَيِّْ السَّكُوتِ، وَعَيَّْارُ الْقَوْلِ أَنْكَأُ

من عثار الوعث. وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهُوَى، وغصة المنطق بما لا نُهوَى غير مستساغة، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أنى له مطيق أحبُّ إلى من تكلفى ما أتخوف ويُتخوف منى. وقد أوفدنا إليك مَلِكُنَا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونعم حاملُ المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال له كسرى: نطقت بعقل، وسَمَوْتَ بفضل، وعَلَوْتَ بُئيل.

ثم قام علقمة بن عُلائة العامري فقال: نَهَجْتَ لك سُبُل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد. إن للأقوايل مناهج، وللآراء مَوَاجِج، وللعويس مخارج، وخير القول أصدق، وأفضل الطلب أنجح. إنا، وإن كانت المحبة أحضرنا والوفادة قرَّبنا، فليس من حَضَرَكَ منا بأفضل ممن عَزَبَ عنك. بل لو قِسْتَ كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبائه دِيًّا أندادا وأكفاء كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف. يحمى حماه، ويُروى نداماه، ويذود أعداه. لا تخمد ناره، ولا يخرز منه جاره. أيها الملك، من يبُلُّ العربَ يعرف فضلهم، فاصطنع العرب، فإنها الجبال الرواسى عِزًّا، والبحور الزواجر طَمِيًّا، والنجوم الزواهر شرفًا، والحصى عددًا، فإن تعرف لهم فضلهم

يُعزّوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك. قال كسرى، وخشيت أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه: حسبك! أبلغت وأحسنّت!

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المرأشيد، وجنّبك المصائب، ووقاك مكروه الشصائب (الشدايد). ما أحقنا، إذ أتيناك، بإسماعك ما لا يُخنيق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا في قلبك! لم تقدّم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنّا في المنطق غير مُحجمين، وفي الناس غير مقصرين. إن جورينا فغير مسوقين، وإن سُومينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانه السواد). قال قيس: أيها الملك، ما كنتُ في ذلك إلا كوّافٍ غدّر به، أو كخافرٍ أخفّر بدمته. قال كسرى: ما يكون لضعيفٍ ضمان، ولا لذليلٍ خفارة. قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما أخفّر من ذمتي أحقّ بإلزامي العار منك فيما قُتل من رعيتك، وانتهك من حرمتك. قال كسرى: ذلك لأن من اتّمن الخائنة (أى الخونة)، واستنجد الأئمة ناله من الخطأ ما نالني، وليس كل الناس سواء. كيف رأيت حاجب بن زرارة؟ لم يُحكّم قواه فيبرم، ويعهد فيوفى، ويعد فينجز؟

قال: وما أحقّه بذلك! وما رأيته إلا لي. قال كسرى: القوم
 بُزِلُ (البازل: الناقاة المسنّة)، فأفضلها أشدّها.
 ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثُرَ فنون المنطق،
 ولَبَسُ القول أعمى من حِنْدِسِ الظلماء، وإنما الفخر في الفَعَالِ،
 والعَجْزُ في النجدة، والسؤدد مطاوعَة القدرة. وما أَعْلَمَكَ
 بقدرنا، وأَبْصَرَكَ بفضلنا. وبالحرى إن أدالت الأيام، وثابت
 الأحلام، أن تُحْدِثَ لنا أموراً لها أعلام. قال كسرى: وما تلك
 الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمرٍ يُذْكَرُ.
 قال كسرى: وما الأمر الذي يُذْكَرُ؟ قال: ما لي علمٌ بأكثر مما
 أخبرني به مُخْبِرٍ. قال كسرى: متى تكاهنت يا ابن الطفيل؟
 قال: لستُ بكاهن، ولكني بالرمح طاعن. قال كسرى: فإن
 أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء، ما أنت صانع؟ قال: ما
 هَيْبَتِي في قفائي بدون هيبتي في وجهي، وما أَذْهَبَ عيني عَيْثُ،
 ولكن مطاوعة العَبَثِ.

ثم قام عمرو بن مَعْدِيكَرِبِ الزُّبَيْدِيِّ فقال: إنما المرء
 بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطق الصواب، ومِلاكُ التُّجْعَةِ
 الارتداد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة
 خير من اعتساف الحيرة، فَاجْتَبِذْ (اجتذب) طاعتنا بلفظك،
 واكتظم بادرتنا بحلمك، وألنْ لنا كَنَفَكَ يَسَلْسَلْ لك قيادنا، فإننا

أناسٌ لم يُوقَسْ صَفَاتَنَا (أى لم يحدش صخرتنا) قِرَاعُ مَنَاقِيرٍ مَنْ
أَرَادَ لَنَا قَضَمًا، وَلَكِنْ مَنَعْنَا حِمَانًا مِنْ كُلِّ مَنْ رَامَ لَنَا هَضْمًا.

ثم قام الحارث بن ظالم المرِّي فقال: إن من آفة المنطق
الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملق، ومن خطل الرأي خفة الملك
المسلط. فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن الائتلاف، وانقيادنا
لك عن تصاف، فما أنت لقبول ذلك منا بجليق، ولا للاعتماد
عليه بحقيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام وُلث العقود.
والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت من قبلك ميل أو زل. قال
كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم. قال: إن في أسماء
آبائك لدليلا على قلة وفائك وأن تكون أولى بالصدر، وأقرب
من الوزر. قال الحارث: إن في الحق مغضبة، والسرور التغافل،
ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة، فلتشبه أفعالك
مجلسك. قال كسرى: هذا فتى القوم. ثم قال كسرى: قد
فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفنن فيه متكلموكم. ولولا
أني أعلم أن الأدب لم يتقف أودكم ولم يحكم أمركم وأنه ليس
لكم ملك يجمعكم فتنطقون عنده منطلق الرعية الخاضعة الباطنة
فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجز
لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أجبه وفودي أو أحنق
صدورهم، والذي أحب هو إصلاح مدبركم وتألف شواذكم
والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلت ما كان في

منطقكم من صواب، وصفحتم عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى ملككم، فأحسنوا مؤازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أودهم، وأحسنوا أدهم، فإن في ذلك صلاح العامة".

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذي لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة في شمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد في كلامه مصطلحا "الوزن والقافية" الشعري، وهما لفظان لم تكن العرب تعرفهما في ذلك المعنى آنذاك؟ ثم إن خطبة أكثم بن صيفي ليست في الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التي تُنسب إليه وُصِل بعضها ببعض وصلاً متعسفاً، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة في حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هي الخطبة التي انتدب النعمان بن المنذر أكثم لإلقائها في حضرة كسرى تنبئها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتاً. كما وردت في الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما نتصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام البليغ، ألا وهي عبارة "البلاغة الإيجاز". كذلك هناك كلمة "شريعة" التي استعملها

النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُستعمل له بعد الإسلام؟ وهل كان العرب أصلاً يسمّون ما هم عليه من تقاليد جاهلية: "شريعة"؟ لقد بحثت في "الموسوعة الشعرية" الضوئية عن شواهد في الشعر الجاهلي لهذه الكلمة فلم أجد إلا بيتاً واحداً لا علاقة له البتة بهذا المعنى. ثم هل تُواتى نفسَ أى عربي في محضر كسرى أن يدعو الفرس بـ "الأعاجم" مثلما فعل الحارث بن عباد البكري، وهي كلمة مسيئة في حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجماءات؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء في القصة من أن عمرو بن الشريد قد جَبَّهَ ملك الفرس بهذا الكلام الجافي الذي يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: "لم نأت لضيّمك، ولم نَفِدْ لسخطك، ولم نتعرض لرِفْدك. إن في أموالنا منتقداً، وعلى عزّنا معتمداً"؟ أو أن يقرّع الحارث بن ظالم المرّي كسرى بهذه الكلمات التي تنصحه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملك: "إن في الحق مَغْضِبة، والسَرُّوُ التّعافل، ولن يستوجب أحدٌ الحلم إلا مع القدرة. فلْتُشْبِهْ أفعالك مجلسك"؟ أو أن يهدده عامر بن الطفيل بما لوّح له به من إمكان انتقاض العرب عليه وحرّهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبالٍ، وكأنه لم يقل شيئاً؟ وإن خفّفَ من ذلك تبييه النعمان

للعاهل الفارسي منذ البداية إلى خشونة رساله وتعليق كسرى في النهاية بأنه إنما يصفح عما في كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملوك. وبالمناسبة فخطب أشرف العرب في قصتنا هذه قد صُبت في لغة أقرب إلى الترسل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون في مثل ذلك الموقف وتلك الظروف. وفي نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصل تاريخي وأنها قد وصلت المدونين في العصر العباسي في خطوطها العامة ثم توسع فيها الرواة فيما بعد، فأضافوا إليها كثيرا من التفاصيل، وجهدوا أن يردّوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون يتنقصون به العرب في العصر العباسي ويقللون من شأنهم لفتحهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم. ولا شك إن إشارة القصة في بدايتها إلى وجود الترجمان في تلك المناسبة تُشكّل لمسة واقعية تزيد مصداقيتها، كما أن ذكر القصة لمعايب العرب وبعض من اشتركوا في هذا الموقف من خطباء هو مما يعضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثمة نصوصاً أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكلف في هندسة العبارة والاستقصاء في المعنى والتشويق في التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا نشق في جاهليتها، كوصف

عصام الكِنْدِيَّة لِأُمِ إِيَّاسِ بِنْتِ عَوْفِ بْنِ مُحَلَّمِ الشَّيْبَانِيِّ فِي النَّصِّ التَّالِي: "لَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرِو مَلِكٍ كِنْدَةَ جَمَالُ أُمِّ إِيَّاسِ بِنْتِ عَوْفِ بْنِ مُحَلَّمِ الشَّيْبَانِيِّ وَكَمَالَهَا وَقُوَّةَ عَقْلِهَا أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَدَعَا امْرَأَةً مِنْ كِنْدَةَ يُقَالُ لَهَا: عِصَامُ، ذَاتَ عَقْلٍ وَلِسَانٍ وَأَدَبٍ وَبَيَانٍ، وَقَالَ لَهَا: أَذْهَبِي حَتَّى تَعَلَّمِي لِي عِلْمَ ابْنَةِ عَوْفٍ. فَمَضَتْ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى أُمِّهَا أَمَامَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ فَأَعْلَمْتَهَا مَا قَدِمَتْ لَهُ، فَأَرْسَلَتْ أَمَامَةَ إِلَى ابْنَتِهَا وَقَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةِ، هَذِهِ خَالَتُكَ أَتَتْ إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ إِلَى بَعْضِ شَأْنِكَ، فَلَا تَسْتَرِي عَنْهَا شَيْئًا أَرَادَتْ النَّظَرَ إِلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ وَخَلْقِهِ، وَنَاطِقِيهَا فِيمَا اسْتَنْطَقْتِكِ فِيهِ. فَدَخَلَتْ عِصَامَ عَلَيْهَا فَنَظَرَتْ إِلَى مَا لَمْ تَرَ عَيْنُهَا مِثْلَهُ قَطُّ بِهَجْةٍ وَحَسَنًا وَجَمَالًا، فَإِذَا هِيَ أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلًا وَأَفْصَحَهُمْ لِسَانًا، فَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهَا وَهِيَ تَقُولُ: تَرَكَ الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ القِنَاعَ، فَذَهَبَتْ مِثْلًا. ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَى الْحَارِثِ فَقَالَ لَهَا: مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ؟ فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا. قَالَتْ: صَرَّحَ المَخْضُ عَنِ الزَّبَدِ، فَذَهَبَتْ مِثْلًا. قَالَ: أَخْبِرِينِي. قَالَتْ: أَخْبِرْكَ صِدْقًا وَحَقًّا. رَأَيْتُ جَبْهَةَ كَالْمَرْأَةِ الصَّقِيلَةِ يَزِينُهَا شَعْرٌ حَالِكٌ كَأَذْنَابِ الخَيْلِ المَضْفُورَةِ، إِنْ أَرْسَلْتَهُ خِلْتَهُ السَّلَاسِلَ، وَإِنْ مَشَطْتَهُ قَلْتِ: عِنَاقِي كَرَمٍ جَلَاهَا الوَابِلُ، وَحَاجِبِينَ كَأَهْمَا خُطًّا بِقَلَمٍ، أَوْ سُوْدًا بِحُمَمٍ، قَدْ تَقَوَّسَا عَلَيَّ عَيْنِي الطَّبِيَّةَ العَبْهَرَةَ (البِيضَاءَ الرَّقِيقَةَ البَصَّةَ)، الَّتِي لَمْ يَرُعْهَا قَانِصٌ وَلَمْ يَدْعُرْهَا قَسُورَةٌ (أَيُّ

الأسد)، بينهما أنفٌ كحدِّ السيف المصقول، لم يخنسَ به قصرٌ ولم يمض به طول، حَقَّتْ به وجنتان كالأرجوان، في بياضٍ مَحْضٍ كالجمان، شَقَّ فيه فم، كالحاتم لذيد المبتسم، فيه ثنايا غُرٌّ ذواتٌ أشر، وأسنانٌ تبدو كالدرر، وريقٌ كالحمر له نَشْرُ الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، يجرکه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي دونه شفتان همراوان كالورد، يجلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكِبَ في صدرٍ كصدر تمثال دمية، يتصل به عَضُدان ممتلئان لحمًا، مكتزان شحمًا، وذراعان ليس فيهما عَظْمٌ يُحَسُّ، ولا عِرْقٌ يُجَسُّ، رُكِبَتْ فيهما كَفَّانٌ دَقِيقٌ قَصبُهُما، لَيِّنٌ عَصبُهُما، تَعْقِدُ إن شئتَ منهما الأنامل، وتُرَكَّبُ الفصوص في حُفَرِ المفاصل، وقد ترعَّع في صدرها حُقَّان كأنهما رمانتان يخرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطنٌ طُوِيَ كطَيِّ القَبَاطِي (أى الملابس الرقيقة المتخذة من الكتان) المُدْمَجَّة، كُسي عَكْنًا (العكن: ثنيات البطن) كالقراطيس المُدرَّجَة، تحيط تلك العكنُ بسُرَّة كمدُّهن العاج المجلو، خلفَ ذلك ظهرٌ كالجدول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر، تحته كَفَلٌ يُقَعِّدها إذا نهضت، ويُنهضها إذا قعدت، كأنه دِعْصُ رمل، لبَّده سقوط الطل، يحملُه فخدان لفَّوان، كأنهما نَصِيد الجمان، تحتها ساقان خَدَلَتان، كالبرديِّ وشيئا بشعرٍ أسود، كأنه حَلَق الزرد، يحمل

ذلك قدمان، كَحَذُو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطبيق حمل ما فوقهما؟ فأما ما سوى ذلك فتركْتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بَنَظْمٍ أو نَثْر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزَوَّجه إياها".

إن هذا لِكِتابة تقرير فنى فى مسابقات العهر (التي يسمونها زورا بـ "مسابقات ملكات الجمال") يضع نُصَبَ عينيه تقديم وصف تفصيلي لكل ملمح أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة فى تلك المسابقات أشبه منه بحديثِ خاطبةٍ إلى ملك من ملوك العرب فى تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتزهر عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تمتعه وتسرّه! وفضلا عن ذلك فإني لا أظن أن امرأة عربية فى تلك العصور كانت ترضى بأن تتجرد من ملابسها وتذهب فتستعرض مفاتها الداخلية على هذا النحو ولا حتى أمام أمها! والطريف أنه، بعد كل ما قالته المرأة الكِنْدِيَّة فى وصف جمال الفتاة، تعود فتقول: "فأما ما سوى ذلك فتركْتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر". فهل تراها تركت شيئا لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التي يبغى خِطْبَتها؟ ثم إن مقدمة النص تقول إن "الحارث بن عمرو ملك كِنْدَةَ قد بلغه جمالُ أم إياس بنت عَوْف بن مُحَلِّم

الشيبياني وكمالها وقوة عقلها"، أى أنه كان على علم بجمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصل الذى لا يدل إلا على شىء واحد: أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئاً؟ وإلى جانب هذا لا ينبغي أن ننسى أن تعبيرات مثل "خلفَ ذلك ظهرٌ كالجداول ينتهي إلى خَصْرٍ، لولا رحمة الله لانبتر"، "فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيقان حمل ما فوقهما؟" لا تصدر غالباً إلا عن مسلم فى العصر العباسى فنازلاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات المأجنة التى يُوهَم ظاهراً بالتدين رغم ذلك، وهو مجون تشفّ عنه العبارة التالية بدورها أحسن شَفّ: "تحتَه كَفَلٌ يُقَعِّدها إذا فُضتْ، ويُنهضها إذا قعدت"، فضلاً عما فيها من ترفٍ فى تذوق الجمال النسائى لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب التلاعب البديعىّ المعقّد الذى لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية وردٌّ للأعجاز على الصدور فى وقت معاً. وهناك أيضاً المقابلة بين "النظم والنثر" فى الجملة التالية التى وردت قرب نهاية النص: "غير أنه أحسنُ ما وصفه واصفٌ بنظمٍ أو نثرٍ" بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه فى تعبيراتهم، بل إننى لا أظنهم كانوا يستخدمون هاتين الكلمتين بالمعنى الاصطلاحيّ الذى عُرِفَتَا به فى دنيا الأدب والنقد فيما بعد!

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاتها في مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أمًا من الأمهات حين تريد أن تنصح بنتها في ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة المنجّسة المتوازنة (رغم ما في السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما في النص التالي الذي تخاطب فيه أمامة بنت الحارث بنتها أم إياس التي مر بنا آنفاً وصف عصام الكندية العجيب لها؟: "أَيُّ بُنَيَّةٍ، إن الوصية لو تُرِكَتْ لَفَضَّلَ أَدَبُ تُرِكَتْ لَدَلِكْ مِنْكَ، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأةً استغنت عن الزوج لِعَنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، وهنَّ خُلِقَ الرجال. أَيُّ بُنَيَّةٍ، إنك فارقتي الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وكر لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أمةً يكن لك عبداً وشيكاً. يا بُنَيَّةَ، احلمي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحُسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبَةٌ، وتنغيص النوم مَغْضَبَةٌ، والاحتفاظ ببيته وماله،

والإرعاء على نفسه وحشمة وعباله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير. ولا تنفسي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أو غرت صدره. ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة. واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت، والله يخبر لك". لا أظن أن الأم، حتى لو كانت أديبة، يمكن أن تنهج في حديثها الشفوي المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تخلف وراءها عملا من الأعمال الأدبية التي تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تحشد لذلك وتجتهد في كتابة نصيحة محبرة موشاة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك للقراء والأدباء أيضا، على مدار الدهر، لكن هذا شيء آخر غير ما نحن بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معترضًا: ومن أدراك بأن تلك الأم لم تُرد ذلك ولم تفعله، وبخاصة أننا هنا إزاء ملك وزوجته وهامته لا ناس من عرض الطريق؟ على كل حال فإني معجبٌ إعجابًا شديدًا بكلام الأم وأجده يرن في سمعي

رنين الذهب، وبهشّ قلبي إليه هَشَّاشَ الأرض العطشى لوابل
الغيث المُحَيِّ!

والواقع أن انشغالي بمسألة بروز السجع والجناس وما
إليه في كثير من خطب الجاهليين سَبَّبَهُ افتقادي لذلك في
نظيراتها من خُطَب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما
جاء عَفْوًا بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخُطَب التي
وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام
بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخُطَب في صدر
الإسلام بوجه عام، فضلًا عن أن السجع والحسنات البديعية
فيها كانت، كما يُفهم من الرواية، أمرًا ارتجاليًّا؟ فهل يستطيع
الخطباء، وبالذات في ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى
هذه التزاويق ويصبح الحرص عليها جزءًا من التركيبة الذهنية
الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلامًا مُحَسَّنًا بالبديع على هذا
النحو الذي نراه في عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هي النقطة
التي تحيك في صدري بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية،
أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها
والخروج منها بالنتائج التي يؤدي إليها المنطق كما رأينا فيما
مرّ. أيكون المسلمون الأوائل قد نفرّوا من الجري خلف
السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أتراهم كانوا يُلقون بكل
ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع

تطبيقى بدلا من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البديع فى حد ذاتها، إذ كانوا بصدد تكوين دولة تضم العرب جميعا لأول مرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدد صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم الوقت ولا البال للاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية؟ أترى الجاهليين، وهم الأميون، كانوا يعولون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص الثرية كالخطب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدنى أقول: هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. ومع ذلك فهذا هو ذا الجاحظ يقرر أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع فى بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسل فى بعضها الآخر كما هو الحال فى خطب الصلح والمعاهدات (الجاحظ/ البيان والتبيين/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ 1/ 289-290، و3/ 6)، وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئا مما يحيك فى صدرى تجاه هذه المسألة. وأحسب أن موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفى لأنه كان أعرف بالأدب العربى قبل الإسلام من واحد مثلى لقربه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وآدابها

كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديبا كبيرا، وبلاغيا عجميا، وناقدا ذواقا للكلام، ودارسا ومحللا للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلما يصعب أن يوجد له نظيرٌ مُسَامِتٌ.

هذا، وقد وردتنا عن الجاهليين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة: فمنها الخطب الوعظية كخطب قُسس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتخاصمين كخطبة مرثد الخير في الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مشوب. ومنها خطب التعزية كتلك التي عزت بها وفود العرب سلامة ذا فائش في موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبب بن عوف وجعادة بن أفلاح، وكذلك خطبة أكثم بن صيفي في تعزية عمرو بن هند في ابن أخيه. ثم خطب النكاح كخطبة التي ألقاها أبو طالب في خطبة خديجة لمحمد ابن أخيه، وتلك التي قالها عامر بن الظرب حين خطبت ابنته. ومنها خطب المنافرات كتلك التي تبودلت بين علقمة بن علاثة وعمار بن الطفيل العامريين. ومنها خطب السفارات، كما هو الحال في مجموعة الخطب التي خطبها بعض رؤساء العرب في حضرة كسرى في إيوانه. ومنها خطب الكهان والكواهن التي يتنبأون فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون. ومنها خطب الوصايا كتلك الخطبة

التي ألقاها ذو الإصبع العَدَوَانِيّ على ابنه، ونظيرتها التي ألقاها قيس بن زهير على بني النمر بن قاسط، وكذلك الخطبة الرائعة التي يقال إن أمامة بنت الحارث قد وصّتها بها ابنتها أمّ إياس عند زفافها على الحارث بن عمرو مَلِكِ كِنْدَةَ... إلخ. وكان العرب يخطبون في الأسواق والجالس والقصور الملكية وعند الكعبة وعلى نَشْرِ من الأرض وفي الحرب. كما كانوا يخطبون وقوفاً، وعلى الرواحل، أو مسندين ظهورهم إلى الكعبة... وهكذا. وكان من عادتهم في الخطابة، كما ألمعنا من قبل، لُبْسُ العمامة والإمساك بالعصا، تلك العادة التي عمل الشعوبيون على التنقص منها والإزراء على العرب بسببها، فتصدى لهم الجاحظ مبيّناً فضل العصا في صفحات طويلة انشال عليه الكلام فيه انشiallyاً في كتابه: "البيان والتبيين". وقد مر بنا أثناء دراستنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفة من مشاهير خطبائهم، وهذه أسماء طائفة أخرى منهم: سهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصة وزهير بن جناب وربيع بن حُذَارٍ ولبيد بن ربيعة وهرم بن قطبة الفزاري وعمرو بن كلثوم التغلبي وحنظلة بن ضرار الضبيّ.

والآن أترك القارئ مع هذه النصوص الخطابية التي وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثد الخير التي سلفت الإشارة إليها آنفاً، وهذا نصها: "إن التخبط وامتطاء الهَجَاج

(أى العناد وركوب الرأس)، واستحقاق اللجاج، سيقفكما على شفا هوة في توردها بوار الأصلية، وانقطاع الوسيلة، فتلافياً أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السُّهْمَة (أى القرابة)، وأنتما في فسحة رافهة، وقدم واطدة، والمودة مُثْرِيَة، والبُقيَا مُعْرِضَة. فقد عرفتم أبناء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيُور أمورهم. فتلافوا القُرْحَة قبل تفاقم الثَّأْي (أى قبل انتشار الفساد) واستفحال الداء، وإعواز الدواء. فإنه إذا سُفِكَت الدماء، استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء، تفضَّبتْ عُرَى الإبقاء، وشمل البلاء".

ومنها خطبة قسّ بن ساعدة الإياديّ في سوق عكاظ يلفت أنظار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغي أن يعتبر به العاقل: "أيها الناس، اسمعوا وعُوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ. ليلٌ داغٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذات أبراجٍ، ونجومٌ تزهر، وجمارٌ تزخر، وجمالٌ مُرساة، وأرضٌ مُدحاة، وأمهارةٌ مُجرّاة. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لَعِبْرًا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرَضُوا فأقاموا أم تُرِكُوا فناموا؟ يُقَسَمُ قُسٌّ بالله قَسَمًا لا إثم فيه إن لله ديناً هو

أَرْضَى لَهُ وَأَفْضَلَ مِنْ دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ مِنْ
الْأَمْرِ مِنْكَرًا". وَيُرْوَى أَنْ قُسًّا أَنْشَأَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ:

فِي الْذَاهِبِينَ الْأَوْلِيَّ	—	مَنْ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا		لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا		تَمْضِي الْأَكَابِرَ وَالْأَصَاغِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَا		سِيَّ وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
أَيَقْنَتُ أُنِي لَا مَحَا		لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا
على إكرام حجاج البيت الحرام: "كان هاشم بن عبد مناف
يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى
الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول: يا معشر قريش،
أنتم سادة العرب: أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاما،
وأوسطها أنسابا، وأقربها أرحاما. يا معشر قريش، أنتم جيران
بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل،
وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه
وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شعثا غبرا من كل بلد. فوَرَبُّ هَذِهِ
الْبَيْتَةِ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكَفَيْتُكُمْوه. أَلَا وَإِنِّي مَخْرَجٌ مِنْ
طَيْبٍ مَالِي وَحَلَالِهِ مَا لَمْ يُقْطَعْ فِيهِ رَحِمٌ، وَلَمْ يُؤْخَذْ بِظَلْمٍ، وَلَمْ
يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ، فَوَاضِعُهُ. فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ
فَعَلْ، وَأَسْأَلُكُمْ بِحَرَمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يُخْرِجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ

لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبًا: لم يؤخذ ظلما، ولم يُقَطَّع في رحم، ولم يُعْتَصَب".

ومنها هذه الكلمة التي نَفَّرَ فِيهَا نُفَيْلُ بن عبد العُزَّى (جدُّ عمر بن الخطاب) عبدَ المطلب (جدَّ الرسول) على حرب بن أمية: "تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأبى أن يُنْفَرَّ بينهما فجعللا بينهما نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رباح، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسَم منك وسامة، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل صَفْدا (أى أكثر عطاءً)، وأطول منك مِدْوِدا (أقوى لسانا). وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جَلْد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافرت مُنْفَرًّا. فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جُعِلتَ حَكَمًا".

ومنها وصية ذى الإصبع العَدَوَانِي لابنه عند إشرافه على الموت: "يا بُنَيَّ، إن أباك قد فَنِيَ وهو حيّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني مُوصِيكَ بما إن حفظته بلغتَ في قومك ما بلغته، فاحفظ عني: أَلنَّ جانبك لقومك يَجُوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشئ يُسَوِّدوك (أى يجعلوك سيّدا عليهم). وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بمالك،

واحمِ حريمك، وأعزز جارك، وأعِن من استعان بك، وأكرم
ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك،
وصُن وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سُؤدُك".

المجتمع الجاهلي من القرآن

كان عرب الجاهلية في عمومهم يعبدون آلهة متعددة، وكانوا لا يتصورون أن يكون الإله واحداً، وعندما جاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقي منهم التكذيب والعنت الشديد، وأخذ الأمرُ منه زمناً طويلاً حتى اقتنعوا أخيراً بما جاءهم به. بل إنه، بعد أن أنفق في الدعوة بمكة ثلاث عشرة سنة بذل فيها كل جهد ممكن وغير ممكن وتعب تعباً بالغاً، لم يؤمن به إلا القليلون مما اضطره هو ومن آمن معه من أهل مكة إلى الهجرة ليشرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعوية، وانتهى الأمر بأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحسب. وكانوا في بداءة الأمر يستغربون منه، عليه السلام، أن يهاجم الأوثان ويغضبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مشركو مكة في قتله أو في حبسه لولا أن نبهه الله سبحانه وأمره بترك موطنه والتروح إلى بلد جديد يكون فيه مصير الدعوة الجديدة أكثر توفيقاً: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال/ 30).

ومما نزل من الوحي في هذا الموضوع قوله تعالى: "أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ* وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ" (ص/ 5-6). وسبب نزول هاتين الآيتين، على ما ترويّه كتب أسباب

التزول والتفاسير، أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شقَّ ذلك على قريش فأتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جنناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومك يسألونك السوء، فلا تمل كل الميل عليهم. فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذكراً آهتنا (أى اتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، وندعك وإهلك. فقال: أرايتم إن أعطيتكم ما سألتهم، أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ فقالوا: نعم، وعشراً. فقال: قولوا: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا: "أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب!". وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: اصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم، فإن مكالمته لا تنفعكم. إن هذا الأمر لشيء من ريب الزمان يراد بنا فلا مرد له، أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيء يريد كل أحد، أو إن دينكم لشيء يُطلب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدر كنا عليها آبائنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثلاثون. ما هذا إلا كذبٌ اختلقه محمد. وهناك خبر

آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعو فيها شيئاً يخالف اعتقاداتهم بشأنها. وخلاصته، كما جاء عند الواحدى فى "أسباب التزول"، أن "خسة نَفَر: عبد الله بن أبى أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أتت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى". وجاء أيضا فى ذلك الكتاب ذاته أن "وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا شططا وقالوا: متعنا باللات سنة، وحرّم واديننا كما حرّمت مكة: شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقد تتالت الآيات التى تنبههم إلى سخر هذا اللون من التفكير والاعتقاد، لكنّ تشبّهم بما فى رؤوسهم كان عنيقا، وهذا يفسر التكرار الكثير لدعوة التوحيد فى القرآن الكريم والحملة على الشرك: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" (الأنعام/ 151)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس/ 18)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا" (مريم/ 81)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" (الفرقان/ 3)،
 "وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ"
 (الذاريات/ 51)... إلخ. وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ونزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها: "وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" (العنكبوت/ 61)، "وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (العنكبوت/ 63)، "وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" (الزخرف/ 9). ومع ذلك فـ "إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ آتِنَّا كُتُبًا مِثْلَ مَا آتَيْنَا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ" (الصافات/ 35)، "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" (الزمر/ 43-45)، إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاءهم عنده سبحانه وأهم هم الذين يقربونهم إلى الله زُلْفَى: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"

(يونس / 18)، "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر / 3).

وكان القرآن الكريم يبههم دائما أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئا من نفع أو ضرر، وأن الشفاعة إنما هي لله وحده، ليس للأوثان منها أى نصيب: "وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ" (الأنعام / 93-94)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (يونس / 18)، "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" (الفرقان / 3)، "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ" (الروم / 12-13)، "أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ* قُلْ

لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (الزُّمَرُ/43).

وكان من أوثانهم اللات والعزى ومناة، وقد تمكم القرآن على شركهم وعقليتهم المتخلفة التي تسول لهم أن هذه الأوثان هي بنات الله: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ" (النجم/ 19-21). وتناول المفسرون اللات والعزى ومناة فقالوا إن اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما يقال من أنها سُميت باسم رجل كان يُلْتَعَندها السمن بالسويق بالطائف ويُطعمه الحجاج، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثنا. أما العزى فكانت لغطفان، وهي شجرة سَمْرَةٌ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها بعد الفتح خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح: يا ويلاه، وهي واضعة يدها على رأسها، فجعل يضرب بالسيف حتى قتلها، ورجع فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام: تلك العزى، ولن تُعبَد أبدا. وأما مناة: فصخرة كانت لهذيل وخزاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت لثقيف. وكأها سُميت: "مناة" لأن دماء النساء كانت تُمنى عندها، أي تُراق. وجاء في "أسباب النزول" للواحدى أن "الأنصار كانوا يحجون لمناة،

وكانت مناة حَذُوَ قُدَيْد، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة".

وكانت هناك أوثان أخرى ذكرت أسباب التزول اثنين منها هما إساف ونائلة، اللذان تقول الروايات إنهما كانا على الصفا والمروة على الترتيب. يقول الواحدى: "كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تُدْعَى: نائلة. فزعم أهل الكتاب أنهما زَيَّيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ووضعهما على الصفا والمروة لِيُعْتَبَرَ بهما. فلما طالت المدة عُجِدَا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مَسَحُوا الوَثْنَيْنِ". وكان المشركون يقولون إن هذه الأصنام هى بنات الله، وكانوا يعبدونها ويزعمون أنهما شفعاؤهم عند الله تعالى رغم نفورهم من البنات ووأدهم لهن، فقول لهم: "أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى؟"، إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خِلْفَةَ الإناث، فأراد الله أن يَلْفِتَهُمْ إلى سخافة تفكيرهم وحمق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتي يكرهونهن بل يقتلوهن أحيانا، ثم يختصون أنفسهم بالذُّكران!

على أن هذه الأصنام ليست هى وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة أيضا: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَصِفُونَ" (الأنعام/ 100)، "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء/ 26-28)، "وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَتَىٰ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ 40-41)، "فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ* فَاتُّوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصفّات/ 149-158)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ* أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ* وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف/ 15-19)، "وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" (الذاريات/ 51)، "أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُْ الْبُنُونَ" (الطور/

39)، "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى" (النجم / 27).

وقيل إن المقصود في آية "الأنعام" ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدتهم عرب الجاهلية قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: "جِنًّا" لاجتنانهم (أى لاختفائهم)، تحقيرا لشأنهم. وقيل: بل المقصود بـ "الجن" الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكل ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكل ما هو ضار. وبقریب من هذا فسّر ابن الكلبي النص القرآني، إذ قال حسبا نقل الواحدى: "نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب". وقد حاول الزمخشري، في تفسيره لآيات "الصفات"، أن يسوّغ تسمية الملائكة: "جِنًّا" بقوله إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن، "ولكنَّ مَنْ خُبْتُ من الجنِّ ومَرَدَ وكان شرًّا كله فهو شيطان، ومن طَهَّرَ منهم ونَسَكَّ وكان خيرا كله فهو ملك. فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرا بهم".

أما أنا فأرى أن الجن هنا إنما هم الجن الذين نعرفهم لا الملائكة، وليس هناك أى دليل على أن الجن في هذه الآية أو

في أى موضع آخر من القرآن المجيد هم الملائكة. وإن في القول بذلك لخلطاً بين الألفاظ والمفاهيم يفسد تفسير القرآن إفساداً. ثم لماذا يحقّر القرآن الملائكة، وهم عباد مُكْرَمُونَ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ ولا يعرفون معنى الاستكبار حسبما وصفهم الله سبحانه في الآية 50 من سورة "النحل" والآيتين 26-27 من سورة "الأنبياء"، ولا ذنب لهم في أن العرب كانوا يشركونهم بالله؟ كما أن قوله تعالى: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ/ 40-41) هو أكبر دليل على أن الجن شيء، والملائكة شيء آخر، فهما هم أولاء الملائكة تنكر أن يكون المشركون قد عبدوهم، وتؤكد في الوقت ذاته أنهم إنما كانوا يعبدون الجن، بما يعنى أن كلا منهما فريق مختلف تماماً عن الفريق الآخر. وليس بعد قول الله قول! ثم إن الجن مكلفون، أما الملائكة فهم لا يعصون الله في شيء، مما يدل على أنهم غير داخلين في التكليف، وإلا لكان منهم المطيعون والعصاة، فضلاً عن أن الجن مخلوقون من نار حسبما صرح القرآن الكريم، والملائكة ليسوا كذلك. ومعنى قوله تعالى: "وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ" أنهم أفتروا بجهلٍ فاحشٍ زاعمين أن له سبحانه بنين وبنات، فقالت اليهود: عُزَيْرُ ابْنِ

الله، وقالت النصرارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وكان "بنو مليح يعبدون الملائكة" كما جاء على لسان ابن الزبيرى فى سبب نزول قوله تعالى: "إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ". وكان الجن فى نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون فى السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات، إذ كانوا يرَوْنَه مستندا بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حيا، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ عليه السلام. فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات. ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقاسون فى تلك السخرة العذاب المهين: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" (سبأ/ 14).

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التى إذا ما انتهت فقد انتهى كل شىء بالنسبة للإنسان. وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر فى هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبض الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، فالدهر يُفنى ولا يعيد من يُفنيه. وكانوا يجادلون النبى

في ذلك مجادلة لا تنتهى، محتجين بأنه من غير الممكن أن يعود الإنسان إلى الحياة كرة أخرى بعد أن يصبح عظاما ورُفَاتَا، وإلا فأين آباؤهم الأولون؟ ولماذا لم يرجعوا إلى الحياة من قبل؟ وإذا كانت هناك آخرة فلماذا لا تأتي؟ وإن كثرة الآيات التي تتناول هذا الموضوع وتعرض جدالهم وسخرهم بما كانوا يسمعون من الآيات القرآنية التي تتحدث عن البعث لدليل على أن نكرانهم كان من القوة والحدة بمكان: "وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا* أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الإسراء/49-51)، "وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا" (مريم/66)، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ

اللَّهِ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (الحج/ 5-7)، "قَالُوا أَنْذَا مِنَّا وَكُنَّا
ثُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ
قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" (النمل/ 82-83)، "بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان/
11)، "وَقَالُوا أَنْذَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنْتَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ
هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة/ 10)، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ
عَنهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (سبأ/ 3)، "أَنْذَا مِنَّا وَكُنَّا
ثُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ* أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الصفات/
16-17)، "إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ* فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان/ 34-
36)، "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا
إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ* وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّبُوا بِآبَاتِنَا إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجنات/ 24-25)، "أَنْذَا مِنَّا وَكُنَّا ثُرَابًا ذَلِكَ
رَجْعٌ بَعِيدٌ" (ق/ 3)، "قَتِيلَ الْخِرَاصُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ
سَاهُونَ* يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" (الذاريات/ 10-12)،
"زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (التغابن/ 7)، "يَقُولُونَ أَنْتَا

لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَيْدَا كُنَّا عِظَامًا نَحِرَةً* قَالُوا تَلْكَ إِذَا
كَرَّةً خَاسِرَةً" (النازعات / 10-12).

ومما رُوِيَ عن الكفار في هذا المجال "أن أبي بن خلف أتى
النبي صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ يفتته بيده، وقال: أتري
الله يُحْيِي هذا بعدما رُمِّ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ،
ويعثك ويدخلك النار". كما رُوِيَ أن عُتْبَةَ وشَيْبَةَ وأبا سفيان
والنضر بن الحرث وأبا البَخْتَرِيِّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل
وعبد الله بن أبي أمية وأمّية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا
على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه
وخاصموه حتى تُعْذَرُوا به. فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد
اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا في
أمره بداء (أى غيروا موقفهم منه)، وكان عليهم حريصاً يجب
رشدهم ويعز عليه تعنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد،
إنا والله لا نَعْلَمُ رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أَدْخَلْتَ
على قومك. لقد شتمت الآباء وعِبتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام
وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد
جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالاً
جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما
تطلب الشرف فينا سَوَدْنَاكَ علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا
ملَكْنَاكَ علينا، وإن كان هذا الرَّئِيُّ الذي يأتيك تراه قد غلب

عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرّئيّ) بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرِّئك منه أو نُعذّر فيك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون. ما جئتمكم بما جئتمكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصير لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا ما عرضنا فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بالادا ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشاً منا. سلّ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا وييسط لنا بلادنا ويُجر فيها أنهاراً كأثمار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضي من آبائنا، وليكن ممن يُبعث لنا منهم قُصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول: حقّ هو؟ فإن صنعتَ ما سألتناك صدقناك وعرفنا به مترلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول". ووجه الشاهد في الخبر أنهم تحدّوه، ضمن ما تحدّوه به، أن يأتي لهم بمن مات من آبائهم، وعلى رأسهم جدّه قُصيّ بن كلاب، إذ كانوا، كما قلنا، يروون استحالة عودة الميت إلى

الحياة، أما من يقول بغير هذا فعليه أن يُثبِت ما يقول ويعيد الموتى إلى الدنيا كرة أخرى!

وثمة خبر في "أسباب النزول" للواحدي يفسر سبب نزول قوله عز وجل: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ"، وفيه أنه "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لتزعم إنك لتُبْعَث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله تعالى هذه الآية". وكانوا يتهاكمون بما ينزل به القرآن في أوصاف الجنة والنار، كالذي يُروى عن أبي جهل من أنه "لما ذكر الله تعالى الزُّقُومَ خَوْفٌ به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل: هل تدرُونَ ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد...؟ قالوا: لا. قال: الشريد بالزبد! أما والله لئن أمكننا منها لنتزقمنها تزقماً. فأنزل الله تبارك وتعالى: "وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا"...". ومن هذا الوادي أيضا ما جاء في بعض الروايات من أن "خبّاب بن الأرتّ كان قينًا، وكان يعمل للعاص بن وائل السهميّ، وكان العاص يؤخر حقه، فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أقضيك. فقال: لست بمفارقك حتى تقضيني. فقال العاص: يا خباب، مالك؟ ما كنت هكذا! وإن كنت لتُحسِن الطلب. فقال

خَبَاب: ذاك أي كنت على دينك، فأما اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك. قال: أولستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضةً وحريرًا؟ قال خَبَاب: بلى. قال: فَأَحْرَبِي حَتَّى أَقْضِيكَ فِي الْجَنَّةِ، اسْتَهِزَاءً. فوالله لئن كان ما تقول حقًا، إني لأفضل فيها نصيبًا منك". وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شيء من القرآن في تعداد نِعَمِ الجنة، ومن ذلك ما ورد في النص التالي لدى الواحدى: "كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنَّها قبلهم، وليكوننَّ لنا فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: "أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا...".

فإذا انتقلنا إلى العبادات الجاهلية وجدنا مثلاً قوله تعالى: "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" (الأأنفال / 19). أى أنهم كانوا يتجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه، وإن عزَّ على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا يمكن أن يكون إلا إلهًا واحدًا، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى. ومعنى الاستفتاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل. وقد وردت أكثر من رواية في ذلك في تفسير الطبرى فقييل: "كان

المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة (أى فى غزوة بدر) أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعزّ الجندين، وأكرم الفتيين، وخير القبيلتين. فقال الله: "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ". يقول: نصرت ما قاتمتم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: "استفتح أبو جهل فقال: اللهم، أينما (يعني محمداً ونفسه) كان أفجر لك اللهم وأقطع للرحم فأحنه (أى أهلكه) اليوم. قال الله: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ". كما نقرأ فى ذات السورة قوله سبحانه: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأنفال/ 32-33). وقد جاء فى تفسير الطبرى: "قال رجل من بنى عبد الدار يقال له: النضر بن كلدة: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ". فقال الله: "وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْناً قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ"، وقال: "وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ"، وقال: "سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* لِلْكَافِرِينَ...". قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله". أما فى تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما

أورد، قول من قال: وما كان الله ليعذب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمد، حتى أُخْرِجَكَ من بينهم، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ يقولون: يا ربّ غفرانك، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول... وقوله: وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ؟ (أى) في الآخرة". أى أنهم، رغم شركهم، كانوا يدعون الله بما يريدون على غباء فيهم وعناد وانغلاق ذهن وقلب! كما أنهم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء في بعض الأقوال!

ومن عباداتهم كذلك ما ورد في قول رب العزة: "وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" (الأنفال/ 35)، وتفسيره ما ورد عند شيخ المفسرين: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ"، فَأَمَرُوا بِالْثِيَاب... كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون... كانوا ينفخون في أيديهم". كما أن في القرآن آية تنهى عن السجود للشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كانوا يسجدون لهما: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا

لَلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"
(فُصِّلَتْ/ 37).

ولعل القارئ قد تنبه لما جاء في كلام الطبري من أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة، وإن كنت أتصور أن يكون بعضهم فقط هم الذين يفعلون ذلك لا كلهم. وفي تفسير قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ* يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ* قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ* فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ* يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"

(الأعراف/ 36-32) يقول الطبري ما زُبدته أنه، جلّ ثناؤه،
 يبين للجهلة من العرب الذين كانوا يتعروّون أن لباس التقوى
 هو الحياء. وقد ابتداءً سبحانه الخبر عن إنزاله اللباس الذي
 يوارى سَوَاتِنَا والرِّيشَ توبيخاً للمشركين الذين كانوا
 يتجرّدون في حال طوافهم بالبيت، ويأمرهم بأخذ ثيابهم
 والاستتار بها في كلّ حال مع الإيمان به واتباع طاعته، إذ كانوا
 يطوفون بالبيت عُرَاةً متحججين بقولهم: "نطوف كما ولدتنا
 أمهاتنا"، فتضع المرأة على قُبْلِهَا النَّسْعَةَ أو الشيء فتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَعُدُّلُوا عَلَى مَا أَتَوْا مِنْ قَبِيحِ فَعْلِهِمْ وَعُوتُوا عَلَيْهِ، فكان
 جوابهم: وجدنا على مثل ما نفعنا آباءنا، فنحن نفعل مثلما
 كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم ونستقّ بسنتهم، والله أمرنا به،
 فنحن نتبع أمره فيه. فيقول الله جلّ ذكره لنبينا محمد صلى الله
 عليه وسلم: قل يا محمد لهم إن الله لا يأمر بالفحشاء، أى لا
 يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساوئها. أتقولون، أيها الناس، على
 الله ما لا تعلمون؟ أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرّد
 من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم
 بذلك؟ لقد كانوا يطوفون عرّاة: الرجال بالنهار، والنساء
 بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس. وكانت العرب
 تطوف بالبيت عرّاةً إلا الحمس: قريش وأحلافهم.

وكانت قريش ومن وكدته قريش، وهم الذين كانوا يُسمَّون في الجاهلية: "الحُمس"، يقولون: لا نخرج من الحَرَم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعرفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عرفات، وهي التي كان يُفِيض منها سائر الناس غير الحُمس. وعن عائشة: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الحُمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن قَطِين الله. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحلّ مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، فيحلّ لهم ما يحلّ لهم، ويحرّم عليهم ما يحرم عليهم. وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن، حتى قالوا: لا ينبغي للحُمس أن يَأْقُطوا الأَقْط، ولا يَسْأَلُوا السَّمَن وهم حُرْم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الجلد طَوَالَ إحرامهم. ثم غالوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعامٍ جاءوا به معهم من الحلّ في الحَرَم إذا جاءوا حُجَّاجًا أو عُمَّارًا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قَدِمُوا أوّل طوافهم إلا في ثياب الحُمس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة. فحمّلوا العرب على ذلك، وكان من سواهم يقفون بعرفة، فأمرهم الله بالوقوف

معهم: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة/ 199). وكان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعون فيتفخرون بمآثر آبائهم، فكانوا يذكرون آباءهم في الحج: فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام، ويقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جَزَّ نواصي بني فلان. فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكركم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، فترل قوله عز وجل: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (البقرة/ 200).

وكان الأنصار في الجاهلية إذا أهلَّ أحدهم بحجٍّ أو عُمْرة لا يدخل داراً من بابها إلا أن يتسور حائطها، وأسلموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالى ذكره: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (البقرة/ 189)، ونهاهم عن صنعهم ذلك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها. فلما حجَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسلم. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم باب البيت احتبس الرجل خلفه وأبى أن يدخل قائلاً: يا رسول الله، إنني أحمس.

يقصد أنه مُحْرِم، وكان أولئك الذين يفعلون ذلك يُسَمَّونَ:
"الْحُمْسُ". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأنا أيضا
أَحْمَسُ (أى أنه عليه السلام من قريش)، فادْخُلْ"،
فدخل الرجل.

وكان في تعاملات أهل الجاهلية بَغْيٍ وِطَاعَةٌ
للشيطان، فكان الْحَيِّ مثلاً إذا كان فيهم عُدَّةٌ وَمَنْعَةٌ،
فَقَتَلَ عَبْدٌ قَوْمَ آخَرِينَ عَبْدًا لَهُمْ، قالوا: "لا نَقْتُلُ بِهِ إِلَّا حُرًّا"،
تَعَزُّزًا لِفَضْلِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وإذا قتلت امرأة
قَوْمِ آخَرِينَ امْرَأَةً لَهُمْ، قالوا: لا نَقْتُلُ بِهَا إِلَّا رَجُلًا. فأنزل الله
هذه الآية يخبرهم أن العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فنهاهم
عن البغي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي
الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ
مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوِكَ فَإِنَّكَ فَلَهِ عَذَابٌ
أَلِيمٌ" (البقرة/ 178).

وكان اليتامى يُظَلَمُونَ ولا يُرْحَمُونَ وتُوَكَّلَ حقوقهم،
وقد نزلت فيهم آيات متعددة: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ*
فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ"
(الماعون/ 1-3)، "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُ
رَقَبَةً* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا

ذَا مَثَرَبَةٍ" (البلد/ 11-16)، "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة/ 177)، "كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ* وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (الفجر/ 20)، "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" (الأنعام/ 152، والإسراء/ 34)، "وَأْتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا* وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا* وَأْتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا* وَلَا تُوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا* وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (النساء/ 2-6)، "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا" (النساء/ 10)، "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا" (النساء/ 127).

وبالنسبة للآيات المارّ ذكرها في صدر سورة "النساء" يقول ابن عطية في "الحرر الوجيز" إنها في أوصياء الأيتام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة السمينة من مال اليتيم باهزيمة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإن أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجورين. والآية نصّ في النهي عن قصد مال اليتيم بالأكل والتمول على جميع وجوهه. وقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال وليّاتهم فيريدون أن يخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، ف قيل لهم: أقسطوا (أى اعدلوا) في مهورهن. فمن خاف ألا يقسط فليتزوج ما طاب له من الأجنبية اللواتي يكايسن في حقوقهن (أى يدافعن عنها ويناضلن دونها). ويقول الثعالبي، في تفسيره المسمّى: "الجواهر

الحسان في تفسير القرآن"، إن النهي في الآية 127 من سورة "النساء" خاصّ بـ "ما كانت العرب تفعله من ضمّ اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَضَل الدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل". وفي "أكل التراث" المنهى عنه في سورة "الفجر" يقول إنهم كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المال من يقاتل ويحمي الحوزة. وقد أورد ابن عطية حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم عما رآه ليلة الإسراء جاء فيه: "رأيت أقواما لهم مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ، وَقَدْ وَكَّلَ بِهِمْ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشَافِرِهِمْ ثُمَّ يَجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْرًا مِنْ نَارٍ تَخْرُجُ مِنْ أَسْفَلِهِمْ. قُلْتُ: يَا جَبْرِيْلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا". وأورد الزمخشري ما روي من "أنه يُبْعَثُ آكِلُ مَالِ الْيَتِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالِدُخَانٍ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَمِنْ فِيهِ وَأَنْفِهِ وَأُذُنِيهِ وَعَيْنِيهِ، فَيَعْرِفُ النَّاسَ أَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ مَالَ الْيَتِيمِ فِي الدُّنْيَا".

وكان ثمّ ظلم شنيع يقع على الصغار في ذلك المجتمع الوثني، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات، تلك العادة الوحشية التي ندّد بها القرآن مرارا ونهى عنها وشدد في النهي تشديدا عظيما: "وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام/

(137)، "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ"
 (الأنعام/ 151)، "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ
 نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" (الإسراء/ 31)،
 "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ*
 يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
 يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (النحل/ 58-59)،
 "أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
 بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوْ مَنْ
 يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف/ 16-
 18). وفي هذه العادة المتوحشة يقول البغوي، عند تفسير
 الآيات 58-59 من سورة "النحل"، إن "مُضَرَ وَخَزَاعَةَ
 وَتَمِيمًا كانوا يدفنون البنات أحياء خوفا من الفقر عليهن
 وطمع غير الأكفء فيهن. وكان الرجل من العرب إذا وُلِدَتْ
 له بنت وأراد أن يستحبيها ألبسها جبةً من صوف أو شعر
 وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها
 تركها حتى إذا صارت سداسيةً قال لأمها: "زَيِّنِيهَا حَتَّىٰ أَذْهَبَ
 بِهَا إِلَىٰ أَحْمَائِهَا"، وقد حفر لها بئرا في الصحراء. فإذا بلغ بها
 البئر قال لها: "انظري إلى هذه البئر"، فيدفعها من خلفها في
 البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض.
 فذلك قوله عز وجل: "أَيُّسِكْهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

التراب؟". وكان صَعَصَعَةٌ عَمُّ الفرزدق (بل جَدَّهُ في الواقع) إذا أحس بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلاً، يُحْيِيهَا بذلك. فقال الفرزدق يفتخر به:

وَعَمِّيَ الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ فَأَحْيَا الْوَيْدَ فَلَمْ تُؤَادِ

وفي الآية السابعة من سورة "النساء" يطالِعْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا"، وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورث النساء ويقول: "لا يُورث إلا من طاعن بالرمح وقاتل بالسيف"، فتزلت هذه الآية. ومن ذلك أن أم كحلّة مات عنها زوجها أوس بن سويد وترك لها بنتا، فذهب عمّ بنيتها إلى الأثر، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العمّ: "هي، يا رسول الله، لا تقاتل ولا تحمل كلاًّ ويكسب عليها ولا تكسب". ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألواناً أخرى من الغبن الذي كُنَّ يتعرّضن له على أيدي الرجال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا* وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ

زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهِ
بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى
بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء/ 19-21). وقد
علّق الزمخشري على هذا قائلا: "كانوا يبُلّون النساء بضروب
من البلايا ويظلموهن بأنواع من الظلم، فزَجِرُوا عن ذلك:
كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة
ألقي ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كل أحد. ف قيل: "لا يحلّ
لكم أن تترثوا النساء كَرَهًا"، أي أن تأخذوهن على سبيل
الإرث كما تُحاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مُكْرَهَات.
وقيل: كان يمسكها حتى تموت، ف قيل: لا يحلّ لكم أن
تمسكوهن حتى تترثوا منهن، وهن غير راضيات بامساككم.
وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع
سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بما لها وتخلع. ف قيل: ولا
تَعْضُلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن. والعَضْل: الحبس
والتضييق... "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، وهي النشوز
وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلطة، أي إلا
أن يكون سوء العشرة من جهتهن، فقد عُذِرتم في طلب
الخلع... فإن فعلت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع... وكانوا
يسيئون معاشرَةَ النساء فقيل لهم: "وعاشروهن بالمعروف"،
وهو النَّصْفَةُ فِي الْمَيْتِ وَالنَّفَقَةُ وَالإِجْمَالُ فِي الْقَوْلِ... "وإن أردتم

استبدال زوج مكان زوج وآتيم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتانا وإنما مبيناً* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً؟". وكان الرجل إذا طمحت عينه إلى استطراف امرأة بهت التي تحته ورمها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. ف قيل: "وإن أردتم استبدال زوج...". وكانوا يَنكحون رَوَائِبَهُمْ (أى زوجات آبائهم)، وناسٌ منهم يَمقتونهُ من ذَوِي مَرُوءَاتِهِمْ، ويسمونه: "نكاح المقت". وكان المولود عليه يقال له: المقتي". وفي الطبري عن ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يجرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين". وفي الحديث: "لم يصبنا عيبٌ من عيوب الجاهلية في نكاحها ومقتها".

وبالنسبة لعلاقة الفراش يقول الزمخشري، تعليقا على قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة/ 222)، إن "أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرشٍ ولم يساكنوها في بيتٍ كفعل اليهود والمجوس. فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم. فقال ناس من

الأعراب: يا رسول الله، البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بما هلكت الحِيص. فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أمرتُم أن تعتزلوا مُجَامَعَتَهُنَّ إِذَا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم".

وكان المجتمع الجاهلي يقوم، فيما يقوم، على نظام الرقيق، وكان الأرقاء يعاملون بقسوة، فأوصى الإسلام بهم خيرا، ودعا إلى التقرب إلى الله وإحراز الأجر الجزيل بعقبتهم. كما وصَّى بمساعدتهم من أموال الزكاة والكفّارات والصدقات في الافتكاك من الرق إن أرادوا المكاتبه لإعتاق أنفسهم من كسب يدهم، وكذلك مساعدتهم في الزواج والاستعفاف. ومن رحمته سبحانه بالإماء المستضعفات أن أنزل آية تمسح عار البغاء وإثمه عن الأمة المكرهه على ذلك من قبل سيدها القواد. وكان لعبد الله بن أبي رأس الضلال والنفاق أمة أمرها فزرت، فجاءت ببرد، فقال لها: ارجعي فازني. قالت: والله لا أفعل. إن يك هذا خيرا فقد استكثرت منه، وإن يك شرّا فقد آن لي أن أدعه". وقد نزل في ذلك كله قوله جل شأنه: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَبْتَتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور / 32-33).

وكان الجاهليون يتعاملون بالرِّبَا، بل بالرِّبَا الفاحش الذى لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرّون على تسديد الدَّيْنِ، أو على الأقل إنظارهم والصبر عليهم حتى يمكنهم السداد: "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (الروم / 39)، "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/275-280)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران/130). ولم يكن عرب الجاهلية هم وحدهم الذين يرابون، بل هناك أيضًا اليهود أساتذة الربا وشياطينه، وقد هاجمهم القرآن الجيد مبينا كيف أن الله عاقبهم عقابا شديدا جرّاء ذلك الاستغلال الإجرامى القاسى فى التعامل مع المحتاجين: "فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا* وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء/160-161).

وحين حرّم الإسلام الربا لم يتسامح فيما كان لا يزال منه قائما، بل رفض أن يأخذ المرابون أية فوائد على قروضهم رغم أنه غض البصر عما سلف منه فى الجاهلية قبل مجيئه. وفى تفسير الطبرى: "كانت ثقيف قد صالحت النبىّ صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من رباّ على الناس وما كان للناس عليهم من رباّ فهو موضوع (أى مُلغى).

فلما كان الفتح استعمل عتّاب بن أُسَيْدِ عَلَى مَكَّة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يُرَبُّونَ لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام، ولهم عليهم مال كثير. فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتّاب بن أُسَيْدِ، فكتب عتّاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترلت: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..."، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتّاب وقال: "إِن رَضُوا، وَإِلَّا فَأَذْنَهُمْ بِحَرْبٍ". وقال رسول الله في خطبته يوم الفتح: "أَلَا إِنَّ رِباَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَأَوَّلُ رِباَ أبتَدِئُ بِهِ رِباَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ".

وكان الميسر، وهو القمار، من الآفات التي ابتلى بها عرب الجاهلية، و"كانوا يتقامرون على الأموال حتى ربما بقي المقمور فقيرا فتحدث من ذلك ضغائن وعداوات" كما يقول الثعالبي. وقد أورد الطبري عن ابن عباس: "كان الرجل في الجاهلية يخاطر (أى يقامر) على أهله وماله، فأيهما قمرَ صاحبه (أى غلبه في القمار) ذهب بأهله وماله". ومن هنا نستطيع أن نفهم تشديد التحريم له في قوله سبحانه: "حُرِّمَتْ

عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْحَقَّةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا
مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ
فِسْقٌ" (المائدة/ 5)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ" (المائدة/ 90). وفي القمار يقول الطبري إهمم "كانوا
يباسرون (أى يتقامرون) على الجزور (وهو الجمل أو
الناقة المعدان للذبح)، وإذا أفلج الرجل منهم صاحبه (أى
كسبه) نحره، ثم اقتسموا أعشارا على عدد القداح
(السهم). وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ إِلَى التَّدَى وَنِيَاطٍ مُقْفَرَةٍ أَخَافُ ضَلَالَهَا

ويزيد الزمخشري الأمر تفصيلا فيقول: " كانت لهم
عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفدّ والتوأم والرقيب
والحلس والنّافس والمُسبِل والمُعَلَى والمنّيح والسّفيح والوَعْد.
لكل واحد منها نصيب معلوم من جَزُور ينحرونها ويجزئونها
عشرة أجزاء (وقيل: ثمانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي المنّيح
والسّفيح والوَعْد. ولبعضهم:

لِي فِي الدُّنْيَا سَهَامٌ لَيْسَ فِيهِنَّ رَيْحٌ وَأَسَامِيهِنَّ وَعَدٌّ وَسَفِيحٌ وَمَنِحٌ
لِلْفَدِّ سَهْمٌ، وَلِلتَّوَامِ سَهْمَانٌ، وَلِلرَّقِيبِ ثَلَاثَةٌ، وَلِلْحِلْسِ أَرْبَعَةٌ،
وَلِلنَّافِسِ خَمْسَةٌ، وَلِلْمُسْبِلِ سِتَّةٌ، وَلِلْمُعَلَّى سَبْعَةٌ. يجعلونها في الرّبابة،
وهي خريطة، ويضعونها على يَدَيْ عَدَلٍ، ثم يجعلها (أى يحركها)

وَيُدْخِلُ يَدَهُ فَيُخْرِجُ بِاسْمِ رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا مِنْهَا. فَمَنْ خَرَجَ لَهُ قِدْحٌ مِنْ ذَوَاتِ الْأَنْصِبَاءِ أَخَذَ النَّصِيبَ الْمَوْسُومَ بِهِ ذَلِكَ الْقِدْحُ. وَمَنْ خَرَجَ لَهُ قِدْحٌ مِمَّا لَا نَصِيبَ لَهُ لَمْ يَأْخُذْ شَيْئًا وَعَرِمَ ثَمَنَ الْجَزُورِ كُلِّهِ. وَكَانُوا يَدْفَعُونَ تِلْكَ الْأَنْصِبَاءَ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْهَا، وَيَفْتَحُونَ بِذَلِكَ وَيَذَمُّونَ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَيَسْمُونَهُ: الْبَرَمَ".

وفي الآيتين تحريم للأزلام أيضا، وهي سهامٌ ثلاثة متشابهة كانوا يضعونها في كنانة، ثم يجركونها حتى تختلط ولا يمكن تمييز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يده فيسحب منها واحدا. فإذا كان هذا السهم مكتوبا عليه: "افعل"، فإن الشخص المُسْتَقْسِمُ يفعل ما كان ينوي أن يفعله، وإن خرج السهم المكتوب عليه: "لا تفعل"، فإنه لا يفعل ما كان يريد، أما إذا كان السهم غير مكتوب عليه شيء أُعيد تحريك السهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد. وقد استبدل الإسلام بهذه الطريقة الوثنية طريقة أخرى تربط الإنسان بربه، وهي "الاستخارة". وترك الإمام الطبري يشرح الأمر بقلمه كما كتبه عند تأويله للآية الخامسة من سورة "المائدة": "ذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزوا أو نحو ذلك أجال القِدَاحَ، وهي الأزلام (أى هَزَّ الكنانة بما فيها من سهام)، وكانت قِدَاحا مكتوبا على بعضها: فنانى ربي، وعلى بعضها: أمرنى ربي. فإن خرج

القِدْح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي" مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "هاني ربي" كفَّ عن المضيّ لذلك وأمسك. فقيل: "وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ"، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزالامهم أَنْ يَقْسِمَنْ لَهُمْ. ومنه قول الشاعر مفتخرا بترك الاستقسام بها: "وَلَمْ أَقْسِمْ فَتَرَبُّنِي الْقُسُومُ". وأما "الأزلام" فإن واحدها "زَلَمٌ"، ويقال "زَلَمَ"، وهي القِداح التي وصفنا أمرها". وهذه الأزلام كانت عند الكهنة، وكانوا هم الذين يقومون بعملية الاستقسام حسبما أورد الطبري عن السُّدِّيِّ.

ومن الملاحظ تكرير القرآن النهي عن التطيف في الكيل والميزان وتوعُّده بالعقاب الشديد من يصنع ذلك. وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القِسْطَ المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحدث في ذلك الموضوع ويكرر القول فيه: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام/ 152)، "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (الإسراء/ 35)، "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن/ 9)، "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" (المطففين/ 1-3). وفي الطبري: "عن عبد الله قال: قال له

رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة لَيُؤْفُونَ الكيل. قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال الله: "وَيَلُّ لِلْمُطَفِّينَ*... *يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟"... وعن ابن عباس قال: لما قَدِمَ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أحبب الناس كيلاً، فأنزل الله: "وَيَلُّ لِلْمُطَفِّينَ"، فَأَحْسَنُوا الكيل".

إلا أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت في أهل المدينة، والسورة كلها، كما يقول الطبرى نفسه في بداية تفسيره لها، سورة مكية! ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بدمائة الطبع ولم تُعْرَف عنهم شكاسة في الخلق والمعاملات التجارية كالذى كان مشهورا عن مكة وأهلها في الجاهلية، علاوة على أن القرآن إنما كرّر النهى عن الغبن في المكايل والموازين في المرحلة المكية، بخلافه في المرحلة المدنية، التى لم يترل فيها شىء في ذلك. ولا ينبغي أن نغفل عن أن المكين كانوا، في المقام الأول، تجاراً لا زُرَاعاً كاليثريين. بل إن الحديث عن شيوع الغش في المعاملات التجارية في بعض الأمم القديمة وتلاعبها في الكيل والميزان، وهى أمة شُعِبَ عليه السلام، إنما كان في "الأعراف" و"هود" و"الشعراء"، وهى مما نزل في مكة لا المدينة. أفترى القرآن إذن كان يستبق الحوادث ويهاجم اليثريين قبل الميعاد؟ الذى أراه هو أن المقصودين

بالكلام عن الكيل والميزان إنما هم المكيون قبل غيرهم، وإن كنت لا أستبعد سواهم من العرب من هذا الانحراف الخلقى. وبالمناسبة فإن الواحدى والسيوطى مثلاً فى كتابيهما عن "أسباب التزول" يقولان نفس ما قاله الطبرى.

أما الطاهر بن عاشور فى "تفسير التحرير والتنوير" فيورد اختلاف العلماء فى مكية السورة أو مدنيتهما، لينتهى إلى أنهما مما نزل بين مكة والمدينة. ثم أضاف قائلاً: "وعن القرظي: كان بالمدينة تجار يطففون الكيل، وكانت بياعاتهم كسبت القمار والملامسة والمناملة والمخاصرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السوق وقرأها، وكانت عادة فشّت فيهم من زمن الشرك فلم يتفطن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مال الناس، فأريد إيقاظهم لذلك، فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين فى المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويشرب بأنهم الذين سنّوا التطفيف. وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي صلى الله عليه وسلم لئلا يشهد فيها منكرًا عامًّا، فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما فى الأسواق وفى المبادلات". ولكنى، رغم هذا، ما زلت أرى أن "المطففين" سورة مكية لأسلوبها وموضوعاتها اللذين يشبهان

أسلوب الوحي المكي وموضوعاته، وأقصى ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون الرسول قد قرأها على أهل يثرب مُهَاجِرَه إليهم، فقد قلت إنني لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطفّف في الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكيين، في نظري، هم المقصودون أوّلاً وفي الأساس بهذه الآيات. أيّ ما يكن الأمر فقد كان الجاهليون يتلاعبون في مكاييلهم وموازينهم بما ياباه الخلق الشريف والذكاء التجارى الحصيف كما يصنع كثير من التجار في المجتمعات المتخلفة مما لا نجد في نظيراتها المتقدمة رغم أنها ربما لا تدين بدين سماوى، لكنه الحس التجارى السليم والقانون اليقظ الحريص على سلاسة الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية في حد ذاتها هو المراد!

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يجرّمون البَحِيرَةَ والسائبة والحامى، وفي ذات الوقت يأكلون الميتة، سواء ماتت ميتة طبيعية أو كانت منخقة أو موقوذة (وهى المضروبة ضربا شديدا حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآهتهم حتى تموت ثم يأكلونها)، أو كانت متردّية أو منطوحة. وكانوا يقولون عن الميتة إن الله قتلها، فكيف تكون حراما، ويكون ما قتله (أى ذبحه) البشر حلالا؟ وكانوا يستغربون أن يعلن الرسول وأصحابه أنهم

يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام! كذلك كانوا يأكلون الدم وما أهّل به لغير الله وما ذبح على النُصب. وفي كلامنا عن الأمثال في العصر الجاهلي إشارة إلى أكلهم الدم. وفي الطبري أنهم "كأثوا إذا أرادوا ذبح ما قربوه لآلهتهم سموا اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها وجهرُوا بذلك أصواتهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك حتى قيل لكل ذابح يُسمي أو لم يُسم، جهر بالتسمية أو لم يجهر: "مهل". فرفعهم أصواتهم بذلك هو الإهلال الذي ذكره الله تعالى". كما يقول القرطبي إن ما أهّل به لغير الله هو "ذبيحة المجوسي والوثني والمعطل: فالوثني يذبح للوثن، والمجوسي للنار، والمعطل لا يعتقد شيئاً فيذبح لنفسه". و"النُصب" هي الأوثان من الحجارة، وكانت تُجمع في الموضع من الأرض، فكان المشركون يقربون لها، وليست بأصنام، لأن الصنم يصور ويُنقش، وهذه حجارة. فكأثوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة.

أما البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي فكانت الناقة إذا ولدت أبطناً خمساً أو سبعا شقوا أذنها وقالوا: هذه بحيرة، وكان الرجل يأخذ بعض ماله فيقول: هذه سائبة، وكأثوا إذا ولدت الناقة الذكر أكله الذكور دون الإناث، وإذا ولدت

ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ قَالُوا: وَصَلَتْ أَحَاهَا، فَلَا يَأْكُلُونَهُمَا. فَإِذَا مَاتَ الذَّكَرَ أَكَلَهُ الذُّكُورُ دُونَ الْإِنَاثِ. وَكَانَ الْبَعِيرُ إِذَا وَلَدَ وَوَلَدَ وَلَدَهُ قَالُوا: قَدْ قَضَى هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِظَهْرِهِ وَقَالُوا: هَذَا حَامٍ. وَقِيلَ أَيْضًا: كَانُوا إِذَا نَتَجَتْ (أَى وَلَدَتْ) الناقاة خمسة أَبْطُنٍ إِنَاثًا بُحِرَتْ (شُقَّتْ) أَذْنَاهَا فَحُرِّمَتْ، وَقِيلَ إِنِ الناقاة إِذَا نَتَجَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ، فَإِنِ كَانَ الْخَامِسُ ذَكَرًا بَجَرُوا أَذْنَهُ فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنِ كَانَ الْخَامِسُ أَنْثَى بَجَرُوا أَذْنَاهَا وَكَانَتْ حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ لِحَمِهَا وَلِبِنِهَا. وَقِيلَ: إِذَا نَتَجَتْ الناقاة خَمْسَةَ أَبْطُنٍ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِالْإِنَاثِ شَقُّوا أَذْنَاهَا وَحَرَّمُوا رُكُوبَهَا وَدَرَّهَا. وَالسَّائِبَةُ: الناقاة تُسَيَّبُ، أَوِ الْبَعِيرُ يُسَيَّبُ نَذْرًا عَلَى الرَّجُلِ إِذَا سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضٍ أَوْ بَلَغَهُ مَتْلَهُ فَلَا يُحْبَسُ عَنْ رَعِيٍّ وَلَا مَاءٍ وَلَا يَرْكَبُهُ أَحَدٌ. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي تُسَيَّبُ لِلَّهِ فَلَا قَيْدَ عَلَيْهَا وَلَا رَاعِيَّ لَهَا. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي تَابَعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إِنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يُرْكَبُ ظَهْرُهَا وَلَا يُجَزَّ وَبَرَّهَا وَلَا يَشْرَبُ لَبْنُهَا إِلَّا ضَيْفًا. وَالْوَصِيْلَةُ قِيلَ: هِيَ الناقاة إِذَا وَلَدَتْ أَنْثَى بَعْدَ أَنْثَى، وَقِيلَ: هِيَ الشاةُ، كَانَتْ إِذَا وَلَدَتْ أَنْثَى فَهِيَ لَهُمْ، وَإِنِ وَلَدَتْ ذَكَرًا فَهُوَ لِأَهْلَتِهِمْ، وَإِنِ وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى قَالُوا: وَصَلَتْ أَحَاهَا فَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ لِأَهْلَتِهِمْ. وَقِيلَ: كَانُوا إِذَا وَلَدَتْ الشاةُ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ نَظَرُوا: فَإِنِ كَانَ السَّابِعُ ذَكَرًا ذُبِحَ فَأَكَلَ مِنْهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنِ كَانَتْ أَنْثَى تُرِكَتْ

في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذبح لمكانها، وكان لحمها حراماً على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يُرَكَب، وكانوا إذا رُكِبَ وَلَدُ الفحل قالوا: حُمِيَ ظهره فلا يُرَكَب، فجاء الإسلام فحرّم هذا كله. ومن الأخبار التي وردت عن ذبحهم لأهنتهم ما رُوِيَ عن ابن عباس من "أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسَلَحَ عليها، وكان عبداً لعبد الله بن جُدعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائة من الإبل يَنَحَرُونَهَا لأهنتهم".

وكانت الخمر شائعة بين الجاهليين شيوعاً مستطيراً يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلي، ولقد أخذت هذه المسألة في أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كَفَّوا عن تعاطي أم الخبائث ممثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى أقفلوا عنها إقلاعا لم يحدث من قبل ولا من بعد في أي مجتمع أو حضارة بشرية!

والآن مع بعض النصوص القرآنية التي تتحدث في موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منهما: "إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" (البقرة/ 173)، "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ

وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَقَّةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ" (المائدة/
3)، "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ" (المائدة/ 103)، "قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا
عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ
خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" (الأنعام/ 145)،
"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ
اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا
تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ
لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ" (النحل/ 115-116)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا
الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/ 90). ولا أدري أكان من
العرب الوثنيين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد
أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه محرَّم في شريعة
موسى عليه السلام، التي أكد المسيح أنه إنما أتى لتكميلها لا
لنقضها، إلا أن بولس اليهودى ما إن دخل النصرانية حتى
أشاع فيها الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة
تقريباً، ومن بين ما ألغاه تحريم الخنزير.

ولأن المجتمع العربي في الجاهلية مجتمع رعوى في الأساس كان اللبن من أغذيتهم الرئيسية. وكان من أطعمتهم أيضا العسل، يحصلون عليه من النحل الذي يعيش في الجبال أو على غصون الأشجار. كما كانوا يطيّبون شراهم بالكافور والزنجبيل والمسك: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" (الإنسان/ 5). وقد امتنّ الله عليهم بهذا كله: "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لُنُسِّقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَاءٍ خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ*" وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/ 66-69)، "وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى" (محمد/ 15)، "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا" (الإنسان/ 17)، "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ* خِتَامُهُ مِسْكٌ" (المطففين/ 25-26) .

وفي تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثا عن بنى آدم: "وَلَا ضَلَّانَهُمْ وَلَا مَتَّبِعِيهِمْ وَلَا مُرْتَبِّئِهِمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ، وَلَا مُرْتَبِّئَهُمْ فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ" (النساء/ 119) يقول

الزمنشري: "تَبْتِيكُهُمْ (أى تَبْتِيكَ عرب الجاهلية الوثنيين)
الآذان: فِعْلُهُمْ بالبحائر. كانوا يشقّون أذن الناقة إذا ولدت
خمسة أبطن، وجاء الخامس ذَكَرًا، وحرّموا على أنفسهم
الانتفاع بها. وتغييرهم خلق الله: فَقُءُ عَيْنِ الْحَامِي وَإِعْفَاؤُهُ مِنْ
الرَّكُوبِ". وفي قوله سبحانه: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ
وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ
لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى
شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (الأنعام/ 136) نرى لو أنّ آخر من
اعتقادهم الوثنية التي كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم،
إذ كانوا يجعلون لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم
نصيبا، ولآلهتهم نصيبا من ذلك يَصْرِفُونَهُ عَلَى سَدَنَتِهَا
والقائمين بخدمتها. فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم عَوَّضُوا عَنْهُ
مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ، وقالوا: الله غني عن ذلك. وقوله: "فَمَا كَانَ
لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ"، أي إلى المصارف التي شرع الله
الصَّرْفَ فِيهَا كَالصَّدَقَةِ وَصَلَةِ الرَّحِمِ وَقِرَى الضَّيْفِ. ومعنى
عبارة "وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم"، أي يجعلونه
لآلهتهم وينفقونه في مصالحها. وفي "الكشاف" للزمخشري أنهم
"كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله، وأشياء منها لآلهتهم،
فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكيا ناميا يزيد في نفسه خيرا رجعوا
فجعلوه للآلهة، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلوا

بأن الله غني. وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها". وفي قوله سبحانه: "فلا يصل إلى الله" يقول: "أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليه من قرى الضيفان والتصدق على المساكين"، أما قوله: "فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ" فمعناه أنهم ينفقونه على الأوثان "في ذبح النسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك". أو كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، وهذا معنى آخر للآية الكريمة.

وفي الآيتين 138-139 من نفس السورة نقراً قوله عز شأنه: "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ* وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ". و"الحجر" هو التضييق، والمقصود أنهم يقصرونها على طرفٍ دون آخر. ذلك أنهم كانوا إذا عيّنوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: "لا يطعمها إلا من نشاء"، يعنون خدام الأوثان والرجال دون النساء. أما الأنعام التي حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا فهي البحائر والسوائب والحوامي. ثم هناك الأنعام التي لا يُذكَرُ اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء

الأصنام. وقيل: لا يحجّون عليها ولا يُلبّون على ظهورها. أى أنهم قَسَمُوا أنعامهم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجْرٌ، وهذه أنعامٌ محرّمة الظهور، وهذه أنعامٌ لا يُذكر عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضا: "ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرمٌ على أزواجنا، وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء". أى أن ما وُلِدَ من أجنّة البحائر والسوائب حيّا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما وُلِدَ منها ميتّا اشترك فيه الذكور الإناث. وفي ذات السياق أيضا ورد قوله سبحانه: "وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (النحل/ 56)، ومعناه أنهم كانوا يجعلون لآهنتهم التي لا علم لها (لأنها جهاد، فهي لا تدري ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون) نصيبا مما رزقهم الله من الزروع والأنعام يتقربون بذلك إليها.

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكرارا لذكر الجبال في آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعي، فالجزيرة العربية مملوءة بالجبال: "وهي تجري بهم في موج كالجبال" (هود/ 42)، "وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال" (إبراهيم/ 46)، "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون" (النحل/ 68)، "والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا" (النحل/ 81)،

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا" (طه / 105)،
 "وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ
 سُودٌ" (فاطر / 27)، "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا* وَالْجِبَالَ
 أَوْتَادًا" (النبأ/ 6-7)، "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَكُمْ
 وَلِأَنْعَامِكُمْ" (النازعات / 32-33). كما أشار القرآن، في آية
 مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربية هي ظاهرة
 السراب: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
 الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا" (النور / 39).

وعلى ذكر السراب فإن الماء شحيح في الجزيرة العربية،
 ومن هنا فكثيرا ما يمين الله على العرب بإنزاله من السماء ماء
 يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا
 وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ
 رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة / 22)،
 "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ
 فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا" (الأنعام / 99)،
 "وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ
 الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ" (الأنفال /
 11)، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي
 الْأَرْضِ" (الزُّمَرُ / 21)، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
 يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (المُلْكُ / 30)، "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً

ثَجَّاجًا* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا" (النبا/ 14-16). والإبل هي أيضا من حيوانات الجزيرة العربية، وهى مما ورد ذكره فى كتاب الله، بل هى الحيوان الوحيد الذى لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية/ 17-20)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

وبالنسبة للمساكن التى كان يقطنها العرب فى الجاهلية فإن القرآن يشير إلى ضربين: البيوت العادية، وهى بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل عددا فى بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوبر والشعر والجلد، وهى الخيام، التى لا يعرف سكان البوادر غيرها نظرا لتقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (النحل/ 80).

أما الحيوانات والطيور والطيور والزواحف والحشرات التى كانت تعيش فى بلادهم أو يعرفونها ولو سماعا فقد ذكر القرآن منها الخيل والبغال والحمير والجمال (أو الإبل) والبقر والمعز والضأن والفيل والسبع والأسد (الذى استخدم له

القرآن كلمة "قَسْوَرَة") والقِرْدَة والكلب والخنزير والغراب
والهدهد والسلوى والضفادع والحوت والحية والثعبان
والجوارح والنحل والجراد والبعوضة والعنكبوت والذباب
والنمل والقمل: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً
فَمَا فَوْقَهَا" (البقرة/ 26)، "الْمَنَّ وَالسَّلْوَى" (البقرة/ 57،
والأعراف/ 160، وطه/ 80)، "بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ"
(البقرة/ 68)، "بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوِثُهَا" (البقرة/ 69)، "إِنَّ
الْبَقْرَةَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" (البقرة/ 70)، "وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ" (البقرة/
269)، "وَمَا أَكَلَ السَّيِّعُ" (المائدة/ 3)، "وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ
الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ" (المائدة/ 4)، "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ
لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ
مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"
(المائدة/ 31)، "قُلْ هَلْ أُبَيِّنُكُمْ بَشْرًا مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ
مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ
الطَّاغُوتَ" (المائدة/ 60)، "وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُّوا
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ* ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِزِ اثْنَيْنِ قُلْ
الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ
نَبَّؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقْرِ اثْنَيْنِ

قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ آمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ " (الأنعام/142-144)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ" (الأنعام/146)، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ" (الأعراف/133)، "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ" (الأعراف/176)، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال/60)، "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ" (هود/64)، "يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" (يوسف/17)، "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ" (يوسف/43)، "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (النحل/8)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/68)، "وَكَلِّبُهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ" (الكهف/18)، "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" (الكهف/61)، "قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه/17)

18-20)، "نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ" (الأنبياء/ 78)، "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ" (الحج/ 73)، "فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ" (الشعراء/ 32)، "حَتَّى إِذَا اتُّوا عَلَى وَادِ التَّمَلِّ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا التَّمَلُّ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (النمل/ 18)، "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (النمل/ 20)، "مِثْلُ الَّذِينَ انْتَحَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت/ 41)، "إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" (لقمان/ 19)، "فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ" (الصافات/ 142)، "قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ" (ص/ 24)، "مِثْلُ الَّذِينَ حَمَلُوا الثُّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" (الجمعة/ 7)، "كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" (المدثر/ 51)، "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" (الغاشية/ 17)، "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/ 1).

وأما الثمار والفواكه والنباتات والأشجار التي كان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها التين والزيتون والأعناب والرمان والنخيل والبقل والعدس والبصل والقشء والفوم (وهو

الثوم أو الحنطة) والقمح واليقطين (القرع) والخمط (الأراك) والأثل (الطرفاء) والسدر والطلح والريحان والقضب والأب والضرير: "فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها" (البقرة/ 61)، "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مُشتبهاً وغير مُشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون" (الأنعام/ 99)، "وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان مُشابهاً وغير مُشابه" (الأنعام/ 141)، "وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات" (يوسف/ 43)، "واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً" (الكهف/ 32)، "وهزي إليك جذع النخلة تساقط عليك رطباً جيئاً" (مريم/ 25)، "ولأصلبكنم في جذوع النخل" (طه/ 71)، "يوقد من شجرة مباركة زيتونة" (النور/ 35)، "وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل" (سبا/ 16)، "وأنبئنا عليه شجرة من يقطين" (الصفات/ 146)، "ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحباً الحصيد" (ق/ 9)،

وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10)، "فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ* وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ" (الرحمن / 11-12)، "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (الرحمن / 68)، "فِي سِدْرٍ مَخضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ" (الواقعة / 28-29)، "فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجِنَّةٌ نَعِيمٌ" (الواقعة / 89)، "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ" (الحشر / 5)، "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعَيْنًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ" (عبس / 24-32)، "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ" (الغاشية / 6)، "وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ" (التين / 1).

وتبقى المعادن والجواهر والملايس: "وَالفَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ" (آل عمران / 14)، "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (أى الفضة) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ" (الكهف / 19)، "لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ" (الكهف / 31)، "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ" (الحج / 23، وفاطر / 33)، "وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ" (سبا / 10)، "وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ" (سبا / 12)، "وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (الزخرف / 33)، "فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ" (الزخرف / 53)، "يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ" (الدخان / 53)، "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ" (الطور / 24)، "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن / 22)، "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمن / 35)، "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن / 58)، "وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ" (الحديد / 25)، "وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا" (الإنسان / 12)، "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا" (الإنسان / 15).

وفي القرآن المجيد أيضًا ذِكرُ ملكة ويشرب والمدينة ولسان العرب، وقريش ورحلتها إلى الشام واليمن، والكعبة وإبراهيم أبي العرب وابنه إسماعيل، وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وسيا وعاد وثمود ومدين، وهود وصالح وشُعَيْب، واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، والشَّعْر والشعراء والكُهَّان والنَّفَّاثَات في العَقْد، والأشهر الحُرْم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب، وكانوا يتوقفون فيها عن القتال والأخذ بالثأر ويجعلونها شهور هداية، وإن كانوا أحيانًا ما يستمرون فيه معوضين عنها بشهور أخرى يتوقفون فيها عن المعارك، وهو ما يسمونه: "النَّسِيء". كما كان الأخذ بالثأر

تقليدا جاهليا راسخا في أعماق النفس العريية، ولكن بالمقابل كانت مكة بما فيها الكعبة حرمًا آمنًا لا يجوز الأخذ بالثأر فيه مهما كانت الأسباب والمغريات، ولذلك يقال: "البلد الحرام"، و"البيت الحرام"، و"المسجد الحرام". وقد كان هذا كله جزءا من حياة العرب وجغرافيتهم وتاريخهم وثقافتهم ودينهم: "وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ (بالأخذ بالثأر) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخذها الدية منه لأولياء القتيل حسبما يختارون)" (الإسراء/ 33)، "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ (أى مكة) مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (آل عمران/ 96-97)، "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ" (الفتح/ 24-25)، "إِلَيْلَافِ قُرَيْشٍ* إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ" (قريش/ 2)، "جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ" (المائدة/ 97)، "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" (الأحزاب/ 13)، "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة/ 125-129)، "وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ" (الحج/ 78)، "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (التوبة/ 19)، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ 18)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ
 فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة/ 51)، "إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"
 (المائدة/ 69)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ
 وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج/ 17)، "لَقَدْ
 كَانَ لِسِيَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ" (سبأ/
 15)، "وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
 وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ* فَكَذَّبُوهُ
 فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ* وَعَادًا وَثَمُودَ
 وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
 فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (العنكبوت/ 36-
 38)، "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
 أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ* قَالَ
 يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا
 حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا
 الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
 أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ"

(هود/ 87-89)، "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل/ 103)،
 "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ
 لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" (الشعراء/ 192-
 195)، "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا" (الأحقاف/ 12)،
 "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ"
 (يس/ 69)، "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء/ 224)،
 "فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ* أَمْ يَقُولُونَ
 شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ" (الطور/ 29-30)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ
 رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ* وَلَا بِقَوْلِ
 كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقة/
 40-43)، "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" (الفلق/ 4)، "إِنَّ
 عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا
 تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ
 كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ
 يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا
 عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (التوبة/ 36-37)، "إِنَّمَا
 أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ
 وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (النمل/ 91)، "أَوْلَمْ نُمَكِّنْ

لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَدُنَّا" (الْقَصص / 57)، "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنَخِطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ" (العنكبوت / 67)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا" (المائدة / 2)، "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ" (الإسراء / 1).

كما أبرز القرآن في أكثر من موضع تمسك العرب الجاهليين بما تركه لهم الأجداد والآباء من عادات وتقاليد تمسكا حديدية: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" (البقرة / 170)، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" (المائدة / 104)، "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ" (الزخرف / 22).

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنيين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبيِّناً أن كُلاً من الطائفتين كانوا يرددون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إنهم لن يعذبوا يوم القيامة إلا أياماً معدودات، وأن منهم من كان يجعل عُزَيْرًا ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الأخيرون يثبِّتون الألوهية، ومنهم من كان يعبد مريم والمسيح مع الله. بل لقد اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم في الدين من عقائد وعبادات وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان. كما ذكر القرآن تحريف الفريقين لكتبهم، ونَصَّ على الأطمعة المحرَّمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدتهم في النبوة وأنها محصورة طبقاً لدعواهم في بنى إسرائيل، وزعمهم أن الله قد عهد إليهم ألا يؤمنوا بأى رسول إلا إذا أتاهم بقربان تنزل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم في غير اليهود سبيلاً، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويخونوا أماناتهم معهم دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

وَأَلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/ 18)، "قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجمعة/ 6)، "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ (أى بنى إسرائيل) قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (آل عمران/ 24)، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ غَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة/ 30-31)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة/ 17)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ* لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (المائدة/ 72-73)، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

اتَّخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ" (المائدة/ 116)، "وَإِنَّ مِنْهُمْ (أى من اليهود) لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (البقرة/ 78-79)، "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (النساء/ 46)، "فِيمَا نَقُضُهُمْ (أى بنى إسرائيل) مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (المائدة/ 13-14)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأنعام/ 146)، "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا

لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتَّبِعُوا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل
عمران/ 93)، "الَّذِينَ قَالُوا (أى اليهود) إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلاً
ثُمَّ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ"
(آل عمران/ 183)، "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (من
يهود المدينة) آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ التَّهَارِ
وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ
قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ
يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بَقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا
ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران/ 72-75)، "وَقَوْلِهِمْ (أى
اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ
وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنْ شَبَّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ
إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء/ 157-158). وبيقى
الجوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التشية في الألوهية هذا

نصّها: "وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَيَأْتِي فَارَهُبُونَ" (النحل/51)، وأقرب ما يمكن أن يفسد إلى
الذهن هنا ثنوية فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين: واحدا للنور،
والآخر للظلمة. وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها
تأثراً بالفرس.

**الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف
والفنون والأيام والنيران والأسواق**

أنساب العرب: اتفق علماء العرب القدماء على تقسيم العرب إلى نوعين: عاربة ومستعربة، قائلين إن العاربة هم العرب الأوائل الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها، فقبل لهم: عاربة، إما بمعنى الراسخة في العروبية، وإما بمعنى المبتدعة لها. وقد يقال لهم: العرب العرباء. وأما المستعربة فهم الذين دخلوا في العروبية من بعد العجمة. ثم اختلف في من هم العرب العاربة ومن هم العرب المستعربة، فذهب بعضهم إلى أن العاربة هم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعجيل والعمالقة وعبد صنم وجرهم وحضرموت وحضوراء وبنو ثابر والسلف ومن في معناهم. والمستعربة هم بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل عليه السلام كانت عجمية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جرهم ومن بني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه بمكة. وذهب آخرون إلى أن بني قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط. كذلك قسم المؤرخون أيضاً العرب إلى بائدة وغيرها: فالبائدة هم الذين بادوا ودرست آثارهم كعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى. ويلحق بهم مدين، فإنهم ممن ورد القرآن بهلاكهم. وغير البائدة هم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك

كجرُّهُمُ الثانيةً وسَيَا وبني عدنان. ثم منهم من باد بعد ذلك كجرُّهُمُ، ومنهم من تأخر حتى الآن كبقايا سَيَا وبني عدنان.

وينقسم العرب إلى قبائل، والقبيلة هي عماد الحياة في البادية، بما يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله. والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو "النسب"، ويفسر ذلك ارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد ودم واحد. ويرجع أهل الأنساب نسب كل قبيلة إلى جدِّ أعلى، ثم يرجعون أجداد القبائل إلى أجدادٍ أقدم... وهكذا، حتى يصلوا إلى الجدِّين الأخيرين: قحطان وعدنان. وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار، وهي تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تلك القبائل التي كانت قد هلكت أو انحلت واختلطت بالقبائل الأخرى. وتتألف القبيلة من بيوت يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة واختلاف المواسم. والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي، وما تقرره هذه الحكومة يطاع وينفذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليه. وقد أطلق أهل الأنساب لفظة "القبيلة" على الحَضْرَ أيضاً: فقريش قبيلة، والأوس قبيلة، والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة. ووطن القبيلة هو المضارب التي تترها والأماكن التي يمتد نفوذها إليها، فهو يتقلص ويتسع حسب نفوذ القبيلة. وتتألف القبيلة من عمائر،

كما تتألف العمائر من أقسامٍ أقلّ. ويقول علماء العرب إن هناك تجمعات أكبر حجمًا من القبيلة أطلقوا عليها: "الشعوب"، ومثالها بنو قحطان وبنو عدنان، فكل منهما شَعْبٌ، وما دونهما قبائل. ولفظة "الشعب" من الألفاظ الواردة في نصوص الخط المسند، وهي فيها بمعنى "قبيلة"، وتُكْتَبُ: "شعبن"، أي "الشعب"، لأن حرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في اللغات العربية الجنوبية. يلي الشعب في اصطلاح أهل النسب: القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة. فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان و قحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل "ابن الكلبي" مرتبةً بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة، وهي رَهْط الرجل.

وقسم النويري النظام القبلي عند العرب إلى عشر طبقات مبتدئا بـ "الجذم"، أي الأصل، وهو قحطان و عدنان، وهذه هي الطبقة الأولى. ثم الجماهير، وهي الطبقة الثانية. ثم الشعوب، وهي الطبقة الثالثة. ثم الطبقة الرابعة: القبيلة، وهي التي دُونَ الشعب، وتَجْمَعُ العمائر. ثم الطبقة الخامسة: العمائر، وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون. ثم الطبقة السادسة:

البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ. ثم الطبقة السابعة: الأفخاذ، وهي أصغر من البطون، والفخذ تجمع العشائر. ثم الطبقة الثامنة: العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. ثم الطبقة التاسعة: الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته. ثم الطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته. وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة، أي "البيت"، فهي نواة القبيلة، ومنها نبتت شجرتها التي يختلف حجمها وعدد أغصانها وفروعها باختلاف منبتها والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها. وقد اصطلح علماء النسب على أن للعرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان: ربيعة ومضر ويمن وقضاعة. ولا يمكن أن يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول.

وأسماء القبائل عند العرب على خمسة أضرب: أولها أن يُطلق على القبيلة لفظة "الأب" كعاد وثمود ومدين ومن شاكلهم. وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى: "وإلى عاد"، "وإلى ثمود"، "وإلى مدين"، يريد بني عاد وبني ثمود. وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام، لا سيما في الأزمان المتقدمة، بخلاف البطون والأفخاذ ونحوهما. وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ "بنو فلان"، وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأفخاذ والقبائل الصغار، وبخاصة في الأزمان المتأخرة. وثالثها

أن تَرِدَ القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين
والجعافرة ونحوهما، وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون
غيرهم. ورابعها أن يعبر عنها بـ"آل فلان" كآل ربيعة وآل
فضل وآل علي وما أشبه، وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة
المتأخرة لا سيما في عرب الشام في زماننا، والمراد بـ"الآل"
الأهل. وخامسها أن يعبر عنها بـ"أولاد فلان"، ولا يوجد
ذلك إلا في المتأخرين في أفخاذ العرب على قلة.

وغالب أسماء العرب منقولة مما يخالطونه ويجاورونه من
الحيوان كـ"أسد ونمر"، أو من النبات كـ"نبت وحنظلة"، أو
من الحشرات كـ"حبة وحنش"، أو من أجزاء الأرض
كـ"فهر وصخر" ونحوه. والغالب على العرب تسمية أبنائهم
بمكروه الأسماء كـ"كلب وحنظلة وضرار وحرب"، وتسمية
عبيدهم بمحبوب الأسماء كـ"فلاح ونجاح". ويحكى أنه قيل
لواحد منهم: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو "كلب
وذئب"، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو "مرزوق ورباح"؟ فكان
جوابه: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا. يريد أن
الأبناء مُعَدَّة للأعداء فاخترأوا لهم شر الأسماء، والعبيد مُعَدَّة
لأنفسهم فاخترأوا لهم خير الأسماء. وكان العرب يتعززون
بانتسابهم إلى اليمن، فكان من ينقلب على نسيبه يتخذ لنفسه
نسباً يمانياً لأجل أن الملوك كانت في اليمن، مثل آل النعمان بن

المنذر من لحم، وآل سليح من قضاة، وآل محرق، وآل العرنجج، وهو حمير الأكبر.

وكان هناك، إلى جانب النسب، نوع ارتباط آخر بين القبائل العربية هو الأحلاف، التي كانت حاجة الأعراب إليها أكثر وأشد من حاجة الحضر، إذ الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقرها وشحها ولانبساط أرضها وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو منه، فاضطرت القبائل إلى اصطناع حماية طبيعية لها هي الأحلاف. وغاية الأحلاف حماية المال والنفس وكبح جماح المعتدين، وهذه هي الأحلاف الدفاعية. أما الأحلاف الهجومية التي تُعقد لتحقيق أغراض هجومية، مثل غزو حلفٍ حلفاً آخر، أو قبيلةٍ ضخمةٍ قبيلةً ضخمةً أخرى، فإنها لا تعمّر طويلاً كما تعمّر الأحلاف الدفاعية لأن أسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتفق عليه. وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلاف في المصالح أو طروء مصالح لم تكن في حساب المتحالفين يوم عقدوا حلفهم، فيتصدع ببيان الحلف ويتهدم ليظهر محله حلف آخر جديد.

أما الحضّر، فإن لهم من حماية أرضهم ومن طبيعة الحياة التي يجيئونها ما يخفف من حاجتهم إلى الحلف القبلي ويجعل أحلافهم طرازا آخر، فقد منحتهم الطبيعة حجراً صَليداً بنوا به أبراجاً وحصوناً ومعاقل حَمَوا بها مساكنهم من طمع الطامعين،

ولا سيما الأعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود أسلحة لديهم تؤثر فيها. كما أمدهم بمواد بناء مكنتهم من إنشاء الحيطان والأسوار حولها. وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من مثل هذا التحرش، وكذلك عقد معاهدات مع القبائل لمرور تجارتهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تدفع إلى ساداتها تأليفاً لقلوبهم وضماناً لعدم احتكاك أحد منهم بهم.

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام حمير وكهلان. ومن مجموعة حمير: قضاة في رأي من جعل قضاة من اليمن. ومن قضاة: كلب وأسد، ومن أسد: تنوخ. وأما مجموعة كهلان فتألف من الأزد وهمدان ومدحج وطى، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد. وقد عُرفت "ربيعة" بـ"ربيعة الفرس". وإنما قيل له: "ربيعة الفرس" لأنه (كما جاء عند القدماء) أُعطي من ميراث أبيه الخيل، وأُعطي أخوه مُضَرَ الذهب فسُمِّيَ: "مضر الحمراء". وأُعطي أنمار أخوهما الغنم فسُمِّيَ: "أنمار الشاة". وذكر أيضاً أن نزاراً لما حضرته الوفاة أثر إياداً بولاية الكعبة، وأعطى مُضَرَ ناقه حمراء، فسُمِّيَ: "مضر الحمراء"، وأعطى ربيعة فرسه، فسُمِّوا: "ربيعة الفرس"،

وأعطى أثمار جارية له تسمى: "بجيلة" فحضنت بنيه، فسُمِّيَ: "بجيلة أثمار". ومن أشهر قبائل مصر: قريش، حتى إن الناس كانوا إذا قالوا: "مُضْرِي" انصرف ذهنهم إلى معنى "قرشي" لاشتهار قريش بالمصرية.

ولقد أُطْلِقَ على بعض القبائل ألقاب فقيـل: كِنْدَةَ الملوك، ومَذْحِج الطعان، وهَمْدَان أحلاس الخيل، والأزْد أسد البأس. وبعض هذه الألقاب ألقاب حسنة جميلة، وبعضها ألقاب تشير إلى قوة وشدة، وبعضها لا غضاضة فيه. وهي ألقاب كانت القبائل المسماة بها تتخذها مفخرا وسييلا إلى المباهاة، أو على الأقل لا ترى بها بأسا. غير أن هناك ألقابا أخرى تشير إلى استصغار شأن القبيلة التي نُعتت بها، مثل "القَيْن" و"الأجارب" و"الأقارع" و"قُرَاد" وما شاكل ذلك، ولم تر الأجيال التالية عارا في مثل تلك الألقاب. واشتهرت طَيِّى بالجود لموقع حاتم وأوس بن حارثة منها. وعُرِفَتْ باهلة باللؤم، حتى ضُربَ بها المثل فقيـل: "لؤم باهلة". واشتهر بنو ثَعَل بالرمي. واكتسبت مُدَلِج شهرة واسعة في العيافة، إذ اختصت بها من بين سائر العرب. وبرز بنو لُهَب في العيافة، فهم أزَجَر العرب وأعِيْفهم. وعُرِفَتْ إياد بخطاباتها، وملوك غَسَّان بشريدهم فقيـل: "ثريدة غسان". وعُرِفَتْ كندة بغلاء مهور بناهم. وعُرِفَتْ "خَزَاعة" بالجوع والأحاديث، أي أنهم يجمعون بين الفقر والدعاوى الفارغة.

وفي كتب التراث نقرأ كلاما كثيرا في هذا الموضوع: ففي "الاشتقاق" مثلا لابن دُرَيْدٍ أن بنى لِهَبٍ أَعْيَفُ الْعَرَبِ وَأَزْجَرُهُم لِلطَّيْرِ. وفي "عيون الأخبار" لابن قُتَيْبَةَ أن كُثَيِّرَ عَزَّةَ الشَّاعِرُ الْأَمْوِيُّ الْمَعْرُوفُ أَحْتَاكِ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنْ يَسْتَعِينَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَافَةِ فَدُلَّ عَلَى بَنِي لِهَبٍ، وَكَانَتْ عِيَاْفَتَهُمْ لَهُ دَقِيقَةً حَسِبَمَا وَرَدَ فِي الْخَبْرِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: تَيَمَّمْتُ لِهَبًا أَبْتَغِي الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ رُدَّ عَلِمُ الْعَائِفِينَ إِلَى لِهَبٍ وَمِنَ الشَّوَاهِدِ الْمَتَدَاوِلَةِ فِي بَابِ "الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبْرِ" مِنْ كِتَابِ النُّحُوِّ الْبَيْتِ التَّالِي، وَيُنْسَبُ لِرَجُلٍ مِنْ طَيْئِ:

خَيْرٌ بَنُو لِهَبٍ، فَلَا تَكُ مُلْغِيًا مَقَالَةَ لِهَبِيَّ إِذَا الطَّيْرُ مَرَّتْ
 وَفِي "البيان والتبيين" يقول الجاحظ في التقديم لبيت شعر يمدح فيه صاحبه خطيبا إياديا من الخوارج الأزارقة: "وقد ذكر الشَّاعِرُ زَيْدُ بْنُ جَنْدَبِ الْإِيَادِيَّ الْخَطِيبَ الْأَزْرَقِيَّ فِي مَرثِيَّتِهِ لِأَبِي دُوَادِ بْنِ حَرِيْزِ الْإِيَادِيِّ حَيْثُ ذَكَرَهُ بِالْخَطَابَةِ وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِخَطْبَاءِ إِيَادٍ فَقَالَ:

كَقَسِّ إِيَادٍ أَوْ لَقِيطِ بْنِ مَعْبَدٍ وَعُذْرَةَ وَالْمِنْطِيقِ زَيْدِ بْنِ جَنْدَبِ"
 وَفِي "البيان والتبيين" أَيضًا "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَغَالُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّمَا هُنَّ سُقْيَا اللَّهِ... (وَعَنْ) مُجَالِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ أَذْهَبْ مُلْكَ غَسَّانَ، وَضَعْ مَهْوَرِ كِنْدَةَ". وَفِي كِتَابِ "الْبِخْلَاءِ" يَتَعَجَّبُ بَطْلُ إِحْدَى الْقِصَصِ مِنْ بَرَاعَةِ قَوْمٍ فِي

الاستدلال على الحقائق الغائبة من بعض الشواهد التي لا تلفت نظر الآخرين فيقول: "هذه والله القيافة، ولا قيافة بنى مُدْلِج". وفيه أيضا: "قيل لرجل من العرب: قد نزلت بجميع القبائل، فكيف رأيت خزاعة؟ قال: جوع وأحاديث". وفي "العقد الفريد": "ومن بني ثعل بن عمرو بن المُسَيِّح. كان أرمى العرب، وإياه يعنى امرؤ القيس بقوله:

رُبَّ رامٍ من بني ثعلٍ مخرجٌ كَفَّيْهِ من قترِهِ

وأدرك النبي عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمس ومائة سنة فأسلم". ويقول المرادى صاحب "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" إن بني ثعل "قبيلة من العرب رماة يُضْرَبُ بهم المثل لجودة رميهم". وفي "الوافي بالوفيات" للصفدي: "وكانت العرب تستكف من الانتساب إلى باهلة حتى قال الشاعر:

وما ينفع الأصل من هاشمٍ إذا كانت النفس من باهله
وقال الآخر:

ولو قيل للكلب: يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب
وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمعي دُعِيَ في النسب إلى باهلة. فقال: هذا ما يمكن. ف قيل: ولم؟ قال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرؤا منها، فكيف يجيء من لا هو منها فينتسب إليها؟". وفي "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" لأبي

منصور الثعالبي وتحت عنوان "لؤم باهلة" نقراً: "ولم تنزل العرب
تصف باهلة باللؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خَفِيَتْ منهم تلك
الصفة، وشرُفَتْ بِقُتَيْبَةَ بنِ مُسْلِمٍ وبنيه حتى قال القائل:

إذا ما قريشٌ خلا مُلكُها فإن الخلافة في باهله

ومما يُحَكِّي من لؤم باهلة أنه قيل لأعرابي: أيسرك أن
لك مئة ألف درهم وأنت باهلي؟ فقال: لا والله. فقيل:
أفيسرك أن لك حُمَرَ النعم وأنت منها؟ قال: اللهم لا. قيل:
أفيسرك أنك في الجنة وأنت باهلي؟ قال: نعم، ولكن بشرطة
ألا يعلم أهلها أنني منها". وتحت عنوان "فيما يضاف ويُنسب
إلى القبائل" من ذات الكتاب نجد قائمة الألقاب القبليّة التالية:
"إيلاف قريش، تيه بني مخزوم، جود طيء، لؤم باهلة، رُمَاة بني
ثعل، قيافة بني مدلج، عيافة بني هب، خطباء إياد، ثريدة
غسان، مهور كندة، حرّة بني سليم". وفي "العقد الفريد" لابن
عبد ربه: "سأل زيادٌ دَغْفلاً (النَّسَابَةَ) عن العَرَب، فقال:
الجاهليّة لليمن، والإسلامٌ لمُضَرَ، والفينّة بينهما لربيعة. قال:
فأخبرني عن مُضَرَ. قال: فاخِرٌ بكنانة، وكاثرٌ بتميم، وحاربٌ
بقيس، ففيها الفُرسان والأنجاد، وأما أسدٌ ففيها دَلٌّ وكِبْر.
وسأل معاوية بن أبي سُفيان دَغْفلاً فقال له: ما تقولُ في بني
عامر بن صَعْصعة؟ قال: أعناق طِبَاء، وأعجاز نساء. قال: فما
تقول في بني أسد؟ قال: عافَةٌ قَافَةٌ، فُصحاءُ كَافَةٌ، قال: فما

تقول في بني تميم؟ قال: حَجَرٌ أَحْسَنُ إِنْ صَادَفْتَهُ آذَاكَ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ أَعْفَاكَ. قال: فما تقول في خُرَاعَةَ؟ قال: جُوعٌ وَأَحَادِيثٌ؟ قال: فما تقول في اليمَن؟ قال: شِدَّةٌ وَإِبَاءٌ. ويقول ابن حمدون صاحب "التذكرة الحمدونية": "كان ملوك غسان يوصفون بالترَفُّه والنعمه، فيقال: ثريدة غسان، كما يقال: فَأُلُوذُ ابْنِ جُدْعَانَ، وَمَضِيرَةُ أَبِي سَفْيَانَ" ... إلخ.

ولكل قبيلة جد تنتمي إليه وتباهي به. وقد يكون هذا الجدَّ جدًّا حقيقيًّا، أي إنسانًا عاش ومات وساد القبيلة وترك أثرًا كبيرًا فيها حتى نُسِبَت القبيلة إليه. وقد يكون الجد اسم حَلْفٍ تَكُونُ وتألَّف من قبائل عديدة حتى عُرِفَتْ به وصار كأنه اسم جدها. ومن هذا القبيل اسم "تَنُوخ" على حد زعم أهل الأخبار، فقد رَوَوْا أن تنوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها. وقد يكون الجدَّ اسم موضع أقامت القبيلة به فنُسِبَت إليه كما يقول أهل الأخبار عن اسم "غسان". وقد يكون اسم إله نُسِبَ عُبَادُهُ إليه مثل "بنو سعد العشيرة"، و"تالب ريام" جد قبيلة "همدان". وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما إلى ذلك مما يدخل في دراسة أصول الأسماء ومصادرها واشتقاقاتها.

ولا تقم المصالح السياسية للقبائل وزنًا للأخوة والنسب، فإذا اختلفت المصلحة لم تجد القبائل عندئذ أية

غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة أخرى ضدها. فـ"عبس" مثلاً تحالفت مع "بني عامر" في حرب البسوس على "ذبيان"، وهي أختها. وتحالفت "ذبيان" مع "تميم" على "عبس" مع ما بين "تميم" وبين "عبس" و"ذبيان" من عداة قديم. ووقعت حروب بين "تغلب" و"بكر" مع صلة الرحم والقراية القوية التي كانت تربط بين القبيلتين الأخنتين. ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتترل بها وتعدّها ملكاً لها تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب بالتزول فيها والمرور بها إلا بموافقتها ورضائها. وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها وعدّها أرضه. وتمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها، وتعيّن الحدود بتلّ أو وادٍ أو ما شاكل ذلك. ونظراً إلى عدم تثبيت القبائل أحياناً حدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها صارت الحدود سبباً من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بينها.

وتعدّ مواضع الماء في أرض القبيلة بمثابة قبلة لأبنائها، يستقون منها ما يحتاجون إليه من "إكسير الحياة". ولكل قبيلة حق حماية أرضها، شأنها في ذلك شأن الدول. وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد أن يكون في حماية أحد أفرادها. وإذا كان اجتياز جماعة، كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حياً يريد التنقل إلى أرض أخرى عبر تلك الأرض، فعليه أخذ إذن من القبيلة يخوّله

المرور بها، و إلا تعرض للمنع والقتال. لذا كان لا بد للتجّار من ترضية شيوخ القبائل للسماح لهم بالمرور بدفع إتاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من العابرين.

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل الملك بالنسبة لمملكته، فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب، يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة إن احتاجوا إلى حاجة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، وقد ينصب نفسه ملكاً عليها، كالذي فعله ملوك كندة من بني آكل المُرّار وغيرهم من الملوك. وربما لا نخطئ إذا ما قلنا إن أكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائل في الأصل، استغلوا مواهبهم وإمكانات قبيلتهم وسخروها في سبيل الحصول على الملْك فنالوه. وعلى من يسود قومه أن يتحلى بحلال حميدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم: كأن يتحمل أذى قومه، وأن يكون شريفاً في أفعاله حليماً كريماً يتجاهل السفهاء فلا يغضب ولا يثور، وأن يكظم غيظه ويحترم الآخرين مهما تكن منازلهم، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم، وأن يكون ملاذهم في أوقات الحاجة، وأن يفتح بيته وقلبه للجميع فيكرم كل من يفد إليه من كبير أو صغير. وعلى الرئيس أيضا أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت، وأن يكون واضح خطط

الحرب. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها، فإذا أصيب بمكروه أو جُنِّ في القتال أو خَرَّ صريعاً في المعركة هربت قبيلته وتراجعت القهقري، إلا إذا وُجِد في القبيلة من يُوَجِّج فيها نار الحماسة ويث فيها العزيمة للوقوف والصمود.

ومن واجب الرئيس الإشراف على توزيع الغنائم، ومن حقه المِرْبَاع إن كان من ذوي المِرْبَاع. وعليه أن ينفق من جيبه على الضيوف، وأن يفتح بيته للقادمين إليه ويستقبلهم بوجه فرح بشوش، وأن يرفع شؤون قبيلته ويسأل عن أبنائها، وأن يسعى لفكّ من يقع من أبناء عشيرته أسيراً في أيدي قبيلة أخرى، وأن يشارك قومه في تحمل الدّيّات حين يعجز رجال القبيلة عن حملها، وأن يعين أتباعه في كل جناية ينجونها. ومن هنا جاء قولهم: "سيّد معمم"، يريدون أن كل جناية ينجونها أحد من عشيرته معصوبة برأسه. ومن أعراف الحُكْم عند القبائل أن يشاور سيد القبيلة أشرف قبيلته ووجهها في الأمور الهامة ليستنير برأيهم. ومن شأن هذه المشورة أن تساعد سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من إدارة أمور القبيلة إدارة حسنة ترضي الغالبية، وقد تُوصّل الرئيس إلى النجاح والنصر في الغزو فيرتفع اسمه ويعلو نجمه. ورأي أشرف القبيلة هو مجرد مشورة لا تلزم سيد القبيلة العمل بموجبها، فقد ينيذه ويعمل برأيه، لا سيما إذا كان متجبراً عنيداً. وقد يكون

النجاح حليفه فتزداد هيئته بين أتباعه، وقد يُمنَى بخسارة فادحة فتقضي عليه وعلى رئاسته، وربما قضت على حياته أيضاً. والنظام القبلي هو نظام استشاري، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط، أما الأفراد العاديون فلا رأي لهم في تسيير الأمور، إلا إذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يُعترف بها كالحكمة والشرف، فعندئذ قد يدخل في عداد أولي الرأي.

والنسب عند العربي هو جرثومة العصبية وأساسها، ولهذا كان يحرص على حفظ شجرة نسبه ويرفعها إلى جملة طويلة من الأجداد. وقد وجد السائحون أعراباً سردوا لهم نسبهم سرداً من غير كتاب مكتوب إلى عشرات من الأجداد، وتأكدوا بعد فحوص واختبارات أن ما سُرد عليهم كان صحيحاً في الغالب. ونفس الشيء مع أهل المدر، فهم يحرصون أيضاً على حفظ نسبهم، وإن لم يكن كحرص أهل الوبر. وقد عثر الآثاريون على نقوش جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لكاتبها، وهو ما يثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها. وقد يستلحق إنسان شخصاً ما، أى يُلحقه بنسبه ويجعله في حمايته وعصبيته. وقد يكون الشخص المستلحق صريحاً معروفاً بالنسب، وقد يكون أسيراً أو مولياً أو عبداً، فيسميه المستلحق: "مولاه" وينسبه إلى نفسه. ويقال للمستلحق: "الدعي"، ومثله المتبني، وهو الذي تبناه رجل

ودعاه: "ابنه". وحُكِّمَ الدعيّ عند الجاهليين هو حُكْمُ النسب الصحيح والبنوة الشرعية. لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء.

ولـ"الجوار" صلة كبيرة بالنسب والعصية عند للعرب، فقد يتوثق الجوار وتقوى أو اصره فيصير نسباً، وعندئذ يدخل نسب "المستجير" في نسب "النجير" ويصيران نسبا واحدا هو نسب هذا الأخير. وقد اندمجت بـ"الجوار" أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها فثُضْطِرَّ إلى طلب "جوار" قبيلة أكبر منها تدافع عنها وتحمي حياتها ومالها. فإذا استجار شخص بآخر أو استجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجواز صبغة قانونية، ووجب على النجير المحافظة على حق الجوار، وإلا نزلت المسبة به وازدراه الناس.

أحلافهم: وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين، وتتلخص في أن يحلف كل طرف للآخر على التعاضد والاتفاق، وكانوا ينظرون إليها على أن لها قداسة خاصة وحرمة، ويعاملون الحانث بيمينه بأشد أنواع التحقير والازدراء. وتكون بين المتحالفين موثيق على الوفاء بالالتزامات التي نُصَّ عليها، ويتم إعلان الحلف ليكون معلوماً بين الناس. وقد تُعقَدُ الأحلاف لأغراض معينة فتكون لها آجال

محددة، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صدّ غزو أو في غزو قبيلة أخرى أو في الأخذ بثأرها منها. ومثل هذه الأحلاف لا تعمّر طويلاً، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عُقد الحلف. ولم يكن تفكير العرب ليتجاوز، عند عقدهم هذه الأحلاف، مصالح العشائر أو القبائل الخاصة، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب جميعاً أمام عدو خارجي.

وَتُعَقَدُ الْأَحْلَافُ عَلَى النَّارِ، وَهَذِهِ النَّارُ تَسْمَى: "نَارَ التَّحَالِفِ". ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا عَقَدُوا حَلْفًا أَوْ قَدُوا نَارًا وَدَعَوْا بِالْحَرَمَانِ مِنْ خَيْرِهَا عَلَى مَنْ يَنْقُضُ الْعَهْدَ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ النَّارِ "أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ"، إِذْ قَالَ:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنِ نَارِ الْمَهْوَلِ حَالِفُ
كَمَا أَشَارَ إِلَيْهَا الْكَمِيتُ:

هُمُ وَخَوْفُونِ بِالْعَمَى هُوَ الرَّدَى كَمَا شَبَّ نَارَ الْحَالِفِينَ الْمَهْوَلُ
وَلَا تُعْرَفُ صَيْغَةٌ وَاحِدَةٌ مَعِينَةٌ لِلْقَسَمِ الَّذِي يُقَسَمُ بِهِ
المتحالفون: فمنهم من كانوا يقفون عند الأصنام التي يعبدونها ويقسمون بها. ومنهم، وهم أغلب أهل مكة، من كانوا يحلفون عند ركن الكعبة فيضع المتحالفون أيديهم عليه فيحلفون. ومنهم من كان يقسم بالآباء والأجداد لما لهم من مكانة في نفوسهم. ومنهم من كان يحلف عند المشاهد العظيمة أو عند قبور سادات القبائل، فيحلفون بصاحب القبر ويذكرون اسمه على ما يتحالفون عليه. وفي كتب أهل

الأخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عُقدت في مراسيم خاصة، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء. وكان من عادتهم أن يُحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد، وقد يملفون بالملح وبالماء.

وتدوّن الأحلاف أحياناً لتوكيدها ثم تحفظ عند المتعاقدين، وقد تُودع في المعابد كالذي ورد من تحالف ذبيان وعيس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب أقسموا على اتباع ما كُتب فيه. وفي شعر زهير بن أبي سلمى يطالعا قوله:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذُبيان: هل أقسمو كل مُقسم؟
كما نقرأ في شعر الحارث بن حلزة اليشكريّ البيتين

التاليين:

واذكروا حلف ذي الجاز وما قدّم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدّي، وهل ينقض ما في المهارق الاهواء؟
إشارةً إلى العهود والرهائن التي أخذت من بني تغلب وبني بكر للوفاء بما تعاهدوا عليه ودوّنوه من شروط على "المهارق"، أي القراطيس. وكان الملك عمرو بن هند قد أصلح بين الطرفين بحلف سُميّ: "حلف ذي الجاز" وأخذ عليهم المواثيق والرهائن. ويتم توثيق العهود والأحلاف والمواثيق بتوقيع المتحالفين وطبع خواتيمهم في أسفلها. وشهادات

الشهود على صحة العقود والأوامر الملكية معروفة عند أهل اليمن، وكذلك عند أهل مكة، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القرى وسادات القبائل. ولما كانت مراسيم الأحلاف من الأمور المهمة والأحداث الخطيرة اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين، فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على طعام واحد كالذي حدث من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين في "حلف الفضول". وقد تكون الوليمة نفسها مظهرًا من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف لما للخبز والملح من أثر عند العرب. فعلى من يأكل خبز رجلٍ وملحَه أن يوفي له. ولهذا يعنّف الغادر ويوبّخ لعدم مراعاته حرمة الخبز والملح، وهي حرمة تكاد تصل إلى حرمة الدم والرّحم.

دياناتهم: جاء في "نهاية الأرب" للنويرى أن العرب لم يكونوا كلهم على دين واحد، بل عدة أديان: فصنّف منهم أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المّحّي والدهر المّفني، وصنّف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وصنّف عبدوا أصنام قوم نوح، إما بعينها وإما بأسمائها: فكان لكلب وددٌ، وهذيلٌ سواع، ولقسم من اليمن يغوث، ولذي كلاع نسر، ولهمدان يعوق، ولثقيف اللات، ولقريش وبني كنانة العزّى، وللأوس والخزرج مناة. وكان هبل على ظهر الكعبة،

وهو أعظم أصنامهم، وإساف ونائلة على الصفا والمروة. وكان منهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في الكواكب السبعة السيارة، ويعتقدون أنها فعالة بأنفسها، ويقولون: مُطِرْنَا بِنَوِّءِ الكواكب. وكان منهم من يعبد الملائكة أو يعبد الجن. ليس ذلك فقط، بل كانت لهم أحكام يدينون بها: فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويُحْرِمُونَ ويطوفون وَيَسْعَوْنَ ويقفون المواقف ويرمون الجمار ويغتسلون من الجنابة وَيُدِيمُونَ المضمضة والاستنشاق وَفَرَّقَ الرَّأْسَ والسواكَ والاستنجاء وتقليم الأظفار ورتف الإبط، ولا ينكحون الأمهات ولا البنات، فجاء الإسلام بإبقاء ذلك على وجه مخصوص. وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونهم: "الضَيِّزَنَ"، ويقطعون يد السارق اليمنى. وكانوا يجمعون بين الأختين، فجاءت الشريعة بمنع هذا الجمع. وكانوا يُعَدُّون الظَّهَارَ طلاقاً، وتعدّ المرأة عن الوفاة بِحَوْلٍ. وكانوا إذا لُبَّسَ عليهم أمرٌ رَدُّوه إلى كهنتهم، الذين يدعون أن لهم أتباعاً من الجن. وكانوا يعولون على عِيافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم: تارة بالاعتماد على اسم الطائر، وتارة بطيرانه يمينا أو شمالا، وتارة بصوته ومقدار ذلك الصوت، وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه، فجاءت الشريعة بإبطال ذلك.

علومهم ومعارفهم: كان العرب يتلّون العزائم لأصنامهم ويرقون مرضاهم لإخراج الشياطين من أجسادهم، وكان اعتقادهم أن تقليد نهيق الحمير يمنع انتشار الوباء، وأن شرب دماء الملوك يشفى من الخبل. كما كانوا يعالجون بالعقاقير النباتية والأشربة، وخصوصا العسل، الذي كان أساس العلاج في أمراض البطن. وتجيء الحجامة والكّي على رأس قائمة الدواء عندهم، ومن هنا جاء المثل المشهور: "آخر الدواء الكّي". وكثيرا ما كانوا يعالجون بالبتر، مع وقف نزيف الدم بالنار باستخدام شفرة محمّاة لقطع العضو المراد بتره. ومن طرقهم في العلاج أيضا أنهم كانوا يأمرّون الأحول بإدامة النظر إلى رَحَى دائرة. كذلك كانوا يعتقدون أن المجروح إذا شرب ماءً مات، وأن شرب الماء الحار يُذهب الرّوع عن المرأة، وأن شرب دم السادة يشفى من داء الكلب، وأن عظام الميت تبرئ من الجنون. ويُفهم مما تعجّ به العربية من ألفاظ العلل والعقاقير أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض وعلاجاتها. ويرى جرجي زيدان في كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" أن معرفة العرب الجاهليين لأسماء أعضاء الجسم على النحو الملحوظ في لغتهم يدل على أنهم كانوا مهرة في تشريح الجسد، وهو ما انتفع به الأطباء العرب في عصور النهضة العربية بعد الإسلام. ومن أطبائهم في الجاهلية الحارث بن كلدة والنضر بن الحارث،

اللدان أفادا معارفهما وممارساتهما الطبية من رحلاتهما إلى بلاد فارس واحتكاكهما بأطبائها. أما في ميدان البيطرة فقد كانت لهم معرفة جيدة بشؤون الخيل وأمراضها وطرق علاجها، ونبغ منهم عدد من البياطرة كالعاص بن وائل. وقد وضع العلماء في العصر العباسي عددا من الكتب عن الخيل اعتمدوا في تأليفها على ما جمعه من المعارف العربية في هذا السبيل.

ومن المعارف الطبيعية عندهم مقدرتهم على تخمين وجود الماء في مكانٍ ما من تشمّ تربته أو نباتاته، وتفوقهم المذهل في اقتفاء الآثار والاستدلال منها على كثير من السمات الشخصية لمن يقتفون أثره، حتى ليستطيعون التفرقة بين قدم المرأة وقدم الرجل، وبين قدم البكر وقدم الثيب، وبين قدم العاقل وقدم الأحق، وبين قدم الأعمى وقدم المبصر مثلا. وبالمثل كانت لهم بصيرة راسخة في ميدان الفراسة، وهي الاستدلال بمهنة الشخص على طباعه وأخلاقه، فضلا عن براعتهم في توقع نزول الغيث من ألوان الغيوم وأشكالها، وتفوقهم في ميدان النجوم والاهتداء بها في باديتهم المتناوحة الأطراف. وكانوا ينسبون المطر والريح والبرد والحر إلى تلك النجوم. كما عرفوا مواقع الكواكب والنجوم وأبراجها، ومنازل الشمس والقمر. وكانت لهم أساطير وخرافات تتصل بالأجرام السماوية، فكانوا يتحدثون عنها كما لو كانت بشراً

تتحارب فيما بينها وتتزوج، بل ألهوها في بعض الأحيان. ومن تشخيصهم لها قولهم إن الدبران أراد أن يخطب الثريا وتوسط القمر له عندها، إلا أنها رفضته قائلة: ماذا أفعل بهذا السبوت الذى لا مال له؟ فجمع الدبران قِلاصَه كى يقدمها مهرا لها وظل يتبعها بما حتى ترضاه زوجها، ولا يزال يفعل ذلك حتى اليوم. وهذه المعارف والعلوم هى وليدة الخبرة والتجربة والأوهام جميعا، إلى جانب ما أخذوه عن الأمم المجاورة كالفرس والروم والكلدان.

فنونهم: لم يكن العرب فى الجاهلية يجهلون التصوير على الجدران، إذ كانت على حوائط الكعبة الشريفة آنذاك عدد من الصور منها صور إبراهيم وعيسى وأمه عليهم السلام. وثم نقوش ثمودية وصفوية ونبطية عُثر عليها فى العصر الحديث محفورة فى الحجر تمثل آلهة وبشرا وحيوانات. وذكر الهمداني فى كتابه: "الإكليل" أنه كان هناك جدار أمام أحد القصور الملكية القديمة فى اليمن عليه صورة الشمس والهلال، كما تحدث عن قصر آخر قديم بتدمر مملوءة جدرانها بالصور. كذلك عثر المنقبون العربيون فى اليمن على نقوش جدارية تصور ناسا من تلك البلاد: بعضهم راجل، وبعضهم راكب فرسه، وبعضهم يقدم قربانا للأوثان.

وبالإضافة إلى ما تقدم كان كثير من ثياب العرب في الجاهلية منقوشا بأنواع التصاویر المختلفة كتصاویر الرّحال، وهی صور الإبل بما یوضع علی ظهرها من أكوار. ویسمى الثوب المنقوش بهذا الطریقة: "المُرْحَل". ومن الشواهد علی ذلك البیت التالی لامرئ القیس، الذی يتحدث فیهِ عن خروجه مع صاحبته لیلا یتسحب بها فی هدوء کیلا یشعر بهما أحد، وقد أرخت ذیل مرطها "المُرْحَل" للتعفیة علی آثارهما:

خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجْرُ وَرَاءَنَا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرْحَلٍ
كما عرف الجاهلیون "الثیاب المعصّدة"، وهی الثیاب المنقوش علیها صور الأعضاء، أو التی علیها صورة العَلم فی موضع العَصْد منها. ومن ذلك قول زُهَیْر بن أبی سُلَیْم فی وصف بقرة وحشیة:

فَجَالَتْ عَلَى وَحْشِيَّهَا وَكَأَنَّهَا مُسْرَبَلَةٌ مِنْ رَازِقِيٍّ مَعْصَدٍ
وتم بیت لامرئ القیس یدکر فیهِ عقودا مفقّرة تتزین بها بعض صواحبه من الفتیات المترفات، وهی عقود مكوّنة من قطع ذهبیة علی شكل فقرات الجرّاد:

غَرَائِرُ فِي كِنٍّ وَصَوْنٍ وَنَعْمَةٍ يُحَلِّينَ يَاقُوتًا وَشَدْرًا مُفَقَّرًا
وفی البیتین التالیین لعبدّة بن الطیب وصفٌ لفراشٍ كان یجلس علیه هو ونداماه فی إحدى الحانات، وكان مرسوما علیه صور دجاج وأسود:

حتى اتكأنا على فُرْشٍ يَزِينُهَا من جيّد الرِّقْمِ أزواجٌ تماويلُ
 فيها الدجاج، وفيها الأَسَدُ مُخَدَّرَةٌ من كل شيء تُرَى فيها تماثيلُ
 كذلك كان للعرب تماثيل يشركونها مع الله في العبادة،
 وكان في فناء المسجد الحرام عشرات الأصنام: منها هُبَل،
 الذى كان مصنوعا من عقيق أحمر على صورة إنسان له يد من
 ذهب. ومنها وَدٌّ، وكان على هيئة رجل كأعظم ما يكون
 الرجال، وعليه رداء وإزار، وقد تقلد سيفاً وتكب قوسا.
 وورد في "مروج الذهب" أنه كان على كلِّ من يمين قبر حاتم
 الطائي ويساره تماثيل من حجر أبيض لأربع نسوة في غاية
 الجمال ناشرات شعورهن كأنهن يُنْحَنَ عليه. ويقص السهيلي
 في كتابه: "الروض الأُنْف" أنه كان يوجد بقليس صنعاء
 تمثالان: أحدهما تمثال رجل طوله سبعون ذراعا، والآخر
 لزوجته. كما جاء في "معجم البلدان" لياقوت الحموى أنه كان
 فوق قصر غمدان باليمن مجلس أقيم على كل ركن من أركانه
 تمثال أسد مصنوع من شبه أو تمثال نسر طائر. واكتُشِف في
 بعض المغاور اليمنية في العصر الحديث تماثيل رجال ونساء
 وأبقار مكتوب عليها بالحميريّة. كما كانت بنات العرب يلعبن
 بتماثيل صغار يسمينها: "الجوارى" و"البنات". وفي الشعر
 العربي القديم كثيرا ما يشبه الشعراء حبايبهم بالدمية والتمثال،
 ومنه قول النابغة في وصف امرأة فاتنة:

قَامَتْ تَرَأَى بَيْنَ سَجْفِي كَلَّةٍ كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعَدِ

أَوْ دُرَّةً صَدَقِيَّةً غَوَّاصُهَا بَهِيحٌ مَتَى يَرَهَا يُهَيِّلُ وَيَسْجُدُ
أَوْ دُمِيَّةً مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ بُنِيْتُ بِأَجْرٍ تُشَادُ وَقَرْمَدُ
وقول امرئ القيس:

وَيَا رَبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ بِأَنْسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمْثَالِ
أيامهم: وأيام العرب في الجاهلية أكثر من أن تحصى، وسوف نكتفى هنا ببعض الوقائع المشهورة: فمنها يوم البسوس، وهو من أعظم حروب العرب، وكان بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان للبسوس خالة جساس ناقلة فراها كليب بن ربيعة تكسر بيض حمام موجودا في حمّاه، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت الحرب بسبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة. ويوم داحس، وكان لعبد القيس على فزارة، ودام سنين طوالا هلك فيها الكثير، وكان سببه مسابقة بين الخيل. ويوم ذي قار، وهو أيضا من أعظم أيام العرب، وكان كسرى إبرويز قد أغزى بنى شيبان جيشا فظفر به الشيبانيون، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقد خلد الأعشى ذلك النصر المؤزر في قصيدة رائعة له. ويوم الستار بين بكر وتغلب، وقد حلق فيه أحد الفريقين رؤوسهم لتكون علامة لهم. ويوم بعث بنى الأوس والخزرج، وله ذكر في صحيح البخاري. ويوم الدرك بين الأوس والخزرج أيضا. ويوم نجران، وكان لبني تميم على

بني الحارث بن كعب. ويوم ذي الابل، وكان لتغلب على لحم وعمرو بن هند. ويوم الذنائب، وهو لغسان على لحم ونجران. ويوم الغصيبة، ويقال: القصيبة، وكان لعمرو بن هند على تميم. ويوم النصيح، وهو لقيس على أهل اليمن، وقيل: يوم المضيح. ويوم الصفقة، وسُمِّيَ كذلك لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، ويسمى أيضاً: يوم المشقر، والمشقر حصن بالبحرين. ويوم البردان، وهو من أيام القحطانيين فيما بينهم. وقد وقع لِحُجْرٍ آكل المُرَّار من كندة (وهو أبو امرئ القيس كبير شعراء الجاهلية) على زيد بن الهبولة من قضاة. ويوم عَيْنِ أَبَاغ، وعين أَبَاغ وارد الأنبار على طريق الفرات الى الشام، وقد وقع للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة. ويوم حليلة، وحليمة هي بنت الحارث، وبهذا اليوم ضُربَ المثل فقول: "ما يوم حليلة بسر"، وهو أيضاً للحارث الأعرج الحيرى على المنذر بن ماء السماء الغساني. ويوم خزاز، لمَعَدَّ على مَذْحِج، وخزاز جبل ما بين البصرة إلى مكة، وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وكانت مَعَدُّ لا تستنصف من اليمن، ولم تنزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تنزل لها المنعة حتى جاء الاسلام. ويوم حُجْرٍ، وهو لبني أسد على حُجْرٍ (والد امرئ القيس)، وحجر

ملك من ملوك كندة. ويوم الأياد لبني يربوع على بكر، وأياد موضع بالحزن لبني يربوع بين الكوفة وفيد، ويسمى أيضاً: "يوم العظالة، ويوم الإفافة، ويوم مليحة، ويوم أعشاش". وإنما سمي: "يوم العظالة" لأنه قد تعاضل على الرياسة فيه بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو. ويوم اللوى لغطفان على هوزان، واللوى واد من أودية بني سليم، وسببه أن عبد الله بن الصمة، ومعه بنو جشم وبنو نصر أبناء معاوية بن بكر ابن هوزان، غزوا غطفان فظفر بهم وساق أموالهم ومضى بها. وحروب الفجار بين كنانة وقيس، وسميت: "الفجار" لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرمونها ففجروا فيها، وهي فجاران: الفجار الأول ثلاثة أيام، والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين. وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفجار مع أعمامه، وكان يناولهم النبل، وانتهت سنة 589م. ويوم بزاحة لضبة على إياد، وبزاحة ماء، وسببه أن محرّقا الغساني وأخاه إيادا وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم أغاروا على بني ضبة بن أدّ بزاحة فاستاقوا النعم، فأتى الصريخُ بني ضبة فركبوا فأدركوهم واقتتلوا قتالا شديدا. ثم إن زيد الفوارس حمل على محرّق فاعتنقه وأسره، وأسروا أخاه حبيش بن دلف السيدي، فقتلها بنو ضبة، وهُزم القوم،

وأصيب منهم ناس كثير، فقال في ذلك ابن القائف أخو بني ثعلبة:

نَعَمَ الفوارس يوم جيشٍ محرَّقٍ لحقوا وهم يدْعُون: يا لضرار!
 نيرانهم: كان للنار في حياة العرب دور كبير، إذ اتصلت
 بكثير من جوانب حياتهم من خرافات وأساطير وعادات
 وتقاليد وقيم وأوضاع اجتماعية وشعائر دينية، وهو ما يتضح
 من الكلام التالي الذي جمعناه من بعض الكتب عن النيران عند
 العرب وعددها ووظائفها. ونبدأ ببعض أنواعها: فالأولى نار
 المزدلفة، وهي نار توقد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليرها
 المنطلقون من عرفة، وأول من أوقدها قُصَيّ بن كلاب. الثانية
 نار الاستمطار، إذ كانوا في الجاهلية إذا احتبس المطر جمعوا
 البقر وعقدوا في أذناها وعراقبيها السَّلْعَ والعُشْرَ ويصعدون بها
 في الجبل الوعر ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك يؤدي
 إلى سقوط المطر. قال الشاعر:

أداع أنت بيقوراً مسلعةً وسيلةً منك بين الله والمطر؟
 الثالثة نار الحلف، وكانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا
 النار وعقدوا الحلف عندها فيذكرون خيرها ويدعون بالحرمان
 على من نقض العهد. وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت،
 فإذا استشاطت قالوا للحالف: هذه النار تهددتك. يخوّفونه بها
 حتى يحافظ على العهد ولا يحلف كذباً. فإن كان الحالف مبطلاً

نُكَل، وإن كان بريئاً حَلَف. ولهذا سَمَّوْها أَيْضاً: "نار المهوَل" و"الهولة". وذُكِرَ أنهم كانوا لا يعقدون حلفاً إلا عليها .

الرابعة نار الطرد، وكانوا يوقدونها خلف من يمضي ولا يجبون رجوعه (وهي تذكرنا بما يقوله المصريون من أنهم سيكسرون وراء من لا يريدون أن يروا وجهه كرة أخرى قلة ماء). الخامسة نار الحرب، إذ كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا جيشاً أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم، وهو نوع من أنواع اللغة، بيد أنها لغة بصرية لا صوتية. وقد يكون في قوله تعالى عن اليهود ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ومحاولاتهم الدائبة لتأريث الحروب بينهم وبين الأمم الأخرى: "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله" إشارة إلى هذا. السادسة نار الحرّتين، وكانت في بلاد عبس، فإذا كان الليل أضاءت نار تسطع، أما بالنهار فيرى دخان مرتفع، وربما بدر منها عنق فأحرق من مر بها، وقد يكون ظهورها، إن صحّ، راجعاً إلى أن الأرض التي تظهر فيها متشعبة بالنفط. السابعة نار السعالي، وتظهر للمتقفر (أى المنقطع في القفر) فيتبعها فتهوي به الغول على زعمهم. وواضح أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون خرافة من خرافاتهم. الثامنة نار الصيد، وهي نار تُوقد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها. التاسعة نار الأسد، وهي نار توقد إذا خافوا الأسد لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن

النار. وفي الريف المصرى كنا، ونحن صغار، نسمع من الفلاحين أن الذئب يخشى النار خشية شديدة. ولهذا كان إذا تأخر أحدهم في الحقل ليلاً أشعل ناراً وبقى بجوارها حتى لا يعدو عليه الذئب فيفترسه. العاشرة نار القِرَى، وهي نار توقد ليلاً ليراهم الأضياف فيهدتوا إليها.

الحادية عشرة نار السليم، وهو الملسوع، وكانوا يوقدونها للملسوع إذا لدغ، وكذلك الجروح إذا نزف دمه والمضروب بالسياط ومن عضه الكلب، ويساهرونهم بما كي لا يناموا فيشتد الأمر بهم فيؤديهم إلى التهلكة. وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فلعلّ القراء لم ينسوا ما حدث منذ سنوات حين استطاع أحد اليهود في العاصمة الأردنية حقن خالد مشعل أحد أبطال حماس بحقنة سم في أذنه، فاتصل الملك حسين على الفور بالمسؤولين الإسرائيليين كي يمدوه بالترياق الذى يبطل مفعول هذه الحقنة. وأذكر أن الأطباء المعالجين شددوا في نصح مشعل بأن يغالب النوم بكل ما عنده من إرادة كيلا تغفل عينه أبدا مهما تكن الظروف إلى أن يصل الترياق ويتم حقنه به، وإلا مات. الثانية عشرة نار الفداء، ويقال في تفسيرها إن ملوكهم كانوا إذا أسروا نساء قبيلة من القبائل خرجت إليهم السادة للفداء أو الاستيهاب، فيكرهون أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفن قدر ما يجسونه لأنفسهم

من الصَّيِّ فَيُوقِدُونَ النارَ لِعَرْضِهِنَّ. الثالثة عشرة نار الوَسْم، وهي النار التي يسم بها الرجل العربي إبله. الرابعة عشرة نار الحُبَّاب، وهي كل نار لا أصل لها، مثل الشرار الذي ينقذح من نعال الدواب... إلخ.

أسواقهم: هي تجمعات تجارية واجتماعية وثقافية كانت تُعقد في أماكن مختلفة من شبه الجزيرة بطريقة دورية، ويأتيها العرب من كل الأرجاء فيتاجرون ويسمعون المواعظ والخطب ويتنافرون ويتفاخرون وَيَسْعُونَ في فكِّ أسراهم عند القبائل الأخرى. كما كانوا يتناشدون الشعر ويتحاكم مبدعوه إلى كبارهم كالنابغة الذبياني، الذي كانت تُضرب له قبة حمراء من أدم فيحكم بين الشعراء وتكون كلمته هي الفاصلة. وكانت القصائد التي تحوز إعجاب هؤلاء الحكمين تطير في أرجاء الجزيرة ويتناشدها العرب في كل مكان. كما كان للعرب حكام يرجعون إليهم في أمورهم الأخرى ويتحاكمون أمامهم في منازعاتهم ومواريتهم ومياهم ودمائهم لأنه لم يكن لهم دين يرجعون إلى شرائعه، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والجد والتجربة، ومنهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وعامر بن الظرب وعبد المطلب وأبو طالب وصفوان بن أمية وغيرهم. وكان في نساء العرب أيام الجاهلية أيضا حاكمات اشتهرن بإصابة

الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأي، منهن صُخر بنت لقمان، وابنة الخس، وجمعة بنت حابس الإيادي، وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني، وحدّام بنت الريان. وكان امتناع الناس في الأشهر الحُرْم عن إيذاء بعضهم بعضاً يساعد إلى حد ما في الإقبال على هذه الأسواق. والمقصود هنا الأسواق الكبرى، أما الأسواق الخلية الصغرى التي كانت تُعقد أسبوعياً فكثيرة جداً، وليست من اهتمامنا في هذا السياق. وقد عرفت الجزيرة العربية عدداً غير قليل من تلك الأسواق الموسمية، إذ بلغت أكثر من عشرين سوقاً: من أهمها سوق دومة الجندل، وكانت تقع عند التقاء عدد من الطرق المهمة بين العراق والشام وجزيرة العرب، وموسمها شهر ربيع الأول إلى نصفه، وموقعها مدينة الجوف الحالية. وكان يعشّر من يحضرونها (أى يأخذ منهم قيمة العُشْر من ربح تجارتهم) رؤساء آل بدر في دومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشّروهم بعض رؤساء كلب. وكان العُشْر يؤخذ عيناً أو نقداً بحسب الثمن، ولما كان النقد قليلاً إذ ذاك كان الدفع عيناً هو الغالب في أداء هذه الضريبة. ثم سوق المُشَقَّر، والمشَقَّر حصن بالبحرين قرب مدينة هجر، وتُعقد سوقه في جمادى الآخرة. ثم سوق هَجَر من أرض البحرين، وهي سوق التمر الذي يُضرب به المثل فيقال: "كجالب التمر إلى هَجَر"، وهو يساوى المثل

المصرى: "بيع الماء في حارة السقائين"، وكانت تعقد في ربيع الآخر، وكان يعشّر مرتاديه المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم. ثم سوق عُمان، وكانت تقصدها العرب بعد الفراغ من هجر، ويقيمون بها حتى آخر جُمادى الأولى، وتجتمع فيها تجارة الهند وفارس والحبشة والعرب. ثم سوق حُباشة، وهي سوق تهامة القديمة، وكانت تُقام في رجب، وقد ورد أن الرسول دخل إليها بتجارة السيدة خديجة رضي الله عنها ذات مرة هو وغلماها ميسرة أيام أن كان يشتغل عندها قبل البعثة فربحا ربحا حسنا. ثم سوق صُحار، وهي مدينة عمانية تقع على البحر، وكانت سوقها تعقد في رجب. ثم سوق الشَّحْر على الساحل الجنوبي بين عدن وعمان، وكانت سوقا لتجارة البحر والبر، وتعقد في منتصف شعبان. ثم سوق عَدَن، وينتقل إليها العرب بعد انتهائهم من سوق الشَّحْر، وتُقام في الأيام العشر الأوائل من رمضان. ثم سوق صنعاء، وتستمر من منتصف رمضان إلى آخره. ثم سوق حضرموت، وكان انعقادها في منتصف ذي القعدة، وربما أقيمت هي وعُكاظ في يوم واحد، فيتوجه بعضهم إلى هذه، وبعضهم إلى تلك.

أما أشهر هذه الأسواق على الإطلاق فأربعة هي سوق عكاظ، وكان مكانها بين مكة والطائف، وإن كانت إلى الطائف أقرب، وكانت تستمر عشرين يوماً من أول ذي

القعدة إلى العشرين منه، وهي أشهر أسواق العرب وأعظمها شأنًا. ولم تكن عكاظ سوقا تجارية فحسب، بل كانت أيضا سوقا أدبية يجتمع فيها الشعراء من كل صُقع، ولهم محكمون كالنابغة الذبياني تُضرب لهم القباب، وقولهم في الشعر والأدب لا يُردّ. كما كانت كذلك مكائًا لأصحاب الدعوات الإصلاحية مثل قُسن بن ساعدة الإيادي، الذي كان يخطب في الناس ويذكّرهم بعظمة الخالق. وورد أنّ الرسول رأى قُسنًا في تلك السوق على جمل أحمر. ومن خطبائها المشهورين أيضا سحبان وائل، الذي ضُرب به المثل ف قيل: "أخطب من سحبان". ويقال إنه إذا خطب يسيل عرقًا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه. وكان الخطباء يخطبون وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقسيّ ويشيرون بالعصا والقنأ راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض. وكانت شؤون هذه السوق لقيس بن عيلان وثقيف، وهي سوق عامة ليس فيها عشّار، وكانت تحضرها قريش وخزاعة وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أحياء العرب يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وغيرها. ثم هناك سوق مَجَنَّة، وتعقد بأسفل مكة بمَرّ الظهران. وكان الناس يقبلون إليها بعد عكاظ وبقيمون بها الليالي العشر أو العشرين المتبقية من ذي القعدة حتى يَروا

هلال ذي الحجة فينتقلوا إلى ذي الجِزَار للحج. وهي، وإن كانت أقل شأناً من عكاظ وذي الجِزَار، تساويهما في نظر المُحْرِمِينَ من العرب وتتمتع باحترامهم جميعاً حتى كانت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تحضروا سوق عكاظ ومجَنَّة وذي الجِزَار إلاَّ مُحْرِمِينَ بالحج". ثم سوق ذي الجِزَار، وهي على مسافة ثلاثة أميال من عرفات بناحية جبل كِئب، أو كانت تعقد بمِئى بين مكة وعرفات، على خلاف في ذلك، وكانت تنعقد في ديار هُذَيْل حين يهَلُّ ذُو الحِجَّة فينصرف الناس من سوق مَجَنَّة إليها، ويقيمون بها حتى اليوم الثامن من ذلك الشهر، وهو يوم التروية. وهذه السوق تتلو عكاظ في الأهمية، وكانت تؤمها وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق الأخرى أو لم يشهدها. ويجري فيها ما يجري في غيرها من البيع والشراء وتناشد الأشعار والمفاخرة والمفاودة. ورؤى أن الرسول عليه السلام كان يؤمها لبث دعوته إلى الإسلام. وكان للأسواق دور كبير في التقريب بين قبائل العرب لغةً وأدباً، فضلاً عما كانت تحدثه من انتعاش اقتصادي بينهم.

ولعل من المستحسن أن نثريث قليلاً عند عكاظ، أهم أسواق العرب كلها، لتقديم صورة لها مفصلة بعض الشيء: لقد كانت تقع في الجنوب الشرقي من مكة، وعلى بعد عشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة في واد فسيح فيه

نخيل وأعشاب وماء. وتكمن أهميتها في وقوع الحج بعدها مباشرة وفي قربها كذلك من مكة. فمن أراد الحج من العرب سهّل عليه أن يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغشيانه سوق عكاظ وبين الغرض الديني بالحج. كما كانت تنعقد في شهر من الأشهر الحرم لا تُقرَع الأستة فيه حتى ليلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يزعهه تعظيماً له. وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية واضحة، وهي أن يأمن التجار فيه على أرواحهم وأموالهم. وكان يأتي إلى عكاظ قبائل قريش وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب فتتزل كل قبيلة في مكان خاص بها. وفي التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مع العباس بن عبد المطلب إلى عكاظ ليرى منازل القبائل فيها، ويروى كذلك أنه عليه السلام جاء كندة حيث يتزلون بعكاظ. كما كان يشترك فيها أهل اليمن والحيرة. ويقول الأزرقي: كانت في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب، إذ كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعز العرب، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد، فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته. ويروي ابن الأثير أن النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى إبرويز على الحيرة كان يجهز

كل عام لطيمة، وهي القافلة من التجارة، لتباع بعكاظ. فترى من هذا أن بلاد العرب جميعها كانت تشترك في هذه السوق.

فإذا كان الحج خرج الناس إلى عكاظ فيصبحون به يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تنعقد فيها أسواقهم ويقوم على كل قبيلة أشرافها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء. فإذا مضت أيام السوق انصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عَشْرًا يتاجرون، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي الحجاز ثم إلى عرفة. وكانت قريش وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ والمجنة وذا الحجاز إلا مُحْرَمِينَ بالحج، وكانوا يستعظمون أن يرتكبوا شيئاً من المحارم أو يعتدى بعضهم على بعض في الأشهر الحرم. وكانت لسوق عكاظ عدة وظائف: فهي متجر تُعْرَضُ فيه السلع على اختلاف أنواعها من السيوف والأدم والحريير والوكاء والحذاء والبُرود من العصب والوشى والسمن، إلى جانب الرقيق وغيره. ولم تكن السلع التي تُعْرَضُ في تلك السوق مقصورة على منتجات جزيرة العرب وحدها، بل تباع فيها كذلك حاصلات الحيرة وفارس ومصر والشام والعراق. ويروون أنه قبل البعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقود وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق.

وكانت للسوق، إلى جانب ذلك، وظائف اجتماعية مختلفة: فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ. وكانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر هناك فيقوم رجل فيخطب قائلاً: ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه قولاً. فإن أُعْتِبَ، وإلا أقام شاخصاً يشبهه على رمح منصوب فلعله الناس ورجوه. ومن كان له دَيْن على آخر أَنْظَرَهُ إلى عكاظ. ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ، ومن ذلك ما ذكره الأصفهاني من أن رجلاً من هوازن أُسِرَ فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه، فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل قبيلة مذحج يستصرخهم. وكثيراً ما تُتَّخَذُ السوق وسيلةً للخطبة والزواج، فيروي صاحب "الأغاني" أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطَّفِيلِ بموسم عكاظ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر، فتردد أبوها ففخر كل منهما بقومه وعدد فعالمهم شعراً. ومن كان صعلوكاً فاجراً خلعتة قبيلته في سوق عكاظ وتبرأت منه ومن تصرفاته، مثلما فعلت خزاعة حين خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ وأشهدت الناس على ذلك معلنةً أنها لا تطالب بأبنة جريرة يرتكبها ضد أي إنسان. ومن كان داعياً إلى إصلاح اجتماعي أو ديني وجد فرصته في عكاظ

حيث تجتمع القبائل من أنحاء الجزيرة كلها. وكثيراً ما وقف قُسّ بن ساعدة بسوق عكاظ يعظ ويخطب على جمل له، فيرغب ويرهب ويحذر وينذر. وعندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنهما مَجْمَع القبائل، إذ كانت قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها، ويبعث ملك الحيرة تجارته إليها، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق. وكان ذلك الاجتماع أيضاً وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات وأخذ العرب بعضهم من بعض ما يرون أنه أليق بهم وأنسب لهم. كما كان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق يُطْلَعُونَ العرب على أشياء من أحوال تلك الأمم الاجتماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة يُلقَى فيها الشعر والخطب، إذ كانت بها منابر يقوم عليها الخطيب فيعدد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام. وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص بها، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة أو عند شجرة أو حول خطيب يخطب على منبر أو في قباب من آدم تقام هنا وهناك. وكان أشرف القبائل يتوافقون بالأسواق مع التجار لأن الملوك كانوا يَخْصُون كل شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا عكاظ فإنهم يتوافقون بها من كل أوب.

الفهرست

- 7 كلمة الافتتاح:
- 15 1- الشُّعْر:
- 85 2- القَصَص:
- 131 3- الأمثال:
- 183 4- سَجَع الكُهَّان:
- 211 5- الخُطْب:
- 287 6- المجتمع الجاهلي من القرآن:
- 7- الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف والفنون
- 355 والأيام والنيران والأسواق: